رواية

سيلفيا إيباراغويري

ترجمة: زهرة حسن

مكتبة 1613

أرض النار

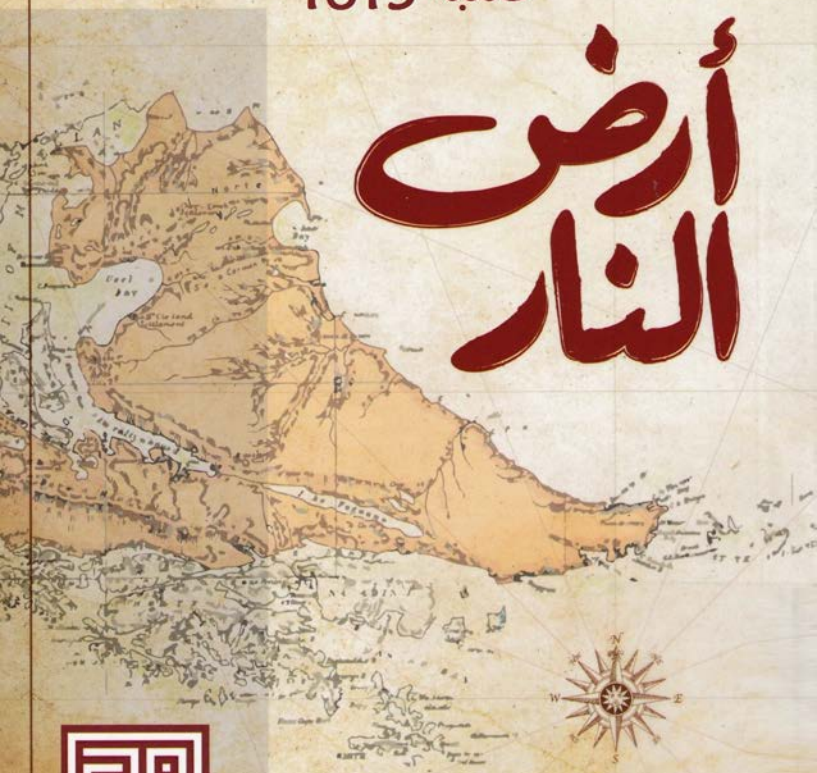

أرض النار

سيلفيا إيباراغويري

Author: Sylvia Iparraguirre,

Tierra del fuego

Copyright ©

Translated from English by:
Zahra Hassan

Design by:
Digitalized Kuwait

ترجمها عن اللُّغة الإنجليزية:
زهرة حسن

الإخراج الفني:
ديجيتليزد كويت

الطبعة الأولى | سبتمبر 2020
ISBN: 978-9921-712-29-2
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:
2020/0883

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر
© Alkhan Publishing & Distribution

+965 99462219 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفونوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

أرض النار

سيلفيا إيباراغويري

ترجمة

زهرة حسن

2020

Sylvia Iparraguirre

Tierra del fuego

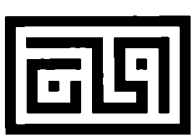

2020

"أين تنتهي الرغبة في المعرفة؟ هو لا يعلم! ما الذي يكمن وراء ما يراه؟ العزلة والخطر والوحشية والموت!... الرجل الذي يتحرّك بين كل هذه المشاهد تتكشّف له مرةً واحدةً مخاوفُ وشكوكٌ عظيمة، وأحلامٌ تشغل بالَه حتى في ساعات اليقظة".

دومنغو ساريمنتو

”يعذّبُني اشتهاءٌ مستمرٌّ للأشياء البعيدة“.

هرمان ملفل

الجزء الأول

(لوبوس، ١٨٦٥)

حدث شيء غير عادي اليوم في منتصف هذا الفراغ، فنادراً ما يكسر السهل رتابته اللا نهائية. عندما ظهرت نقطة في الأفق، وكبرَت واتّضحَت تدريجيّاً حتى تحوّلت إلى فارس، وعندما كان من الواضح أن هذه المنازل الفقيرة كانت هدفه، جَعَلَنا نفادُ صبرنا ننتظره -مع أننا كنا نشاهد بعين هادئة تدرَّبت بعناد على مراقَبة الأفق إذا صحّ القول. كان ظهوره هذا في الواقع شيئاً غير عادي، ومع ذلك، كنت أتفرّج عليه من منزلي المفصول عن الآخرين مسافة فرسخ وهو يتّجه نحونا، لم أستطع حتى أن أتخيّل أهميته الحقيقيةً. الأهمية التي ستظهر بعد ساعات. حين أقول نحونا، فأنا أعني حفنةً من الجيران المتناثرين الذين يشكّلون ما نسمّيه قرية لوبوس. رأيته على بُعد حوالي مئتَي ياردة وهو يتّجه غرباً. استطعت تمييز مظهره الجانبي وسرج الحصان البنّي. كان الوقت ظهراً عندما طلبني الرجل إلى المتجر العام. كانوا قد أحضروا له شيئاً ليأكله وشيئاً ليشربه وأرسلوا شخصاً لإحضاري.

كانت هناك رسالة موجَّهة إليّ في البريد المتّجه جنوباً، التي من النادر ما يتمّ تسليمُها بهذه الطريقة. من دون أن يترجّل، جاء عامل المزرعة الذي أرسلوه لإحضاري بالرسالة التي طلب منه إبلاغها لي: يجب أن يتمَّ تسليمُها لي شخصياً.

قبل الدخول، نظرت إلى الرجل. بدا أنه في حالة ميّالة للثرثرة. لقد أتى بأخبار عن الحرب مع الباراغواي وقد اعتقدت أنها كانت صحيحة جزئياً وجزء منها من تأليفه، وهي قصة قَبلَها الحاضرون دون قول كلمة أثناء ملء كأسه بالجنّ من وقَت لآخر، وهي علامة غير معلنة على أنهم جميعاً مصغون باهتمام. لاحظوا وجودي بعد برهة قصيرة. وقف الرجل ومسح فمه بظهر يده: "هل أنت الميجر الإنجليزي؟".

قبل أن أتمكّن من الإجابة، قال الرجل العجوز، في الركن المعتاد له في الجزء الخلفي من المتجر، "لا. كان الميجر[1] والده، الغرينغو[2]. هذا صديقنا، غيفارا، ليس إلا". في البداية تحوّلت كنية والدي الإنجليزية في اللهجة الأرجنتينية من -مالوري- وانتهى بها الأمر لتصبح (ماجوري)[3]، ومن ثَم، صار من الغريب أن يكون رائداً في الجيش، لكنني لم أقل شيئاً.

الناس هنا عشائريون وليسوا فضوليّين فضولاً مفرطاً، ومع ذلك، بالنسبة إلى جيراني غير المتحضّرين، فإن الرسالة وتسليم الرسالة نفسها، وكذلك الإجراء الكامل الذي قام به الرجل، الرصين في طريقته، وهو البحث في حقيبة السرج وإخراج هذه الأوراق الصفراء، التي تم التعامل بها كثيراً

(1) الميجر: تعني الرائدَ وهي رتبةٌ في الجيش.

(2) الغرينغو: تسميةٌ تُطلق في أمريكا اللاتينية على شخصٍ أبيضَ ينتمي إلى دولة تتكلّم اللغة الإنجليزية.

(3) في الأرجنتين يلفظ حرف (ل) مثل حرف (ج).

وختمها كثيراً. وطريقته بمراقبتي كما لو كان عليه أن يتأكّد من وجود صلة بين وجهي وبين ما كان يضعه في يدي، أو كما لو كان برودي في تلقّي الرسالة، على ما أظنّ، جعله يشكُّ في أنني كنت مَن تمّ توجيهها إليه، كان كل ما يتعلّق بالأمر غامضاً. نظر جميع الحاضرين إلى الأوراق المختومة والمطلية بذاك الشكّ الشائع ما بين الأميّين، والطريقة التي تنظر بها إلى شيء يحتمل أن يفجّر سلسلة من الأحداث غير المتوقّعة.

الآن يمكنني أن أؤكّد لك أن الرسالة، والرجل الذي ظهر واختفى في السهل، والأشياء التي شرحتها للتو، بدأت في الانزلاق بشكل لا مبالي لتصبح طيَّ النسيان. إن رتابة الأيام هنا في لوبوس أشبه بنهر بطيء وقويّ يخفي الأحداث حتى يتم تحويلها إلى حجر مصقول، ثم بعد ذلك إلى حبّة رمل، وفي النهاية تتلاشى إلى لا شيء. وفي حالتي، على الأقل، تم تحقيق النتيجة التي يشتبه بها الجيران، وأحدثت الرسالة في الواقع تغييراً لم يكن متوقّعاً. وكدليل على هذا المنعطف، اسمح لي أن أشير إلى شيء غير ذي صلة تماما إلى المجرى الطبيعي لأيامي التي تَحدُث أمام عيني، على هذه الطاولة: فعل الكتابة أو عزمك على الكتابة.

عندما غادر الرسول وابتلعته المروج مرة أخرى، ركضت إلى المنزل وفتحت الأختام وطلاءات الورنيش وقرأت

الكلمات القادمة من الجانب الآخر من المحيط. قرأت الرسالة وأعدت قراءتها مراراً وتكراراً. بعد ظهر ذلك اليوم أخذت غليوني وتبغي وغادرت المنزل. مشيت في عمق البراري حيث قبّة السماء تسيطر وتهيمن على المرء. وفوقي سماء من أنقى ألوان الأزرق، وتحتي المرج أشبه بدائرة مسطّحة. كلبي أياكس هو الشاهد الوحيد الذي كان برفقتي. كانت الرياح تجتاح الأرض الجافّة، وفي الأعلى، سرب من الغاق[1] يخترق الأجواء. عدت وحبست نفسي في منزلي. مرة أخرى، قرأت ما أترجمه الآن:... نظراً لأنك كنت شاهداً متميّزاً ومباشراً لتلك الأحداث، نودّ منك أن تضع وصفًا دقيقًا لتلك الرحلة، وللمصير اللاحق للمواطن المنحوس الذي شارك كزعيم للمذبحة التى تمّ محاكمته عليها في الجزر.

أثارت الرسالة اضطراباً متزايداً في داخلي. ماذا كانت النسخة المناسبة المطلوبة في حالة "المواطن السيّئ الحظ"، الرجل الذي أطلق عليه الإنجليز اسم جيمي بوتون، وهذا هو اسمه الحقيقي، واسمه عند اليابانا، لم يكن أحد يعرفه قطّ؟ الهندي الذي يرتدي القبّعة، بخدَّيه اللامعين تحت القبّعة، مرتدياً معطفاً على شكل عباءة، كأنه حُوذيّ، قصير وثخين بمظهر غريب، إنه بوتون، المطيع والمبتسم، يرمي العملات

(١) طائرٌ مائيٌّ.

المعدنية في الهواء فوق الحجارة القذرة لأرصفة لندن؟ أو المتوحّش من كايب هورن، ذلك العاري تحت المطر الجليدي، وجسده تفوح منه رائحة الشحم الكريهة، وفي شعره جزء مفقود ووجهه تلطّخه بقع سوداء؟ أو في النهاية، الرجل المسنّ الهادئ الذي رأيته مرة أخرى بعد سنوات على مقعد المتّهم أثناء المحاكمة التي جرت في الجزر، الذي كانت عيناه الغائرتان في محجريهما لا تعرفان الخوف، حيث نظر إلى البيض للمرة الأخيرة، الرجال البيض الذين جاؤوا من الشرق. نعم، لقد اتخذ مصير جيمي بوتون منعطفاً غريباً؛ لأن القبطان أخذه مبثابة رهينة مقابل بعض الأزرار المصنوعة من أمّ اللؤلؤ[1]، لكن لم يكن هناك "مصير لاحق" بالنسبة "للمواطن المنحوس".

ومع ذلك وفوق كل شيء، لقد أثارت الرسالة تساؤلات أخرى لديّ، كيف وجدوني؟ وعلى افتراض أنهم كانوا يعرفون كيف يجدونني، لماذا تأخّرت الرسالة ستة أشهر، في حين كان من الممكن أن تكون مدة شهرَين، مدة أكثر طبيعية؟

لم تُفتح الرسالة قبل أن أستلمها؛ وقد كنت أنا أوّل من يعرف محتوياتها. بعد أن أبعدت هذا الاحتمال، تصورت مسار

---

(١) أمّ اللؤلؤ، أو عرق اللؤلؤ: هو مجموعة من الموادّ القزحية اللون التي تنتجها بعضُ الرخويات كقشرة داخلية وهي ما يتكّون منها اللؤلؤ.

تنقّل الرسالة: ليفربول أو بليموث، جزر الرأس الأخضر، ربّما جزر الأزور[1]، البرازيل، ميناء مونتيفيديو[2]، بوينس آيرس. في مرحلة ما على الطريق المرسوم، تدخّلت المصادفة العمياء. المصادفة والرتابة هما ثوابت المحيط. لا بدّ أن تكون حقيبة البريد بقيت مع البضائع التي ينبغي أن تسلم بالسرعة القصوى. أو أنه قد تم تفريغها بخطأ ما في ميناء سابق. أو، على الأرجح، ما حدث كان شيئاً آخر: لقد وصلت دون أيّ خطأ إلى بوينس آيرس -وهو العنوان الوحيد المكتوب عليها، باستثناء اسمي، حيث نُسيَت هناك شهورًا. لقد كان هذا أكثر من ممكن، وهو أمر نموذجي تماماً لهذا البلد الذي أصبح كسله، مثل أنهاره وأشجاره، جزءاً من النظام الطبيعي للأشياء، وأنه بعد مروره بمثل هذا البحر، يجب أن تبقى الرسالة عدة أشهر على بُعد مسافة قليلة فقط من مكانها المقصود.

دفاعاً عن مواطني بلدي، ينبغي أن أقول إن الأشخاص الموجودين في الميناء يعرفونني جيّداً، لكن مرت بضع سنوات على عودتي للعيش في بلدي. يجب أن أضيف على ذلك كلّه أنه، مع حرب على حدودنا الشمالية التي تبدي الحكومة حماساً كبيراً لها، من كان سيشعر بالقلق بشأن رسالة إلى شخص مجهول، إلى رجل ليس موجوداً على الجبهة حتى؟ هذا هو تفسيري: مع تأخّر الرسالة في ميناء بوينس آيرس،

---

(1) جزر الأزور: هي جزرٌ في البرتغال.

(2) مونتيفيديو: هي عاصمة البرتغال.

تمكّن شخص ما من التعرّف على اسمي ووضعه في البريد المتّجه جنوباً.

عند حلول الليل، حاصرتني الجدران، فخرجت إلى الممر وتركت الظلام يحيط بي ببطء. أخذَت أفكاري تقفز من الحاضر إلى الماضي، تهاجمني مهاجمةً عمياءَ؛ لأن نبأ وفاة القبطان، الذي جلبته الرسالة أيضاً، ضربني ضربة قصمت ظهري؛ هناك خبر موت موقّع في الأسفل، وهو ممهور بأختام الأميرالية البريطانية، من قِبَلك، سيد مكدويل أو مكدونيس. لا يمكنني تمييز اسمك مكان طيُّ الورق وهذا، على ما أفترض، يجب أن يعني شيئاً. كان الختم المزخرف وكلّ الأمور السيّئة أو الجيدة التي مرّت بها الرسالة منعتني من التعرّف على توقيعك بوضوح. والأكثر إحباطاً، لمّا كان لا يمكنني فكّ رموز حروف اسمك، لا يمكنني ربط هذا الاسم بوجه. وجه لا أعرفه على بُعد آلاف الأميال، في أحد المكاتب الخانقة الكثيرة التي لا حصر لها في الأميرالية. إنه مكان واحد، على الأقل، يمكنني أن أذكره بالتفصيل. تمكّنت من التعرّف على الممرات الرخامية والسقوف المليئة بالتجاويف، والتي تحدّث عنها الكابتن بحذر مع أصحاب الإمبراطورية، كما تعرّفت على المنشآت الأقل حيث ينتظر صغار الموظفين الأوامر. أفترض أنك تنتمي للثانية.

ومع ذلك، إذا كان وجهك والطاولة التي كُتبت عليها الرسالة يختفيان فجأة، فالورقة، من ناحية أخرى، حقيقية، يمكنني أن ألمسها. الكلمات دقيقة وموجّهة إليّ، لقد جاؤوا للبحث عني في الطرف الآخر من العالم، وهم يسحبونني إلى الماضي بقوة عاصفة قوية من البحر. بالتأكيد، فإن الكلمات الأخيرة تحمل الوزن (أيجب أن أقول ذلك بدلاً من العبء؟): تحت الأختام والطلاء، هذه الكلمات العادية عن الكابتن التي أترجمها: يؤسفنا إبلاغكم بأنه أنهى حياته بأن حزّ حنجرته بمُوسَى الحِلاقة الخاصّ به قبل ثلاثة أيام بالضبط، في ٣٠ أبريل ١٨٦٥. كانت هذه الكلمات الأخيرة، دقيقةً بشكل غريب، وربما حتى متعمّدة، بالنسبة لرسالة رسمية، بصرف النظر عن مضمونها، إلا أنها أثّرت فيّ بعمق؛ لأنّ الكابتن من تلك السلالة من الرجال الذين لا يمكن للمرء أن يتخيّل أنهم يموتون، فكيف يمكن له أن يتخيّل أنه حزّ عنقه بيديه، كان والدي ينتمي إلى هذه السلالة.

كان هذا الحدث، الذي حدث قبل شهور، يحصل معي الآن، وكان يحدث أمام عيني في الوقت الحالي المطلق لهذه الرسالة: القبطان، مثلما تذكّرته بوضوح لا يمحى، في مقرّ إقامته بالقرب من لندن، في غرفة تبديل الملابس المجاورة لغرفة نومه، أمام المرآة، كان على وشك القيام بحركة هادئة وهي تناول مُوسى الحِلاقة. في البحر رأيته في كثير من الأحيان

يظهر رباطة الجأش تلك في اللحظات اليائسة. كانت برودته فعلاً في أعماقها ليست إلا الاكتفاء الذاتي للكبرياء الشديدة. هنا، كنت عاجزاً، وأنا أشاهده وهو يرفع موسى الحلاقة، ورؤيته وهو يحرّك ذراعه ويضغط على الشفرة أسفل أذنه اليسرى بإحكام شديد، بينما تمسك اليد الأخرى بالكوع حتى لا تستطيع الذراع رفض ما هو مقدم عليه. لقد رأيت الحركة المفاجئة، وفوران الدم المفزع على المرآة، وسقوط الجسد الثقيل، والجثّة على الأرض، بلا شكّ يرتدي زيّاً عسكريّاً. أو ربّما يرتدي ملابسه البحرية وهو شيء أحبّ أن أتخيّله.

لم يكن الكابتن رجلاً يحبّ البقاء على اليابسة. هناك شيء يجب أن أشير إليه مقدّماً، سيد مكدويل أو مكدونيس، شيء يشملني. البحر فيّاض والبحّارة يتقاسمون نوعاً من الجنون الذي لا يمكن لأولئك الذين ظلّوا على اليابسة دائماً أن يفهموه. الأيام والليالي في البحر لا تقاس بالأيام والليالي، ولكن بالتعب غير المعقول الذي يتأتى من صراع مع العاصفة، أو بغرق تعس لجثّة في المحيط، أو الإسقربوط[1] أو الحمّى، أو تقاس بروعة الأصباح، وحركة النجوم بين صواري النصر.

كان وقع الرسالة عليّ كالسمّ، مثل ذاك المشروب في جزر فيجي، الذي يضع بشكل مثير للدهشة أمام أعيننا صوراً

(١) الإسقربوط: هو مرضٌ ناتجٌ عن نقص فيتامين سي.

لهلوسة ثابتة لم يستطع المرء أن يستيقظ منها أو يخرج منها أو ينفصل عنها. مع اشتداد سواد الليل خطوت إلى الداخل وأشعلت المصباح والشموع، وسكبت لنفسي كأساً من النبيذ، ورتّبت القلم والحبر على الطاولة، وكتبت ما أنسخه الآن: سادتي الأعزاء: وصلتني رسالتكم بعد خمسة أشهر من تاريخها في لندن. لا أدري ما الذي سيكون مصيري أو كيف يمكنني مساعدتك بالأحداث التي طلبت منّي أن أحكيَها، تلك الأحداث القديمة جدّاً التي لا أعرف إذا كنت سأتمكّن من إعادة سردها بالتفصيل...

كانت هذه الأسطر على ورقة هي محاولتي الرسمية الوحيدة للإجابة عن رسالتك، سيد مكدويل أو مكدونيس.

أول ما يتبادر إلى الذهن هو الحريق الذي يخترق أحلك ليلة حلّت على الكوكب، والحرائق التي تلتهمها عواصف الرياح الشديدة والتي جعلت أيَّ شخص ينظر من درابزين السفينة مغموراً بالقلق والخوف.

بين خطّي الطول ٦٤ درجة و٧٠ درجة غرب خط غرينتش وما يوازيها ٥٢ درجة و ٥٦ درجة من خط العرض الجنوبي،

يمتدّ الجزء الأخير من أمريكا الجنوبية: تييرا ديل فويغو[1]، تيرا إينكوجنيتا أوستراليس[2]، مفتوحة على مصراعيها، ومقسّمة إلى جزر وقنوات لا نهاية لها، قنوات حتى إذا وقف رجل على الساحل الشمالي لمضيق ماجلان مواجهاً للجنوب، وأمامه خطّ مستقيم على بعد بضعة أميال فقط، فسيرى الطرف الأقصى من هذا التكوين -الجزر الواقعة في أقاصي جنوب القارة- كيب هورن، حيث المحيطات تتلاقى بشراسة. وهناك خلفه، على ظهره، كان الرجل يحمل أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية، مع المناطق الاستوائية، وخط الاستواء، بكل أنهارها وغاباتها وجبالها، وصولاً إلى ألاسكا. ولكن بوقوفه هنا، في هذا النصف من الكرة الأرضية، عند حافّة المضيق، إذا رفع الرجل وجهه إلى السماء، فسيتمكّن من مشاهدة جمال الصليب الجنوبي الأسطوري، وهو جوهرة لا تُقدّر بثمن لكل المارّين من الشمال. ثم إذا فتح الرجل ذراعيه محاكياً الكوكبة التي كان يحدّق بها، فإذا فتحهما على وسعهما، فستشير يده اليسرى إلى مصبّ المضيق الذي اشتاق إليه الإسبان التائهون والخائفون، والسواحل التي أطلق عليها بيجافيتا أرض النيران بسبب سلسلة النيران المتّقدة التي استخدمها السكّان لتحذير بعضهم بعضا من مرور كائنات غريبة هائلة ذات حدبات وأورام تشبه الأشجار، حيث كانت هذه الكائنات تتجوّل في المياه ولكنّها لم تكن حيتان. في الوقت نفسه، كانت يده

---

(1) تييرا دل فويغو، أو أرض النار. أرخبيل في أقصى جنوب أمريكا الجنوبية بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ.

(2) مجاهلُ أرض الجنوب.

اليمنى الممدودة تشير إلى الجبال في الغرب، وهي السلسلة التي تنحدر من الشمال، وتغوص ثم تطفو مرة أخرى على الجزيرة الكبيرة لتتخطّاها وتميل مثل آخر امتداد لذيل التنّين الأسود والمحترق الذي يظهر طرفه المترنّح لآخر مرة على جزيرة قرب الولايات المتّحدة، والذي يرتفع مرة أخرى شمالاً مع العمود الفقري الهائل الذي يمتدّ على مناطق ذات مناخات مختلفة، ويلتفّ حول ارتفاع عظام الكتف ليقفز بقوة في البحر الكاريبي عند دلتا أورينوكو[1] الخضراء. ولكن هنا يقف الرجل بالقرب من المضيق، فوق ذيل التنّين، جنوباً أبعد من الأراضي المسطّحة وقمم ماجلان، وراء الجبال الزرقاء الأشباح حيث يحلم الرجال القادمون من الشرق بوادي الخلود المسحور، مدينة القيصر الذهبية، كان الرجل ينظر جنوبا بعناد، في خطّ مستقيم، إلى كيب هورن[2].

على بعد مئتي ميل للأسفل، انتشرت طبقة من الضباب ونزل المطر على الجزر الأخيرة، ورفعت الرياح المستمرة الأمواج الجليدية العملاقة، وانتشر الزبد في كل الاتجاهات. كانت كيب هورن، موقع حطام السفن حيث البحّارة، تطاردهم السمعة السيّئة لهذه النقطة حيث يبدو أن المحيطات تجتمع في المعركة. وعلى الفكرة الملحّة التي تقول إنّهم سيضيّعون طريقهم في متاهة الجزر والقنوات الغارقة في ضباب أبديّ،

---

(1) نهر أورينوكو: هو واحد من أطول أنهار القارة الجنوبية.

(2) كيب هورن: وهو رأسٌ يشكّل آخرَ بقعةٍ من الجزء الجنوبي في أمريكا الجنوبية.

ظنّوا أنهم تمكّنوا من سماع أنين الغارقين، وهمسات الذين غرقوا على السفن منذ قرون من الزمان والذين بدَوا وكأنّهم ينادون، يطلبون المساعدة من السواحل المغطّاة بالكآبة. كانت الرؤية مرعبة في صباح أحد أيام الإبحار بمركب متصلّب بسبب الجليد، فبدأنا نحن البحّارة بالضرب بقوة كما لو كنّا نحاول كسر تعويذة الشر. علاوة على ذلك، فإن ما أدركته ليس ما تعلّمته أو شاهدته فيما بعد من تلك الأماكن، وموانئها الصغيرة الهادئة حيث انحرفت الأشجار الحمراء وحيث انعكست الحرائق كالنجوم، ولكن أول انطباع خادع لديّ بوصفي بحّار قليل الخبرة. يظهر هذا المشهد نفسه في أغلب الأحيان: مجموعة من الرجال على سطح السفينة، وقد خدّرهم البرد، والكابتن بينهم، يراقبون أدنى أثر للساحل وحرائقه، وهو يعلم في أعماق قلبه، كما أعلم الآن، أن هذا التوق الذي لا يمكن تفسيره، هو مزيج من الخوف والعزم، والذي ولد من ضميره أو كبريائه، أو الذنب الذي يطوف حول حدود العالم السرية.

كان عمري ثمانية عشر عاماً، وكنت -أيضاً- هناك. في المكان نفسه الذي أبحر فيه جون بايرون، جدّ الشاعر الشهير، هناك حيث أسّس أول مستوطنة إنجليزية في الجزر أطلق عليها رجل إنجليزي آخر اسم فوكلاند[1]، دون الاكتراث بمعاهدة عمرها مئة عام. الجزر التي قبل ما يزيد عن قرن من الزمن، قبل أن يفكّر أنسون أن يعدَّها مفتاحاً للبحار الجنوبية، الجزر التي

(١) جزر فوكلاند: هي أرخبيل جزرٍ تبعد ٤٨٠ عن شواطئ الأرجنتين.

أشار إليها القبطان باتباع تعليمات سرية دقيقة من الأميرالية. لكن، بالنسبة لي خاصة، في تلك الليلة، الجزر التي سأرى فيها جيمي بوتون وحيداً للمرة الأخيرة بعد ثلاثين عاماً، وحيث أخذت إجازة إلى الأبد من وجهه الياماناي الغامض.

أدّت الأشياء بعضها إلى بعض. لست ممّن اعتادوا الكتابة، فأفكاري تتحرّك تحرُّكاً أسرع من قلمي، وترتيب هذه الفقرات ليس دقيقاً، على ما أعتقد. لأن الكلمات أشبه بالخيول البرية التي تنطلق عمياء متدافعة، وتلتصق بعضها ببعض وتتبع بعضها بعضاً.

لا أعتقد أن ما أكتبه هو القصة الذي تطلبها، سيد مكدويل أو مكدونيس. ودائما ما أكون متأكدا من ذلك. ولن أكون صادقاً إذا قلت إن الأمر يهمّني.

إنها الثانية صباحاً. غراسيانا نائمة في سريرها. استبدلت بقايا الشمعة من أجل المُضيّ قُدما. هبطت سرعة الرياح وساد سكون الليل شاملاً كلّ شيء. أرى من نافذتي، البامبا[1] في ضوء القمر بمثابة اتساع لا يثيرُ أيّ شيء في المقام الأول والخوف الهادئ بعد ذلك. لا أحد، باستثناء الأشخاص المتهوّرين وعدد قليل من الغاوتشو[2]، سيغامر بالخروج في هذا الصمت. شوهدت بين الحين والآخر مجموعات من

(1) البامبا (السهل): هي خصبة في أمريكا الجنوبية.

(2) الغاوتشو: هو مصطلح يستخدم -عادة- لوصف سكّان أمريكا الجنوبية.

العربات العملاقة التي انحنت من الثقل وهي تتحرّك عبر الأفق كالسفن المفقودة. إذا ذكرت البراري، فذلك لأنه بالنسبة لي لا تزال شيئاً جديدًا بالنسبة لي. فقد ولدت وترعرعت عليه، وغادرت وأنا بالكاد أبدأ حياتي، والآن بعد أن عدت، أحتاج إلى تسميته. أبناء بلدي لا يفكّرون أبداً في هذا المكان، فهم فقط يعيشون فيه.

تقول الرسالة: إن البحرية الملكية، التي خدمت فيها إنجلترا بشرف، ستكون ممتنّة لهذه الخدمة الأخيرة التي تطلبها منك الآن...

كيف وجدتني البحرية الملكية بحق الشيطان هو أحد الأسئلة التي ستبقى دون إجابة. أنا على يقين من أن وصولي إلى الجزر مرّ دون أن يلاحظه أحد من السلطات. أنت لست جاهلاً بحقيقة أنني ابن أم أرجنتينية وأب إنجليزي، وكما هو الحال في العديد من المناسبات الأخرى في حياتي، كان شكلي واللغة الإنجليزية هما اللذان سمحا لي بحضور محاكمة بوتون كأيّ أمريكي آخر.

أن تطأ قدماك الجزر، كما تعلم جيداً، سيّد مكدويل أو مكدونيس، محظور على جميع سكّان الاتحاد الأرجنتيني.

ومع ذلك، يبدو أن بريطانيا العظمى تعرف كل شيء. ربّما مضى على معرفتها بمكاني عدة سنوات. ربّما أخبركم بحّار كان زميلي سابقاً استجوبه أشخاص في لندن عن نيّتي أن أعود

واستقرّ في مكان ميلادي، هذا البلد الذي لا أشعر بالخجل من أن أسمّيه بلدي. ربما تشكّ في أنني لم أكن على علم بأهداف ذاك المقطع الأول الذي تطلب رسالتك تقديم تقرير عنه، لقد كنت أعرف التعليمات السرية التي أعطاها القبطان بشأن القيمة الاستراتيجية لباتاغونيا[1] في الأرجنتين وللجزر...

أنت مخطئ، سيد مكدويل أو مكدونيس. لقد علمتُ فيما بعد ما أعرفه الآن.

ما كتبته قد يعطي الانطباع بأنه كان لي حياة معزولة. لم يكن هذا هو الحال. لو كنت أعيش وحدي حقاً -يأتي عدد قليل من العمّال الميدانيين، وغراسيانا الشابة الأرجنتينية التي تعمل معي وتعيش في المنزل، لا تحتسب- فمنذ عام ١٨٥٨، وهي السنة التي عدت فيها إلى لوبوس لإعادة بناء هذا المنزل، كنت على اتصال متقطّع مع العالم عبر ميناء بوينس آيرس. ترتبط رحلتي الأخيرة إلى الجزر ووجودي في المحاكمة ارتباطاً مباشراً بزياراتي إلى الميناء ومعلوماتي عن السفن والقباطنة، ومن بينهم الكابتن سمايلي. لا مانع من الاعتراف -أسأل نفسي لمن- إنني كنت على اتصال دائم مع البحارة الذين كانوا على متن سفن صيد الفقمات والحيتان التي تتّجه جنوباً طوال الوقت. لم أكن دَهِشاً لما عرفت منهم أن المبشرين الإنجليز الذين ذبحهم شعب اليامانا[2]، ومن التحقيق الذي أمر به الحاكم

---

(١) باتاغونيا: هي صحراء في جنوب الأرجنتين وشيلي.

(2) اليامانا: هي واحدةٌ من الشعوب الهندية القاطنة في المخروط الجنوبي لأمريكا اللاتينية.

مور على الجزر، والذي كان على أعضاء البعثة حضوره أيضاً.

لا يوجد شيء أكثر غرابة من تلك التجربة على الجزر المقفرة التي كنت أعرفها عندما كنت في العشرين من عمري بصحبة القبطان و"الطبيب الصغير"، التي دعاها كثيرون المالوين[1] تيّمناً بالبحّارة الفرنسيين الصالحين لسانت مالو. على بعد ثلاثمئة وخمسين ميلاً من تييرا ديل فويغو، بدأت الرياح تجتاح الشواطئ المهجورة بالوحشية اللا مبالية نفسها التي كانت عليها قبل ثلاثين عاماً تقريباً، لقد عشت من جديد الشعور القمعي ذاته. انبثق من العزلة، من الأشجار التي تتشبّث بالأرض بصعوبة، وتنحني باتجاه الريح، فتسبّب إحساساً أشبه بالعقوبة الجسدية. خرجت في نزهة على الشاطئ الصخري لأتيح لنفسي فرصة التفكير. جلبت لي الريح نفحة قوية من مستعمرة من أسود البحر الذين يعيشون في شبه الجزيرة الصغيرة في مدخل الخليج. الصرخات القوية التي أطلقها الذكور الضخام إلى السماء أتت إليّ من هناك، وفجأة شعرت مجدّداً ببرد المناخ الذي ينخر عظامي كالسكين، كنت ممتناً لمأوى المنازل التي شكّل الآن قرية وكانت جديدة بالنسبة لي.

لسبب ما، نظراً لأن صائد الحيتان الذي أرسلته على متن سفينة إلى كيمبرلي[2]، قد حوّل مركبه إلى الجنوب، فرأيت السواحل الطويلة من منحدرات باتاغونيا، بدأ الممر يظهر

---

(1) المالوين: أرخبيل يتكوّن من أكثر من مئتي جزيرة بالقرب من شواطئ الأرجنتين الجنوبية.

(2) كيمبرلي: منطقة من مناطق أستراليا الغربية.

مثل حلم بشيء خيالي. ومن دون أن يهدأ، زاد هذا الإحساس عندما صعدت إلى الشاطئ ولم أتوقّف إلا بعد يومين فجأة، عندما وجدت نفسي وحدي وجهاً لوجه مع بوتون.

كنت في طريقي للعودة إلى المنازل، وأتذكّر الشعور بعدم اليقين الذي أصابني بالشلل من احتمال رؤية رفيقي القديم. ففي النهاية، لم يكن لقاؤنا، في الضباب قبل أربع سنوات، هو الأخير. وكما في الماضي، مرة أخرى كنّا غرباء في عالم لم يثق بنا. ما الذي سيحلّ ببوتون؟ ما الذي سيفعله عندما يراني؟ كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يدور في خاطري منذ أن غادرت بوينس آيرس. في ميناء ستانلي[1] شكّل بوتون موضوعاً لكل الحوارات، هو المتّهم، وألفريد كولز هو الناجي الوحيد من المذبحة.

أعترف أنني سافرت إلى الجزر من أجل غرضي الوحيد، وهو نيّتي السرية لمساعدته بالشهادة لصالحه إذا استدعى الأمر. لم أكن متأكّداً كيف سأُسوّغ وجودي، لكن هذه كانت نيّتي الحقيقية مع أنّ أحداً لم يكن يعرف ذلك. أنا الآن أكتبها، وأترك الأدلة المكتوبة، سيد مكدويل أو مكدونيس.

في تلك الليلة في ميناء ستانلي، كانت عشية المحاكمة طويلة للغاية. أمضيت جزءاً منها مع أحد معارفي القدامى

(١) ستانلي أو ميناء ستانلي: عاصمة جزر فوكلاند الواقعة ضمن قارة أمريكا الجنوبية.

الكابتن سميلي، قائد السفينة نانسي، التي كانت قد أحضرت السجين من تييرا ديل فويغو. كانت الرياح تدور بثبات في المدفأة الحجرية، إلى جانب المكان الذي استقرَرْتُ فيه، وهذا ما أصابني بالاكتئاب. كنت أفكّر فيما أخبرني به سمايلي، وهنا سيظهر "الوحش السيّئ الطالع" الذي جاء بمحض إرادته من كايب هورن للإدلاء بشهادته، رجل يبلغ من العمر ستّة وأربعين عاماً، مع لغته الإنجليزية البدائية والوحشية، وهو في مواجهة موظّفي الإدارة. قضيّته: الأفعال الدموية أي "المذبحة" التي من المفترض أن قبيلته ارتكبتها تحت قيادته.

من السهل أن أخمّن أنني -يجب أن أصحّح لنفسي- في تلك الليلة التي أرقتُ، كان من السهل عليّ أن أخمن أن اليامانا قد سئموا من الإنَجليز ومهمّاتهم. كان الرجال البيض، الرجال الذين أتَوا من الشرق، قد غزوا أراضيهم واغتصبوا نساءهم وفتياتهم الصغار وقتلوا مواشيهم. لقد أجبروهم على ارتداء الملابس والعمل، وفصلوا الأطفال عن آبائهم وأمّهاتهم. كان من السهل بالنسبة لي -أيضاً- أن أخمّن أن الإنجليز لا يمكن أن يقبلوا فشلهم قبولاً قاطعاً. منذ سنوات، أصبح الناس متحمّسين للمهمة المخصّصة لإنجلترا: التبشير والتعليم. فالجهود المبذولة في ذاك المناخ البعيد والعدائي، وحسن نية المجتمع الإنجليزي، والإشعارات في الصحف، وحتى اهتمام الملك والملكة، قد أفضت لعمل مجزرة همجية.

لم تسفر الآمال الموضوعة في همجيٍّ مدرّبٍ على طُرق

الحضارة ولغاتها، إلا عن القتل. لقد قام بقتلهم جميعاً. لقد حطّموا جماجمهم بالحجارة، وبعد ذلك اعتلوا متن سفينة وسرقوا كل شيء. لم يتركوا شيئاً، حتى المسامير على متن سفينة آلين غاردنر، التي بقيت هناك، صامتة كأنها مسكونة بالأشباح، تتأرجح وتتموّج بلا هدى في خليج صغير بالقرب من مضيق موراي. في الواقع، لقد قتلوهم جميعاً. كولز، طبّاخ السفينة، كان الوحيد الذي أبقَوا عليه. وهكذا سيبقى كولز -أيضاً- الشاهد الوحيد على الحقائق. يا لَلمسكين: في لندن كان هناك المئات من أمثاله، شيء يتم استخدامه في الحروب تلقي به المدن في الموانئ، وهذا ما قيل، عندما تمّت مواجهة بوتون بروايته. قيل لي إن كولز كاد يفقد عقله. فقضاؤه ثلاثة أشهر من الأسر بين اليامانا جعله في حالة قريبة جداً من الجنون. كانوا جميعهم هناك بحضور الحاكم مور وشمّاس الكنيسة وأشخاص مرموقين من الجزيرة. كل ذلك تحت لوحة إعلانية ضخمة ظهرت تلقائياً وجالت في رأسي مراراً وتكراراً قبل خلودي إلى النوم: الإمبراطورية البريطانية ضدّ جيمي بوتون.

وها أنا مرة أخرى، سيّد مكدويل أو مكدونيس، بجوار بوتون كما كنت قبل ثلاثين عاماً. شخص يتعرّض لادّعاءات كاذبة وسط المستوطنين والبحّارة. حالي حال الجميع، ولكن أسبابي مختلفة عنهم، فقد أعجبت بوجود بوتون. يجب أن

تنقضي مدة جيدة قبل أن أتمكّن من التعافي واستيعاب ما كنت أراه. لمَ لا أقول ذلك... شعرت بسعادة غامرة عندما رأيته جالساً دون أيّ خوف في مقعد المتّهم، حتى دون أن أشكّ في أنه كان يعرف أن من بين الحاضرين صديقه القديم وصاحبه. كان الماضي وشبابي الضائع هما ما يدور في خلدي ويقضّ مضجعي. كلّ ما يمكنني قوله هو أنّ اليامانا الذي كانت تغطّيه الملابس الإنجليزية تغطية لائقة لكنه كان لا يزال حافياً، هذا المسنّ الواثق الذي حمل النار في قاربه ويعيش في متاهة من الجزر في نهاية العالم، حدق إليّ ذات مرة وهو على ظهر السفينة بالدهشة والحذر ذاتهما اللتين أحدق بهما إليه الآن. كنّا قد أبحرنا في شبابنا المبكّر إلى المحيط اللا نهائي واكتشفنا معًا عالماً لم يتوقّع أيّ منّا وجوده. كان كل ذلك منذ ثلاثين عاماً.

أتت الرسالة منذ أكثر من أسبوع، وأجد أن فعل الجلوس للكتابة كان قد سيّر حياتي بطريقة استثنائية. حضور غراسيانا الصامت كان قد اتخذ شكل سؤال. نظرت إليّ دون أن تفهم ما الذي يجعلني أنحني فوق الطاولة، أو لماذا لا أذهب إليها. ربّما تدرك، سيّد مكدويل أو مكدونيس، أنه في سنّ الثالثة والخمسين تصبح الحاجة إلى امرأة سهلة التأجيل إلى وقت لاحق.

لقد استوعبت مؤخّراً أن الكتابة في وضح النهار في ضوء الشمس، والكتابة في الليل على ضوء الشموع أمران مختلفان تماماً. ففي وضح النهار أشعر بدافع للحديث عن البيت والأمور اليومية. الآن تمكّنت من التغلّب على الحديث عن أشياء تافهة كهذه، فعلى سبيل المثال، في هذه اللحظة، فإن ذاك الجدار في الخلف يضيئه غروب الشمس، وهو شيء طفيف لكنه فريد من نوعه ومثير للإعجاب جداً. مع حلول المساء، وقعت تدريجيّا فريسة للحزن الذي لا يقهر الذي تستدعيه البامبا، وفي الليل أصبحت محموماً، كما لو أنني لم أكن أكتب بل أحارب أشياءَ أجهلها. تظهر أمامي في تلك الساعة أشياءُ لا تعدّ ولا تُحصى، صور عشتها أو رأيتها وتعيد الظهور كأنها تطالب ألا تستبعد من هذا السرد: من بيوت الدعارة الحزينة في مدغشقر، إلى الأشجار التي يبلغ عمرها قروناً والتي تخترق جذورها العتية جدران المعابد المهجورة، والجزر التي تبدو وكأنّها الجنة، إلى الموانئ المجنونة الرهيبة التي تضجّ بالبشر. لكن حتى لو لم يكن لهذا الأمر علاقة بهذه القصة، فهناك شيءٌ يجب أن أشير إليه. خلال أيام العزوبة التلقائية والصمت كنت أفكّر. لقد اضطررت إلى تقييم الحالة. فقد كان أمراً لا مفرّ منه.

لقد عشت سنواتٍ عديدةً وسط الأحداث، داخل التاريخ. أنا الآن على الهامش، ويمكنني تحليل الأمور من الماضي بالطريقة التي يحلّل بها المرء نصاً مكتوباً. أنا لا أدافع عن أيّ منصب؛ فقد انخرطت بحرب لا تهمّني وكنت أدينها، وأبناء

بلدي لم يهتمّوا لأمري كثيراً، فلا أحد يهمّه أمر الجنوب. لذا أشعر بالضياع، كأنني أجنبي. لحُسن الحظّ فأنا لست رجلاً اجتماعياً، ولست مضطراً لتسويغ أفعالي في الكتابة. حياتي هي حياتي وتهمّني أنا فقط، لدرجة أنه لا يبدو أنّ هناك من يدرك وجودي. ما هي، إذن، الأحداث التي شاركت فيها والتي بعد كلّ هذه السنوات تستحقّ أن تبرز إلى النور؟ بعثة الكابتن وهو في طريقه للتحقيق ولفت الانتباه إلى سواحل باتاغونيا في عام ١٨٢٩. كما تعلمون، لم يكن هذا هو هدفه الوحيد. في رأيي المتواضع، هناك طريقتان لرؤية هذا المشروع: أولاً، إذا أخذنا تقدّم الحضارة في الحسبان، والامتياز الذي يحظى به الرجال الذين يصنعون التاريخ. في هذه الحالة، الغاية تبرّر الوسيلة، فهي مسألة إيصال ضوء التعليم إلى أراض وبشر كانوا غارقين في الظلام. إنها غاية نبيلة؛ نتيجة لذلك، قَد لا تهمّ الوسيلة.

هناك قراءة مختلفة تتناقض مع ما يسمّى إنسانية البشر من الشرق (هكذا أشار سكّان تييرا ديل فويغو إليهم وهكذا أسماهم بوتون). وبهذه الطريقة لرؤية الأشياء، تتحوّل النية الحضارية المزعومة إلى نوع مختلف من الهمجية، أكثر تهذيب من الهمجية التي تلجأ إلى الأسلحة، وأكثر دهاءً. يمكن ذكر الشعار الوحيد لهذا السلوك على النحو الآتي: "كل شيء يتوافق مع الغايات، أجل؛ فكلّ ما لا يصلح يجب أن يتغيّر أو يُخفّض أو يُستبعد. يجب أن ترى الغايات نتائجنا". لقد كان هذا أحد دوافعي للتفكير.

هناك أمر مختلف تماماً وهو أمرٌ حثّته رسالتك، من أجل أن تستحضره ذاكرتي في الوقت الحاضر، يبدو أنها تُجمِّع أو تُركب أحداثاً متباعدة أو ذات طبيعة مختلفة. فما تطلبه مني أن أقوله لا يقتصر فقط على ما رأيته أو عشته، بل ويشمل -أيضاً- الأشياء التي قرأتها أو نقلت إليّ. أذكر لياليَ كثيرةً لا تُحصى على البحر، ليالٍ تملؤها قصص قديمة عن حطام السفن، بما يتماشى مع التقاليد، وهذا في الوقت نفسه ما غرس الرعب في قلب فتى المقصورة، ومن المحتمل أن هذا ما أعدّه للحياة التي سيعيشها. وبالفعل، نُسجت قصص صغيرة عن الإسبان أو الهولنديين لتصبح أساطير أو أحداثاً جديدة، مدعومةً بتفاصيلَ دقيقة، أو أحداثاً واضحة، مثل التعثّر بكتاب ميلفيل أثناء فصل الشتاء القاسي الذي حجزنا في نيويورك، في شتاء عام ١٨٥٣. بينما كنت أتجوّل في شوارع المدينة، صادفت في طريقي متجراً لبيع الكتب وفيه كان الكتاب الذي رافقني منذ ذلك الحين. عندما كنت جالساً في نُزُل بالقرب من الواجهة البحرية، حيث أخذنا أنا ورفاقي أشياءنا إلى أن هبّت عاصفة ثلجية، كان ضوء الظهيرة رمادياً باهتاً عند الثالثة لدرجة أنني اضطررت إلى طلب مصباح للقراءة، وفتحت الكتاب ولم أتمكّن من إغلاقه مرة أخرى إلا بعد أربعة أيام، عندما قلبت الصفحة الأخيرة. بقيت اللوحة التي وضعها المؤلّف في الحانة في نيو بدفورد[1] معي دائماً: وراء الكاونتر، يحجبها الوقت

(١) نيو بدفورد: هي مدينةٌ في ولاية ماساتشوستس.

والدخان، ولم تتوقّف قطُّ عن إثارة الخوف في أي شخص ينظر إليها. في وسط الجليد العائم والأمواج الهائلة، هاجم حوت سفينة بضراوة شديدة وبكامل قوّته، فكان على وشك أن يمزّقها ويسحبها إلى قاع الهاوية في أعماق المحيط. حدث هذا في كيب هورن. كان المشهد الذي تحدّث عنه الكتاب يحدث حيث كنت موجوداً في مناسبات لا حصر لها، حيث كنت أبحر في ضباب جليدي بين الجُزر، وهناك في أحد الأيام قام القبطان بأخذ بوتون رهينةً، ودفع ثمنه زراً، وقام بإحضاره على ظهر السفينة.

تركت عدة أيام تمرّ دون كتابة. إذا بدأت من جديد، فهذا لأنني بالتأكيد تخلّصت من سؤال، بمجرد أن أبدأ هذه القصة -أو أياً كان ما اخترت أن تسمّيه- انقض عليّ كما ينقض كلب على فريسته. بأيّ لغة يجب كتابة هذه الكلمات؟ بهذه اللغة التي أسمّيها لغتي، أو باللغة التي كتبت بها الرسالة، وبعبارة أخرى، لغتك؟ كما ترى، فقد اخترت لغتي من أجل تنفيذ هذا الفعل الأخرق الذي يدفعني كونه عديم الإحساس إلى القيام به. أو ربّما لأن كلّ قصة يجب أن يكون لها كاتبها، ولم أعد أرغب في أن أقصّ ما تطلبه منّي ولكن ما أرغب أنا في قصّه، كما لو أن رسالتك بطريقة غامضة فتحت باب الفيضان خلفها وكل ما عشته كان ينتظر فرصة كهذه. لم أعد نفسي قطّ بحاراً تقليدياً، لكن لا حاجة للقول إنّ البحارة مغرمون برواية القصص.

كما هو الحال، فإن قرار أو غريزة استخدام لغتي الأم وليس لغة الأب يلغي سلفاً أيّ تواصل ممكن. لذلك أنا لا أكتب من أجلك، يا سيّد مكدويل أو مكدونيس ووجهك غير المألوف، أو حتى من أجل الأميرالية البريطانية. من ناحية أخرى، حيث أعيش، فإنّ خطّ الأفق المسطّح يناقض أيّ نوع من الحركة، ويجعلها عديمة الفائدة. كما أنني لا أكتب لأهل بلدي، وأهل هذه السهول، الذين لا يعرفون شيئاً عن الطرف الجنوبي لبلدنا حيث حدثت هذه الأشياء.

لأواسي نفسي، فهمت أن فعل الكتابة يُسوّغ نفسه ولا يحتاج إلى تفسير. على أني أمضيت ثلثي حياتي في البحر، فأنا قارئ جيد؛ لكن ما بين لندن والهمجية، وفي السراء والضراء، أختار الحضارة. عادة ما تسير الحضارة والهمجية جنبا إلى جنب. وينطبق الشيء نفسه على الكتابة والهمجية، كما هو موضّح من قبل دامبير[1] الشهير، فقد أجاد الإبحار بوصفه قرصانًا كما أجاد الكتابة تقريباً. يجب أن أوضح في الحال أن ذرائعي ليست نبيلة. ما هي؟ لست متأكّداً الآن. ومع ذلك، لا بدَّ لي من الاعتراف بشيء: أنا مدين لإنجلترا على الكتب التي قرأتها.

باختصار، منذ خمسة وثلاثين عاماً، في عام ١٨٣٠، كنت

(١) وليام دامبير: كان أولَ رجلٍ من أصلٍ إنجليزيّ يبحر حول العالم ويعمل مؤرّخًا للطبيعة في أستراليا.

عضواً في البَعثة الإنجليزية التي حملت "بوتون" وثلاثة من الهنود من السكّان الأصليين، من بينهم فتاة صغيرة، من كيب هورن إلى لندن. بعد عامين، كنت ضمن الحملة التالية، التي أعادتهم إلى بلادهم. واصلت العمل في البحرية الملكية لعدة سنوات، وبعد ذلك على متن سفن تابعة لدول الأخرى. تعبت من البحر، وقبل ثماني سنوات عدت إلى وطني. وفي يوم من الأيام، علمت بمذبحة المبشرين الإنجليز التي اتهمت قبيلة بوتون بها، التي افتُرض أنه هو الذي قادها أي جيمي بوتون وابنه بيلي. قبل خمس سنوات، في بداية عام ١٨٦٠، كنت شاهداً على محاكمته في الجزر، حيث هبطت سراً، وحيث رأيته وتحدّثت معه للمرة الأخيرة. في العام الماضي، سمعت أنه توفّي أثناء وباء الجدري، لا أعرف دافع الأميرالية للسؤال عن هذه القصة، يجب أن يكون هناك دافع لذلك، وأنا أعلم أن بريطانيا العظمى لا تتصرّف من دون دافع. أيّاً كان هذا الدافع، فهو لا يهمّني أو يمسّني بأيّ شكل من الأشكال، هذه قصّتي وهي ملك لي. من الآن فصاعداً، سأتجاهل هذه الرسالة ومقاصدها الخفية.

بعد أن قلت هذا... قبل أن أتابع، قد يكون من المناسب لهذه القصة أن أقول من أنا.

الجزء الثاني

(بوينس آيرس، ١٨٠٦)

عندما أقول من أنا عليّ أن أتحدّث عن البحر. قبل سنوات عديدة حتى قبل أن ألمحَهُ، كنت أعلم أنه قدري، كما كان مصير الشخصية الرئيسة للكتاب الذي علّمني أبي ويليام سكوت مالوري أن أقرأه، البحر وصوته ولغته الإنجليزية تجمّعت كقوى مجهولة في السنوات الأولى من عمري. عليّ أن أقول ومن حياتي العقلية أيضاً. أمّا من شكّلت حضوراً دائماً في جذوري الأولى، في طعامي، في مهبّ الريح، وفي الخيول، وعلى السهل، إنها والدتي، لوسيا دي جيفارا، واللغة الإسبانية.

وكما هو واضح، فقد كنت أؤجل اللحظة التي سأكتب فيها اسمي. فاسمي هجين. لا يسعني سوى الشعور بالآثار العنيفة التي سيرتّب إدلائي به على ما أكتب.

كنيتي أخذتها من والدتي: جيفارا، أمّا في اختيار اسمي الأول، فقد ترك الخيار لأبي، فقام بتخفيف اسمي الأولَين، جون وويليام، إلى جاك. أعترف أن إصرار والدي على إعطائي أسماء إنجليزية كان غريباً، في حين أنه لم يكن يمانع في ترك اسم عائلتي الأخير لأمي، التي لم يتزوجها قطّ. أنا أعدّ هذا بمثابة علامة أخرى على اقتلاعه الجذريّ وموهبته الغامضة في عدم الانتماء إلى أيّ مكان محدّد، وعدم ترك اسم عائلة أو أيّ وريث خلفه.

لقد لاحظت تناسقاً معيّناً بيني وبينك، يا سيّد مكدويل أو مكدونيس، بين رسالتك وما أكتبه. لا أستطيع معرفة اسمك، لا بدَّ أنّ اسمي سبب لك الحَيرة. من هو -إذن- الذي يكتب؟ سأقولها بطريقة أخرى، أو من وجهة نظر أخرى، يعترف بها الآن صاحب الاسم الموجود بالفعل على الورق: الشخص الذي يتذكّر هذه الأحداث ويكتب هو جون ويليام جيفارا، البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، المولود في جزء من الأراضي السهلية التي يطلق عليها اليوم اسم الاتحاد الأرجنتيني. لقد نشأ في بلد بدائي، بعيداً عن كلّ شيء تقريباً، ويتحدّث ويكتب لغتين، وقد تبنّى دون أن يدري نوعاً من الهوية المزدوجة، أخذ من والدته: الأرجنتينية، تديّن الروم الكاثوليك، ومن والده الإنجليزي البروتستانتي أخذ التجديف. أعطاه خلط اللغات بعض الميول اللا إرادية: وذلك تجاه العنصرية والثبات من جانب والدته؛ وأيضاً تجاه الاقتلاع من الجذور والكآبة من جانب والده. ومن ثَم، من حيث المعتقد، فهو متشكّك. ومن حيث الشخصية، هو الشخص الوحيد الذي ترك السهل في السابعة عشرة من عمره وذهب إلى البحر.

كانت والدتي امرأة رقيقة ذات بَشَرَة داكنة بوجنتَين عاليتَين وعينَين داكنتَين كبيرتَين. وباستثناء التعليم الكاثوليكي الصارم، لم يعتقد والداها أنه من الضروري القيام بمزيد من الدراسة وهي بالكاد تعرف كيفية القراءة والكتابة. اعتاد والدي أن

يقول إنّها عانت من "الخنوع المتعصب" تجاه الكهنة، الذين كرههم، فقد كانت تعتريها نظرة حَيرة وعدم ثقة، فقد كانت تحدّق بوجهي وقتاً طويلا وشديدا، كما لو كان من الصعب تصديق الطفرة المعجزة التي كوّنت ابنها. كما قالت، كان له "شعر بلون الرمل" وعيون رمادية، وكثيراً ما كانت تأخذني على متن فرسها لشراء الشموع أو السكر من المتجر الريفي. هناك حيث نصف المكان مضاء، وكثيف برائحة جلد الغنم الخام وزيت الشموع، يجعلونني أتحدّث الإنجليزية، فبالنسبة لصبي يبلغ من العمر خمس سنوات أو ستّ، كان الكلام "بلغة أجنبية" نادراً مثل معجزة أو شخص استثنائي في معرض ريفي. كانوا يجعلونني أقف على رأس برميل ويأمرونني: "تحدّث لغة الغرينغو[1]، تحدّث لغة الغرينغو!".

كنت في البداية أتظاهر بالغباء، وبعد ذلك، ربّما يحفّزني الاهتمام المفاجئ بشخصي، ممّا يجعلني أبدأ في ربط العبارات غير الدقيقة لأُسمي الأشياء في المكان. ومع كل كلمة كانوا يهتفون بالتعجّب ونوبات من الضحك، الأمر الذي كان يجعل والدتي منزعجة، فتأتي لإنقاذي، وتخليصي من تلك التجمّعات من الهمج الضاحكين الذين يعيدهم سماعي إلى ماضٍ ما زال عالقاً في ذاكرتهم، أفعال دموية حدثت قبل

(1) الغرينغو: مصطلحٌ يُستخدمُ في البلدان المتحدّثة بالإسبانية، ويشير إلى شخص أبيضَ ينتمي إلى إحدى البلدان المتحدّثة بالإنجليزية.

سنوات، قبل مولدي، الذي شاركوا فيه بشيء بطولي لم أكن أفهمه مع أنهم أخبروني عنه، كما لو أنهم رغبوا في جعلي أقف في صفّ قضيّتهم، وبعد مُضيّ سنوات فهمته: أنا ابن الغرينغو وامرأة أرجنتينية، كنت دليلاً حيّاً على أن الحرب بين الإنجليز والأرجنتين كانت لها تطوّرات أخرى، أقلّ إثارة ويمكن التنبّؤ بها، وأقلّ شيوعاً. ولهذا السبب، ربّما أكثر، إثارة للقلق.

لقد نشأت بلُغتَين، لغة أمي ولغة أبي. لقد فهما بعضهما بعضا دون كلمات تقريباً. في بعض الأحيان كانا يكتفيان ببضع بكلمات ذات مقطع واحد، أو بعبارة قصيرة من لغة الآخر. لكن ذلك كان يحدث فقط بين الحين والآخر وفي الظروف القاسية. كما لو أنهم فعلوا ذلك رغماً عن إرادتهم،

كما لو أن الشخص الذي استسلم لتلك اللكنة الأجنبية كان يعترف بالذنب، أو إذا فعل ذلك، فقد أحيا، داخل جدران المنزل، الحرب التي ذكرتها. لكن إنجليزية والدتي كانت أفضل بكثير من الإسبانية التي تحدّث بها والدي. فقد أتت منه المقاطع الخرقاء، ثم تم تجميعها بشكل سيّئ. ولم يكن واضحاً أن اللغة التي يتحدّث بها من المفروض أن تكون الإسبانية إلا بعد بَدء الإصغاء إليه.

توفّيت لوسيا دي غيفارا عندما كان عمري عشر سنوات.

أعتقد الآن أن مرضها نشأ عن فرارها مع أجنبي، أحد الغزاة الانجليز. ومع ذلك، بالنسبة لها، كانت المحاكمة أنها قد أصبحت عشيقة زنديق. تسمّمت من المنبر الذي اعتلاه قساوسة هستيريّين قاموا باستخراج قصص الاتفاقات بين الزنادقة والشيطان، وهذا كلّه دفع أمي حتى عندما كانت طفلة، إلى الاعتقاد -الذي لم يتم دحضه- أن الإنجليز كانوا لوثريّين[1]، وكما الشيطان، كان لديهم ذيول. لقد خبّأ لها قدرها مفارقة الاضطرار إلى حلّ اللغز بنفسها عن طريق الوقوع في حبّ رجل إنجليزي. بقيت بقايا طعم هذه الأسطورة، وهذه اللعنة تحوم حول مالوري. وكما لو كان ذلك ليؤكّد لأيّ شخص يستمع، اعتاد أن يقول إن الكهنة الإسبان كانوا يخشَون الشيطان أقلّ من خشيتهم من التجارة والهيمنة الإنجليزية، التي بإمكانها جعلهم يخسرون فوائد كنيستهم، وكروشهم الكبيرة، وعاهراتهم. لا أظن أنني قلت أيّ شيء مهمّ، سيد ماكدويل أو مكدونيس؛ لأن والدي، وهو ابن بلدك، في تلك السنوات كان في حالة سُكر دائم.

انتشرت قصة تحرّكه مع الشيطان، بالإضافة إلى كونه زنديقاً؛ لأنه أُشتُهر بعدم إضاعة طريقه في السهل. لا يضيع الغاوتشو في الصحراء ليلاً لأنه ينام ورأسه في الاتجاه الذي

---

(١) اللوثرية: مذهبُ البروتستانتية، ويرجع تأسيسه إلى مارتن لوثر الذي كان راهباً.

يسير فيه. كان والدي ينام على الأرض تماماً كما ينام على سرير مغطّى وفي أيّ وضع. لم يُضع طريقه قطُ. لم يكن هناك موهبة خارقة أو سحر في الأمر. إلى جانب كونه على دراية بالنجوم، كان الشخص الذي امتلك بوصلة، من بين أبناء بلدي، وكانت تُعدُّ قطعة أثرية تم جلبها مباشرة من الجحيم.

البحار يختار بلده، وقد اخترت بلدي. وإذا شعرت كأنني أجنبي في أي وقت من الأوقات، لم يكن الأمر متعلّقاً بي بل متعلّقاً بمالوري. عندما كنت صبياً صغيراً، كنت أسمع عبارة "هذا القرف الصادر عن رجل إنجليزي" أو "الغرينغو السكير" وقد كانت كلمات تستخدم لتسميته. الكلمات التي أعتقدُ أنه بدأ بعدم فهمها، وانتهى به الأمر إلى عدم سماعها.

أتذكّر في إحدى الليالي عندما سمعها وفهمها، وَجد الرجل الذي قالها نفسه مسطّحاً على ظهره على أرضية المتجر بعد أن ضربه أبي من الخلف. عندما نهض كان يحمل سكيناً في يده. كان مصباح الزيت المتدلّي من إحدى العوارض يتأرّجح فوق رؤوسنا، والظلال تزحف على الجدران حيث بدت ذراعه والسكين هائلتين. لا أعلم ما إذا كانت هذه نظرة مالوري؛ لأنه كان قد قبض على عنق زجاجة ولم يتزحزح شبراً واحداً، أو لأن السمعة عنه أنه مجنون، أو كلّ هذه الأمور معاً، ولكن

الرجل الآخر تراجع إلى إحدى الزوايا وانسلّ كالظلّ عبر الباب المفتوح واختفى في الظلام. في الصمت الذي أعقب ذلك، اختلط صوت عدو الحصان الذي غاب في السهول مع أنفاس أبي، التي كانت كالمنفاخ الذي يستعيد هواءه ببطء.

ما ثبّت هذه الحلقة في ذهني لم يكن القتال في حدّ ذاته بقدر ما هو اليقين، أنني لو كنت قد تدخلت، لم يكن مالوري ليتعرّف عليّ، وربّما كان ليحزّ عنقي في ذلك المكان ومن فوره. عيناه في تلك الليلة كشفت لي رجلاً لم أكن أعرفه أو لم أعرفه بعد معرفة كاملة. مثلما اكتشفت بعد سنوات أن الشجارات لا تخيفه ولقد خاض المئات في حانات لندن، ولا بدَّ أنه تعرّض للكثير في تلك الموانئ العديدة، ومع ذلك فلم يحب العنف. عندما يتعلّق الأمر بالشجار، أخبرني ذات مرة، أن كسلاً ساحقاً سيطر عليه، وكان هذا التردّد الذي كان عليه أن يتخلّص منه لكيلا يبدو جباناً. لم يكن سبب الندبتَين على جسده الشجار اليدوي. أصيب بإحداها أثناء عاصفة عندما أنقذ بحاراً معلّقاً على قوس السفينة. والآخر، في الطوابق العليا في إحدى حانات لندن في ظروف لم تكن بطولية.

كان ويليام سكوت مالوري في أعماقه رجلاً محبّاً للسلام، كان كسولاً وأحبّ أن يدلّل الحيوانات، وقد كان ذلك بمثابة فضيحة للناس في هذا البلد، ممّا زاد من شهرته كشخص

غريب الأطوار. في تلك الأيام، أثناء سنواتي الأولى، كنت أخافه، ممّا جعلني أراقبه من مسافة أمان. كان يتجوّل دائماً وأحد كلابه يمشي خلفه؛ كان ثلاثة أو أربعة منهم ينامون دائماً تحت سريره أو فوقه، ويتبعونه في كل مكان مثل الحرّاس الشخصيّين المخلصين. رأيته في مرة يربّت على ظهر عِجل، وأعتقد حتى إنه يتحدث إليه بالإنجليزية؛ قال: إنه كان يفعل ذلك لترويضه، لكن ربما كان ثملاً وقتَها.

لقد عشنا في عزلة، خارج هذه القرية، على قطعة أرض تم شراؤها من الحكومة. وفي هذا المنزل الذي أراد أن يبنيَه بنفسه مثل تلك البيوت الموجودة في أوروبا، قام بطلب الآجر من مكان ما؛ لأنها لم تكن تُصنع هنا، والنوافذ بالألواح الزجاجية، والتي لم تكن معروفة في المنازل في البلاد. كان رجلاً إنكليزياً أراد الاحتفاظ ببعض مزايا الحضارة في هذه الأرض. المنزل متواضع ولكن في تلك الأيام بدا، ولا يزال يبدو اليوم، متفوقاً على المنازل المبنية من الآجر المسقوفة بالقشّ والخالية من النوافذ. كان فيها مدفأة، لم يسمع بها من قبل هنا. أصرّ على البناء، كما لو كان بوساطتها سيتمكّن من استعادة ولو جزءاً صغيراً جداً من بلده البعيد.

"سِكّير ولكنه متحضّر!" هذا ما كان يقوله عندما كانت

والدتي توبّخه على الشرب. وكان يشير إلى الكماليات التي ذكرتُها، التي لا يستطيع أحد هنا فهمها. في وسط كل هذا، كان هناك شيء واحد مؤكّد، وهو أن العثور على والدي صاحياً كان أمراً نادراً. وسواء كان صاحياً أم ثملاً، كان يتحدّث عن إنجلترا والبحر تحت ضوء مصباح الزيت.مكتبة سُر مَن قرأ

كان وجوده في هذا البلد البعيد غير مناسب في البداية، ولكنّ الأمر تحوّل بعد ذلك إلى شيء طبيعي. بعد بضع سنوات من الهزيمة البريطانية أو انتصار الأرجنتين، ابتلع عدم اكتراث المستوطنين كالرمال المتحرّكة الصامتة كل ما حمله وليام سكوت مالوري من كونه غريبًا أو غرينغو أو حتّى غازياً. تم تحويل أجنبيّته إلى ازدراء خبيث كلّما رأى أحد ما والدي يفعل شيئاً يعدّ محرجاً بالنسبة للبيئة المحلية. على أيّ حال، بعد ذاك الشجار لم يتدخّل أحد في أمور الغرينغو مرة أخرى. فقد فاز مالوري باحترام أبناء بلدي.

ما زال الوقت قبل الفجر، سيد مكدويل أو مكدونيس. شربت الزجاجة كاملة وانطفأ غليوني. فتحت النافذة للسماح لعذوبة الليل بتنقية الهواء وكذلك لأصفّي ذهني. ربما تودّ تذكيري بأن سبب ذلك هو جيمي بوتون، وليست حياتي. أنا لا أنساه؛ أؤكد لك أنني لا أستطيع أن أخرجه من ذهني. لكن قصة

حياتي هي التي تأخذني إليه، فمنذ عقود تقاطع طريقي وطريقه مصادفة. وإذا وضعنا جانباً الأحداث، والناس، ومتطلّبات وواجبات الملاحة، فمنذ فترة طويلة رسم قدر بوتون شكل مصيري.

بعد أن شعرت بالمسافة بيننا عندما رأيته أول مرّة، أعقبها فهم تدريجي لعالمه الذي لا ينقصه سوى النضج، عندما كان بوتون بعيداً في أقاصي الأرض. كانت هناك ليالٍ في المناطق الاستوائية، حيث كنت فيها مستلقياً على سطح السفينة التي يهزّها البحر الهادئ. كانت عيوننا على السحب المنسلّة التي تسمح لنا بأن نلمح نجوم كبيرة بحجم قبضة اليد، ليالٍ عندما اعتقدت أننا شابان نشرب بشعور النشوى ذاته لكوننا على انسجام تامّ مع الكون. لم أستطع أن أرى حينها أن بوتون كان بالكاد يمتلك قوت يومه. من الممكن أنني لم أر إلا الجانب الخلّاب فقط، جانب الهمجي الغريب على متن السفينة. من الممكن أيضاً، وهذا أمرٌ شبه مؤكّد، أنني ما زلت أعدُّ نفسي تقريباً إنجليزياً ومتفوقاً عليه، ونتيجةً لذلك اعتقدت أن مشاعري كانت مشاعره، كما لو لم يكن لديه الحق في امتلاك مشاعره. واجه صعوبات مع اللغة الإنجليزية، والمفارقة هي أنها اللغة الوحيدة التي تمكّنا من التواصل بها. أدّت الرحلة الطويلة والحرارة إلى إرهاقه، وكان كل ما تحدّث عنه هو الأشياء الموجودة في بلده الجليدي الذي كان يغادره أبعد

وأبعد، متّجهاً إلى الجنوب. سرعان ما أدرك، في علاقاته مع الرجال من الشرق، أن الطاعة تعني الحصول على الطعام، وهو أمر نادر للغاية ويصعب الحصول عليه في بلاده الذي يبدو أن الرجال البيض يتخلّصون منه بكمّيات مذهلة. الآن مات جيمي بوتون. أرهقه الرجال البيض الذين أخذوا كل رزقه وأظهروا في النهاية أنهم لم يعدوه رجلاً على الإطلاق، بوتون يرقد الآن في كيب هورن. لقد ابتلع الجليد والرياح مغامرته هناك في نهاية العالم. لكني أتذكّر ذلك. لسبب ما لا أستطيع أن أفهم، أنني لا يمكن تفسير قصة حياتي دون قصّته. لا يمكن تلخيص جيمي بوتون في اليوم الذي أخذه فيه الكابتن على متن السفينة رهينة، أو في الأوقات التي أخبرني فيها عن جمال بلده، الذي كان فخوراً به. ولا يمكن اختصار الأمر بمرورنا إلى إنجلترا ولا إلى الاجتماع التنبؤي الذي عقدناه في الضباب. ولا حتى إلى الشخص المسنّ الذي واجهته بعد ثلاثين عاماً في الجزر. كانت قصته ممتلئة بالوقت والخبرة.

على مرّ السنين، جاءت أخبار بوتون من الأماكن التي لم يكن من المتوقّع أن يعثر عليّ فيها. إنه أمر طبيعي. قضيت حياتي بين رجال البحر، في الحانات، في الموانِ، أو في جزر تعبئة المؤن حيث كانت السفن تأتي واحدة بعد الأخرى بعد الإبحار حول كيب هورن. كانت مثل إشارات ضعيفة أنه لا يزال موجوداً وسيظهر مرة أخرى في حياتي. كانت هذه الشائعات المتقلّبة دائماً أفضل عذر لي لطلب زجاجة أخرى،

وربّما لهذا السبب، لعدة أيام الآن، كان هناك دائماً زجاجة بجانبي على هذه الطاولة.

في مرافئ تسمانيا[1] أو إفريقيا، كان صدى صوت بوتون البعيد يصل إلى أذني وهو يبحث عني مرة أخرى. وفي بعض الأحيان كان ما يصلني أكثر من مجرد أصداء. ذات مرة، في جزيرة موريشيوس[2]، وجدت في مستودع بالميناء مجموعة من الصحف القديمة. وقد عُدّ امتلاك صحيفة في متناول اليد علاجاً غير عادي، ونادراً ما كان متوفّراً. كان الأمر يشبه التمسُّك بشيء ما، كأنه يؤكد للذاكرة أنه في بعض الأماكن ما زال الرجال يتّبعون عادة الالتزام بالحدود بما قيل هناك. فوق كل شيء، فقد كانوا يميلون إلى نقل تقارير الأخبار نقلاً فريدًا، بغض النظر عن أنها كانت قديمة. بالنسبة لشخص لم يرَ اليابسة مدّة طويلة، فهذا يعني اللحاق بالركب والشعور بالانتماء مرة أخرى برفقة الرجال. جاءت الأخبار من لندن، في عام ١٨٣٤، ومن المدهش أنها مرتبطة بي. كانت الصحافة الإنجليزية مستاءة ممّا حدث لليامانا. وانتقدت الكابتن لأنه تخلّى عنهم مرة أخرى في كيب هورن بعد أن منحهم التعليم في إنجلترا. في البداية فوجئت، ومن ثم لم يستطع الآخرون أن يفهموا لماذا انفجرت ضاحكاً.

---

(١) تسمانيا: هي جزيرة تُعدُّ جزءًا من أستراليا.

(2) موريشيوس (جمهورية موريشيوس): هي جزرٌ صغيرةٌ في وسط المحيط الهندي.

سأشرح يا سيّد مكدويل أو مكدونيس، ما كان عليّ أن أشرحه لرفاقي في ذلك الوقت. فقد كنت -أيضاً- من بين أولئك الذين أخذوا بوتون والآخرين إلى بلادهم. إضافة إلى ذلك سأخبرك ما الذي يعنيه ذلك حقّاً؛ في هذه اللحظة اكتفيت بالضحك فقط. حقيقة أن المجتمع الإنجليزي كان ساخطاً الآن، بعد الموافقة على نقلهم من لندن -ما الذي سيتم فعله مع الهنود في النهاية؟ استطاع أن يجعلني أضحك فقط. تسلّوا بهم بعض الوقت، وحرفياً خنقوهم بالخردة، وكَافَؤُوا صبرهم بهدايا سخيفة. من كل زاوية وركن من إنجلترا، كان هناك أباريق، وأغطية طاولات، وأدوات مائدة المنازل الفضية تقليداً لتلك الموجودة في لندن، فقد تخيّل البريطانيون أنّ اليامانا سيبنون كياناً في نهاية العالم. هل تعلم كيف يعيش اليامانا؟ هل رأيت كوخاً بين الشاطئ والغابة مثبتاً بالصخور أثناء العاصفة؟ هل تعرف حتى شكل هذا الكوخ؟ حسناً، كان هناك شيء آخر، شيء أكثر إثارة للاهتمام يجب أن أخبرك به.

بعد عام من إعادة بوتون إلى بلاده مرتدياً القبّعة، والمعطف الطويل، والقفّازات، قرّر الكابتن وهو في طريقه إلى كيب هورن أن يبحث عنه مره أخرى، وبالطبع وجدناه. ظهرت تلك القامة أمامنا على سطح السفينة مرة أخرى، دون أن يتبقّى أيّ شيء من الملابس أو التغذية الإنجليزية الجيدة التي حصل عليها طوال اثني عشر شهراً. ولكن يمكن للمرء أن يرى فيها

ثقة غريبة بالنفس، والقيمة الاستثنائية التي كان بوتون دائماً يعطيها للبيض. عارياً وشديد النحول، لدرجة أنه يمكنك عدّ أضلاعه، وجلده مرقّط بطلاء أبيض، ولكن مع بصيص من العزم الإنساني في عينيه، قال بفخر لا. لم يرغب في العودة إلى إنجلترا. لن يعود أبداً. أتذكّر صرخات زوجته في زورقهم؛ كانت بالكاد أكثر من صرخات طفل، فقد كانت خائفة من أن يتركها. أذكر أنه عندما غادر السفينة، حاولت أن أعانقه مودّعاً. فكان كل ما فعله هو مصافحة يدي، ولكني كنت الوحيد الذي صافحه. بقيت مع الآخرين قرب درابزين السفينة حتى اختفى الزورق. حبس الكابتن نفسه في مقصورته حتى اليوم اللاحق عندما أصبح مرة أخرى قبطان السفينة البارد جامد المشاعر، كما لو أن بوتون لم يكن موجوداً قطّ. كنا آخر الرجال البيض الذين رأوه منذ فترة طويلة.

بعد مضيّ خمسة عشر عاماً على تلك الظهيرة، وأثناء وجودي في لندن، علمت أن البيض الآخرين كانوا يبحثون عنه دون أن ينجحوا في العثور عليه. المبشّر آلن غاردنر، "الراعي المتعصّب الذي كان يحرس الأرواح التائهة في أراضي الله المنسية"، والذي كان يعتمد على بوتون للقيام بمهمّته التبشيرية، تعرض لحادث حطّم سفينته وهو المصير الذي واجهه الكثيرون في المياه الجنوبية. ناضل غاردنير برفقة ثلاثة ناجين آخرين بعض الوقت، ولَجَؤُوا إلى الكهوف التي

كانت على الساحل على أمل أن يتم إنقاذهم، لكنهم وقعوا في شرك الشتاء الجنوبي بينما حاصرتهم الحرائق العائمة والظلال الداكنة. ماتوا جوعاً، وتجمّدوا في تلك الكهوف، وذلك بعد أن ترك المبشر وراءه مذكّرات كُتبت حتى يوم وفاته تقريباً.

كانت هذه، إلى حدّ ما، بداية النهاية غاردنر، بوصفه شهيدًا، ألهم تأسيس البعثة. ولكن ما يصعب تصديقه -ومع ذلك هكذا كان الأمر- هو أن هذه البَعثة تأسّست في لندن، على بُعد عشرين ألف ميل من كيب، مع مراعاة أن بوتون سيكون حجر أساسها المستقبلي. ثم أتى المبشّرون الآخرون مرة أخرى باحثين عنه بإصرار ليمارس ما درّبته إنجلترا عليه: ليكون جسراً بين بريطانيا العظمى وشعبه، وناقلاً لحسن نية الرجال البيض القادمين من الشرق.

في أحد الأصباح الكئيب من شهر يونيو عندما دفنّا والدتي، كان مالوري يرتدي زيّه العسكري وكان هادئاً وكئيباً يكاد لا يلمحني. كنا ثلاثة أشخاص: والدي، وأنا، وكاهن كاثوليكي أرسل والدي شخصاً بأقصى سرعة ليحضره ليلة معاناتها الأخيرة، وتمّ سحبه من السرير شبه عارٍ. لا بدَّ أن الرجل ارتدى عباءته الدينية أثناء وجوده على ظهر حصانه، لقد كان الأمر الذي أمر مالوري به العامل بلغة إسبانية متقطعة مُبْرَماً وعاجلاً

وهو: "أحضر الكاهن بأي طريقة ممكنة وإلا، فسأذهب لأحضره بنفسي". بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك العملات الفضية المعروفة التي سأذكرها لاحقاً.

وقفنا بلا حراك بجانب القبر المفتوح على السهل. سقط رذاذ كئيب بالكآبة نفسها التي رأيته يسقط بها على المحيط في وقت لاحق. أنهى القسّ صلواته، وألقى عليّ نظرة تعاطف، وصافح يد مالوري، وركب حصانه، وغادر. ثم انتهى كلّ شيء. عند عودتنا إلى المنزل، وقف والدي صامتاً عند النافذة لفترة طويلة، بقي يشاهد الرذاذ كما لو أن التعب القاسي طغى عليه. ثم نزع سترته، ولبس المعطف، وأضرم النار، وأخيراً، كما لو أنّ كل شيء تم إعداده سلفاً، أمسك بزجاجته وكأسه.

بعد يومين، وبعد أن تنحنح بخشونة عدة مرات، بدا أنه عاد إلى الحياة. أخذ حذاءه من تحت السرير وجلس يحدّق في الأرض، ويتنفّس بصعوبة. رفع رأسه ببطء وراقبني. لقد كانت تلك المرة الأولى منذ عصور التي كان والدي يراني فيها بالفعل. كان اعترافاً طويلاً وصامتاً ومتبادلاً. كافح للوقوف على قدميه وحطّ يديه الهائلتين على كتفي. بدا أمامي كالشيطان نفسه، وكانت رائحته كريهة، لكنني لم أتحرّك. ثم قال:

"هل تريد أن تعرف ما هو البحر؟".

لم أجرؤ على الإجابة، لأنني لم أستطع قطُّ أن أعرف أسبابه أو ما كان يفكّر فيه عندما كان يقول أو يفعل شيئاً ما. سحبني عن السرير ودفعني إلى الباب. مشينا قليلاً ثم توقّف ومدّ ذراعيه ورسم دائرة على خطّ الأفق.

قال: "البحر هكذا، كهذه الأرض الرتيبة التي لا نهاية لها، لكنه مليء بالمياه. والمنزل فيه مثل السفينة".

في تلك الليلة أفرغ دفعة واحدة إبريقاً من الماء على عنقه من الخلف، وهزّ رأسه مثل حصان يتنفّس بصعوبة، وبأصابعه دفع شعره الأشقر الطويل إلى الخلف.

قال: "لقد حان الوقت لتتعلم شيئاً ما".

أضاء مصباح الزيت، وبذراعه نفض فتات عدة أيام، وكذلك بعض الأواني على الطاولة ووضع الضوء في وسط الألواح الثقيلة. لم آكل شيئاً سوى البسكويت الناشف مدة يومين ولكن اتّضح لي أن أفكاره لم تكن مركزة على الطعام. والظلال التي ألقاها المصباح وفقدان والدتي في الآونة الأخيرة جعلني أراه رؤية شبه مرعبة. جعله المعطف الذي كان يرتديه كالغاوتشو، أكثر هيبة. كان حذاؤه لا يزال هو حذاء الجيش الأسود العالي القديم ذاته. لم يسئ معاملتي قطّ، لكنه كان قد تجاهلني لفترة طويلة، لدرجة أنني لم أعد أثق به. لم تفارق ذهني الكلمات "مجنون" و "زنديق" التي كنت أسمعها منذ أن وصلت إلى سنّ الرشد، وتساءلت عمّا إذا كان المعنى وراءهم أكثر شراً من

المعنى الذي أعطيته لهم. ذهب إلى الرفّ حيث كان يضع ما تبقّى من هُويّته أو ماضيه وأخرج شيئاً. عاد إلى الطاولة ووضع كتاباً تحت الضوء أمامي.

قال: "لقد حان الوقت لتتعلّم القراءة".

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها كتاباً. ربّما أثناء كل تلك السنوات، كان مالوري يقرأ بينما كنت نائماً، أو ربّما كنت قد رأيته يفعل ذلك ولكني كنت صغيراً جدّاً فلم يكن بمقدوري فهم ما كان يفعله.

بدأ يقلّب الصفحات الأولى بعناية لم أرها من قبلُ. قال بصوت خشن:

"هذا الكتاب يتحدّث عن البحر".

في ذلك المساء دخلت تياراً، وعرفت أنه لن ينتهي أبداً؛ عرفت أنه سيحملني في تدفّقه إلى حتفي، وستكون تلك هي الصحبة الوحيدة والملاذ الذي سأحظى بفرصة لمعرفته. بعد بضعة أشهر، تمكّنت من القراءة له، بصوت عالٍ ومتقطّع، قرأت أجزاء كاملة من هذا الكتاب الذي يروي قصّة رجل ولد في مدينة يورك، الذي غرق حين كان على متن سفينة في البحار بعيداً عن وطنه بالنسبة لرجل إنجليزي، ولكن كان بالقرب من هذا البلد.

ذات يوم اختفى والدي، وتركني وحدي في المنزل. وعندما عاد، دون أن يقول كلمة، وضع خمسة كتب أو ستّة على الطاولة، بعضها باللغة الإسبانية. اكتشفت أن لهذه المبادرة الغامضة علاقةً بذكراه عن والدتي، كما لو كان تعليمي -أيضاً- القراءة والكتابة باللغة الإسبانية، سيكون بمثابة خيانة له ونمطاً من أنماط الحب لها هي.

جاء وليام سكوت مالوري من رأس الرجاء الصالح وقبل ذلك من الرأس الأخضر، وقبل ذلك، من ميناء اسمه ليفربول حيث تمّ شحنه من هناك، وحتّى قبل ذلك، من ضاحية لندن حيث ولد. من كان ليتخيّل أنّ، ابن أمريكا الجنوبية، ولد في السهول النائية في الجزء الجنوبي من العالم، سيعود بعد سنوات إلى لندن في مثل هذه الظروف الغريبة؟

مع ذلك، في يونيو ١٨٠٦، كان والدي على متن سفينة إنكاونتر في كويلمس[1] -التي كانت تحت قيادة بارسفورد- ونزل بالقرب من مرسى ميناء باراغان، ثم ذهب إلى بوينس آيرس تحت ما وصفه بأنه مطر قاس وغزير، وحارب في شوارع المدينة الموحلة. في نسخة مالّوري. كان تفسير هزيمة الإنجليز مختلطاً ما بين لوم لرؤسائه، واتهامات بالمكائد

(١) كويلمس: مدينة في الأرجنتين.

السياسية الخاطئة مع المقاومة المفاجئة من الساحة التي، من وراء مظاهر الهدوء الخادع، دافعت بشراسة عن نفسها بمفردها. لقد تم وعدهم بالمجد والغنائم السهلة. لم يؤتَ أيّ من هذين الاثنين ثماراً، لكن والدي حصل على عدد جيد من العملات الفضية، التي تم توزيعها بحكمة في البداية بين عدد قليل فقط، ممّا أتاح له لاحقاً الاستقرار في لوبوس[1].

كان والدي غازياً لكنه لم يتخلَّ عن واجباته للبلاد التي انتهى بها المطاف إلى تبنّيه. في عام ١٨٢٣، بعد غارة دامية شنّها هنود البامبا، جاءت الميليشيا إلى لوبوس لتجنيد الناس لبَعثة كبيرة لمعاقبة الهنود، وطردهم من الحدود إلى أقصى جنوب من تانديل[2]. ماتت أمي قبل عام. ظلّ مالوري مقلعاً عن الشرب منذ ذلك الحين، وربّما كان الانضمام بالنسبة له ينمّ عن اليأس أو التهرّب بعض الوقت من الواجبات الأبوية التي كان يتحمّلها، ولكنها شكّلت الآن عبئاً أو حملاً. على أيّ حال، فقد قدّم نفسه جاراً ومُتطوّعاً. ولكن كان هناك عقبة واحدة. كان مالوري ينطلق لمحاربة الهنود في زيّه الإنجليزي.

قال له الكابتن كونيل المسؤول عن المجنّدين: "لا يمكنك الذهاب هكذا".

---

(1) لوبوس: مدينة في بوينس آيرس.

(2) تانديل: منطقة سكنية في الأرجنتين.

والدي لم يفهم.

فكرّر كونيل: "لا يمكنك أن تذهب هكذا مرتديا زيَّ الإنجليز". ممّا لا شكّ فيه أن الأمر لم يكن مريحاً بالنسبة لكونيل لأنّ كل ما كان يحتاجه هو الرجال، حتى لو كانوا عراة، لكنّ بقعة عسكرية عمياء جعلته يرفض زيّ الغزاة السابقين.

نظر والدي إلى نفسه من رأسه إلى أخمص قدمَيه.

قال أبي: "إمّا أن أذهب هكذا، وإلا، فلن أذهب".

حدّقت به وجوه أفراد الدورية وهم على ظهور خيولهم. لا أحد يعرف ما هو القرار الذي يجب اتخاذه. فقام جار آخر بحلّ النزاع قائلاً:

"الغرينغو مقاتل جيّد، دعه يرتدي المعطف فوق ملابسه".

وهكذا انطلق مالوري ليحارب الهنود.

ما كان سلسلة من الأحداث الطبيعية، لا يزال يبدو غريباً... أو ربما يبدو غريباً بالنسبة لي فقط. لا يسعني إلا أن أفكّر في أن والدي جاء إلى بوينس آيرس، ونتيجة لذلك، كان أصل هذه الأحداث متصلاً بولادتي في الرسالة التي أرسلها ريجز بوبان الطموح من المدينة الواقعة على الرأس إلى اللورد كاستليريه، الذي كان متنفذاً وكان وزير الخارجية المستقبلي في لندن،

"أعتبر أن امتلاك مستعمرة على سواحل أمريكا الجنوبية له العديد من المزايا التي لا تحصى..."، أو أن اقتراح غزو بوينس آيرس يجب قبوله -بنتائجه المميتة لإنجلترا على المستوى العسكري. وبعد سنوات عديدة، سينتحر اللورد كاستليريه بسبب ضغوط سياسية تضاف إلى اختلال عقلي ما، فقطع حنجرته بشفرة الحلاقة الخاصة به، وقد كان هذا الرجل عمّاً مباشراً للكابتن الذي جاء بعد سنوات جنوباً في مهمّة علمية واستراتيجية، وأخيراً، أنا جون ويليام جيفارا -نسل لقاء ذلك الجندي الذي جاء غازياً في حملة فاشلة بامرأة من هذا البلد. وصادف أن التقيت بالقبطان، وأبحرت معه، واكتشفت الآن وفاته التي حدثت بيده، بشفرة الحلاقة الخاصة به، تماماً مثل عمّه، اللورد كاسليريه.

إذا كنت أؤمن بالقدر وبالآلهة، قد أعتقد أنّ هذا النسيج من الأسباب والنتائج يشكّل تسلسلاً يناسبني تماماً وطلبك هذا سيد مكدويل أو مكدونيس، منطقياً: لتسويغ قصّة يتمّ فيها تحوير الإخفاق لإدانة بوتون، وفي الوقت نفسه لردّ اعتبار القبطان، ومن ثم إغلاق ما يشبه الدائرة. هل جنّ جنوني؟ لا شكّ أنني جننت. لكن إنجلترا بالكاد كانت تبالي أبداً بالعالم الموجود خلف الحقائق. وما انتهيت إليه هو أن هذا بالضبط ما حاز على اهتمامي: الأشياء القابعة وراء الحقائق.

لقد مرّ أسبوع منذ دخولي الأخير. استيقظت قبل الفجر مستاء من كابوس. شعرت بالارتياب من إيقاظ غراسيانا، فتركتها تنام. أضأت الموقد وسخّنت الماء لشرب المتّة، منتظراً الضوء الشاحب في الأفق ليطلع ضوء النهار. قد يبدو غير لائق بالنسبة لرجل في عمري أن يقصَّ حُلمه، لكنني لم أحلم بنفسي بوصفي رجلًا ولكن حلمت بنفسي عندما كنت طفلاً؛ من هناك، عاد إلى ذاكرتي شعور الرعب الذي راودني لدى رؤية همجيّ أول مرة.

بعد ظهر أحد الأيام، لا بدّ أنني كنت في الثامنة من عمري حينها، وكنت قد ركضت إلى البحيرة، استلقيت على بطني على الأرض بجانب بعض الأعشاب. كنت أبحث عن ثعلب الماء عندما جعلني صوت الخيول المميّز على الطين الطري أقف على قدمي. كانوا ثلاثة، اثنين منهم يحملان رماح خيزران طويلة جاهزة للاستعمال، والآخر يربط خُصل الشعر الكثيفة الخشنة بعصابة رأس. أتذكّر أن تلك الوجوه المسطّحة الداكنة نظرت إليّ. جمّدني الخوف، رأيت ذراعاً مرفوعةً تشير إليّ، وسمعت ثرثرة عالية النبرة لم أستطع فهمها. مرت لحظة لا تنتهي، استداروا في النهاية وكانت خيولهم محمّلة بحزم من الجلود وذهبوا بعيداً. كانوا هم الذين أسماهم البيض الهنود اللطيفين، وقد جاؤوا للتجارة في المتجر العام، لكن لم يكن أحد قد أخبرني بذلك بعد. سمعتُ لاحقاً: أنّ ما جذب انتباههم هو شعري الأصفر.

كانت تلك هي الذاكرة التي تم إحياؤها في حُلمي، إلى جانب الأجساد العارية لليامانا والرياح الباردة الآتية من كيب هورن. كانت ناراً أشعلوها ليلة بعد ليلة -مع رغبة متعصّبة في اختراق الخوف والظلام، التي بدت لنا نحن الرجال الذين كنّا على سطح السفينة أطول وأطول وأكثر إثارة للإعجاب- كان يذهب إليها أحدهم منحنياً ويؤجّجها أكثر وأكثر، ثم يذهب آخر وآخر. تجمّعت النساء والأطفال والكلاب متقاربة بعضها من بعض، جالسين حول اللهب الذي ارتفع، كما لو كان الأمر سحراً خرج من بين أصابعهم على الرغم من المطر وفروع الأشجار المبتلّة. غارقين في عملهم، دون إصدار أي صوت، كما لو كانت حياتهم وأرواحهم تعتمد على بقاء النار مشتعلة. كان احمرار عيونهم من أثر الدخان دليلاً على هذا العشق. شيء لا أستطيع وصفه، ولم أجد له اسماً، تحرّك بداخلي. كان حزناً ثقيلاً كصخرة، بدا كأنه يأتي من بداية الزمان ويجعلني أبحث بأمّ عيني عن الكابتن أو عن أحد رفاقي، الذين اكتشفت في نظرتهم إحساس القلق ذاته الذي لم يكن من الممكن تحديده. وبعد ذلك، كانت تلك الكائنات تركب في زوارقها حيث تم إبقاءُ النار مشتعلةً في جمرات صغيرة، وكانوا يجدّفون بقوة، يبحرون حول سفينتنا، ويرسمون الدوائر، بحيث يبدو ضوء النار الأبدية في الظلام كأنه ينبعث من الماء ويؤدّون رقصة تهديدية، مراراً وتكراراً، حتّى الفجر.

على سطح السفينة، كنت صبياً أرتجف من البرد، وسرعان ما أشحت بوجهي عن الميناء إلى اليمين، عاجزاً عن تحويل ناظرَي عن الأجسام المضيئة. وعبارة آكلي لحوم البشر، التي نطق بها الرجال الذين غادروا السفينة للبحث عن قارب صيد الحيتان المسروق، جعلتني أرتجف أكثر.

هل قابلت يوماً ما تسمّيه الكتب وحشاً؟ كان رجلاً عارياً بأضلاع مكشوفة ومغطّى بالشحوم، وأعضاؤه التناسلية متورّمة بسبب المرض، ووجهه مدهون بخطوط بيضاء، وشعره متشابك وخشن؟ كان من الصعب اكتشاف الرجل في ذلك الكائن الذي كانت شخصيته عبارة عن مخلوق مليء بالثقة، والذي يمكن أن يغلب عليه أثناء الدقيقة التالية غضب أعمى وغير منطقي. هل سبق لك، سيد مكدويل أو مكدونيس، أن رأيت ذاك الكائن الغريب يقفز عبر العصور ويظهر أمامك في تلك الحالة العاجزة لأصل جنسنا البشري، رجل مثلي ومثلك يتكاثر ويأكل ويموت مثلك، يخترع الآلهة، يصطاد، يذهب إلى الحرب، يقتني الكلاب حيواناتٍ أليفةً، ويشعل النار؟ ما إن تراه، فلن تتمكّن من نسيانه.

هكذا قابلت بوتون، ولكن من خلاله وخلف ذاك المظهر اكتشفت الرجل الذي اعتقدت أنه غير موجود. وخلف هذا

الرجل، شعب ذو معتقدات وروح، مع احترام للحياة بكل أشكالها، التي لم أكن أعرفها من قبل ولن أعرفها مرة أخرى.

سيحلّ الفجر بعد وقت قصير. شعرت ببرد الليل الذي يأتي قبل الفجر. أياكس نائم تحت طاولتي. عندما تشرق الشمس، سأرتدي المعطف الذي كان لوالدي وأخرج إلى الريف. على صهوة الجواد، يغيب عن الذهن الزخرفة والهذيان الذي ينتج عن الكلمة المكتوبة، ويتمُّ استعادة الرابط البدائي مع العالم، وهو أمر من الأفضل عدم نسيانه.

أتذكّر شيئاً في مالوري يُماثل الضحك. سيظهر في جلسات القراءة أو الكتابة التي يقدّمها كلّما كان جاهزاً، أي عند الفجر أو عند الظهر، ولكن دائماً بالحماسة نفسها أو حتى التحدي نفسه. كان ما تعلّمته اثناء تلك الساعات يتضمّن أيَّ شيء من سارية السفينة وأشرعتها، إلى قصائد بن جونسون. وبدا أنه بدوره يعدُّها تراثاً تركه له شخصٌ لم يتحدّث عنه قطُّ. كان سيقول إنّه كان يمرّر لي شيئاً أكبر قيمة من المال، وأنه يريد تركه لي حتى أستمتع بفوائده بين الأشخاص غير المتمدنين كما فعل هو. بالتأكيد يمكنك أن تفهم، سيد مكدويل أو مكدونيس، معنى هذا حين ينطق به رجل إنجليزي.

قبل كل شيء تحدّثَ بسرور خاصّ عن حانات لندن. أتخيّل أن السبب لم يكن فقط لأنه كان يشرب الكثير هناك، وقد تأكّدت من ذلك بعد سنوات، ولكن -أيضاً- بسبب الأحاديث التي كانت تدور حول الصفقات التجارية والرحلات على تلك الطاولات الدبقة. دون التغاضي عن غرف الطابق العلوية في الحانات. حدث ذلك في أحد تلك الأماكن القذرة حيث تلقّى فيها الطلقة على إحدى كتفيه، التي رغب أن يدّعي أنها إصابة حرب أمام الأشخاص السذج. من المناسب أن أشير أنه لا يبدو أنّ والدي كان أنيقاً في اختياره للنساء.

"إذا كنت تريد امرأة، فاسعَ للحصول عليها. إذا كان عليك مشاركتها، فشاركها".

أمام ذهولي، وفي أوقات كهذه كان يفتح فمه ويطلق ضحكة قوية، خشنة، ومطوّلة. وفي الحال، ستشعر الكلاب تحت الطاولة بالخوف المفاجئ وتبدأ في النحيب والنباح في الهواء، وستختلط أصواتها بضحكته مشكلة نوبة جامحة من القلق. كان أحدها أسودَ، وهو مفضّلٌ لديه، يرفع خطمَه، ويلفّ عينيه، ويطلق نواحاً حزيناً في الهواء.

في الواقع، قالها باللغة الإنجليزية "أنثى". كان عمري اثني عشر عاماً ولم أكن أعرف الكثير عن الإناث إلا فيما يتعلّق بالارتباطات الحيوانية في البلد. ومع ذلك، فشل مالوري في ملاحظة تفاصيل معيّنة. إن المتابعة بنظريته حول النساء هو ما

مكّنه من الاستمتاع بالهيبة المريبة لتلك الندبة. في الواقع، أثناء تلك السنوات في لندن، شارك عشيقة أحد صانعي البراميل الذي لم يكن على دراية بعادات منافسه المنفتحة، وذلك بشكل خاصّ، لأنه لم يكن يعرف أنّ لديه منافساً. كان صانع البراميل رجلاً متزوّجاً وربّما لم يكن ليهتمّ بخيانة زوجته له، لكن حين تعلّق الأمر بعشيقته، التي دفع ثمن مأوى لها في النُّزُل، فهي مسألة أخرى حين تخدعه هي. اعتاد مالوري أن يكمن تحت سلم الطابق الثاني، في انتظار أن يُخلي صانع البراميل السرير. لمَّا كان الرجل حذراً في اختيار الساعة التي يغادر فيها، فقد مكن والدي من الاستمتاع بسيّدة وسرير دافئ سلفاً حتى وقت متأخّر من صباح اليوم اللاحق. في إحدى الليالي وبينما كان مستلقياً في انتظار مغادرة صانع البراميل، كان لديه الرغبة في التبوّل، وزاد ذلك من جلوسه بوضعية القرفصاء والجين الذي شربه. غادر مخبّأه خلسة، وذهب إلى الدرابزين، وهناك فعل ما كان عليه فعله. كان صاحب النزل هو الذي هطل عليه المطر الغزير. أسرع إلى الطابق العلوي وانقض على والدي بقصد ضربه. لكن والدي لم يكن رجلاً صغيراً. لدى سماعه الضجيج، خرج صانع البراميل، ودون أن يفكّر للحظة، وصفه المالك بالديوث. أخرج الرجل مسدساً وأطلق النار على الهيئة التي رآها... وأصاب كتف والدي. وسط صرخات الذين استيقظوا وأولئك الذين لم يغادروا المكان بعدُ، حُمل جسد ويليام سكوت مالوري عضو البحرية الملكية البريطانية إلى الصيدلي الذي بدا، بحكم الطريقة التي خاط بها الجرح، أنهم أيقظوه من النوم للتوّ.

المرة الوحيدة التي سمعت فيها مالوري يضحك كانت أثناء تلك الدروس المجنونة. كنت مفتوناً بسلوك الكلاب، غالباً ما كنت أخطّط لطرح موضوع النساء من أجل إطلاق الحفل غير النظامي سرّاً. لكني لم أفعل ذلك قطّ.

في بعض الأيام كان في مزاج شَكِس. عند حدوث أدنى إلهاء من جهتي، كان ينظر إليّ بعيونه الباردة كالثلج بين أجفان حمراء كالدم. لقد أخطأت التمييز بين المركب الشراعي والزورق البخاري. فضرب على الطاولة براحة يده المفتوحة.

"لا، اللعنة!" صاح بالإسبانية.

لم يكلّف الكلاب أنفسهم عناء الانتباه لهذا ولو قليلاً.

نجا وليام سكوت مالوري من أهوال البحر مدة عشرين عاماً. فهو لم يستطع تحمّل البامبا التي لا نهاية لها مدّة طويلة. أصبح منيعاً واقتصر على علاقته مع كلابه الوفية. عندما بلغت سنتي السابعة عشرة، شنق نفسه.

قام النقيب بنحر نفسه أمام المرآة؛ أبي كان متدلّياً من عارضة خشبية في منزل في مزرعة في أقصى نواحي العالم. كان يرتدي الزيّ الرسمي الذي جاء فيه إلى الوالي في ريفر بليت[1] قبل عشرين عاماً تقريباً. لم يثق مالوري بأحد: كان هناك قطعة من

(١) ريفر بليت: اسم نهر يقع بالقرب من بيونس آيرس.

الورق عالقة بين أزرار سترته، وعليها كتابة بخطّ يده تقول: وليام سكوت مالوري، رحمه الله. أتخيّل أنه في اللحظات الأخيرة، قبل أن يمرّر الحبل حول العارضة، قبل ربط العقدة، ربّما أثناء كتابة اسمه على الورقة، شعر كما لم يسبق له أن يشعر أنه كان في مكان غريب بعيد، حيث بدا أنه جاء فقط من أجل ولده، ولكنه شعر في اللحظة الأخيرة أنه كان دخيلاً وغريباً عنه. لم يثق بأيّ أحد. ربما كانت أفكاره الأخيرة عن أمي أو عن ضواحي لندن حيث ولد أو عن البحر الذي كان فيه، في دمه. كل ما يمكنني قوله هو أنني شبّكت يديه على صدره وأغلقت عينيه. ثم طويت قطعة الورق ووضعتها في أحد جيوبه.

ما أعرفه على وجه اليقين هو أن مالوري عالج نفسه من شربه الدائم ليعلّمني، وأنه بمجرد تحقيق ذلك لم يكن هناك شيء آخر يمكنه القيام به. ترك على طاولته الكتب والشمعة والقلم والحبر بمثابة إرثه الوحيد أو العلامة البارزة لما يحدث الآن. كانت هذه هي العلامة الوحيدة التي تركها لي، في حال أردت تفسيرها. هذا، والوثائق التي صدق عليها، أن هذا المنزل وهذه الأرض أصبحت ملكي الآن.

بعد وفاته أصبحت وحيداً تماماً، فاضطررت إلى الخروج بحثاً عن مصدر رزقي.

الجزء الثالث

(مونتيفديو[1] ١٨٢٩)

لم يكن هناك شيء يبقيني في البلد باستثناء قبرَين جرفتهما الريح. أجبرتني العاصفة أنا ومالوري على مغادرة السهل. هبّت رياح شديدة من البامبا طوال اليوم وطوال الليل. ثم أصبحت السماء صافية مرة أخرى وعادت الحرارة إلى ما كانت عليه. بعد اتباع وصاية غامضة، لا يسعني إلا أن أنسبها إلى تأثير والدتي من طفولتي، قرّرت أن أضع ثقتي في الكنيسة، وفي حالة عودتي عن ذلك يوماً ما، تركت عقد ممتلكات والدي في منزل المزرعة المتواضع الذي كان بمثابة كنيسة صغيرة في لوبوس. خلاسية مسنّة، كانت دائماً برفقة والدتي، بقيت في المنزل مع الكلاب.

أتذكّر اليوم الذي سبق مغادرتي. نظرت بحزن إلى كلّ شيء، كل شجرة، كل طائر. حزن مرير، حيث انضمّت قوى اليأس واليتم لتحطّم قلبي. في تلك الليلة، ألقيت حقائبي المحتوية على قليل من الممتلكات التي أخذتها معي، فوق ظهر حصاني وغادرت.

---

(١) مونتيفيديو: عاصمة الأورغواي وأكبر مدنها.

في صباح شديد الصفاء رأيت ما اعتقدت أنه البحر. بعد ذلك بقليل، علمت أن هذا الامتداد المائي الهائل هو نهر بليت. جلست على المنحدر أمام تلك المياه الهادئة، واستمعت إلى صرخة طيور النورس، وأنا أرجو أن يعاودني الشعور بأن سفينة الإنكاونتر قد مرّت بهذا الطريق في يوم من الأيام. لدى تتبّع ضفّة النهر، دخلت بوينس آيرس من الجانب الجنوبي وسألت عن فندق دي فونش[1]، الذي ذكره مالوري عدة مرات. لم أكن أرغب في البحث عن منزل عائلة جيفارا. كانت ذكرى والدتي مثالية، وكنت أرفض تماماً أيّ معلومات عنها قبل ولادتي.

كان هذا نصف الحقيقة فقط سيّد مكدويل أو مكدونيس؛ الصبي الذي كنته في ذلك الوقت لم يجرؤ على التصريح بالحقيقة الكاملة. كانت عائلة أجدادي غيفارا نبلاء في بوينس آيرس، وقد علمت غريزياً أنهم ما كانوا ليرحّبوا بزيارة الابن غير الشرعي.

كانت صرخات الباعة الجائلين، والمنازل ذات الدرابزين الكبيرة المنحنية على نوافذها، وبعض النساء اللاتي رأيتهن خلف تلك الدرابزين أو اللواتي مررن في الشارع، يشكّلن ذاكرتي الأولى عن المدينة. قالت لي زنجية سمينة:

(1) (Faunch) فندق إنجليزي مرموق في بيونس آيرس أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر.

"اشترِ كعكة يا سيّدي المحترم".

اشتريتها منها. أعجبني الجزء الذي خاطبتني به بسيدي المحترم. في ذلك المساء في غرفة الطعام في فندق دي فونش، تحدّث الناس بإيماءات طبيعية وأنيقة لم أرها من قبل. بدا لي أنّ الأمر كلّه يتعلّق بأمور مهمّة، وألغاز دائرة لم أتمكّن من اكتشاف سرها. كانت النساء مربكات، أكثر من أيّ شيء. لم أستطع أن أرفع عيني عن أعناقهم وأكتافهم الرقيقة، وصدورهم المكشوفة علانية. كان حديثهم بهذه السهولة مع الرجال هو ما أدهشني وأربكني. اليوم لا يسعني إلا الضحك على ذلك الصبي الذي نظر إليه جميع من في المكان بنظرات جانبية وسخروا منه قليلاً وأشفقوا عليه قليلاً. أتى عليّ وقت لاحظت هذا. اندفع الدم إلى وجهي: كنت جاهلاً، ريفياً أخرقَ، وعلى الرغم من لون شعري، لم أكن أكثر من غاوتشو. كنت أغلي بغضب، بسبب الحاجة إلى إظهار أنني كنت رجلاً ولست صبياً، وأنني كنت أعرف كيف أروض الخيول وأجعلها فوق البامبا كالسهم، وأنني قد قرأت كتباً لم يعرفوها حتى، وأتحدّث الإنجليزية. تركت الطاولة وذهبت إلى الفراش دون طعام.

في اليوم اللاحق، كنت مضطرباً نوعاً ما، مشيت مشتّتاً بلا هدف حول البلدة حتى وصلت إلى ساحة القلعة. لم يكن هناك سفن مهمّة في مرمى الرؤية على النهر. على الأقلّ لم أرَ التي

تخيّلتها ملكي. في ذلك الصباح بالذات، قمت ببيع حصاني لمالك الفندق وسألته كيف وأين يمكنني الحصول على سفينة. أعطاني أسماء سفينتَين راسيتَين في ميناء مونتيفيديو. وقد سبّبت عاصفة قوية هبّت قبل عدة أسابيع في إلحاق أضرار جسيمة بهما، وكانوا في انتظار الإصلاح. كل ما كان عليّ القيام به هو عبور النهر ومعرفة ما كان ينتظرني هناك.

كان عبور النهر العظيم تجربتي الأولى في الإبحار، وسوف أكذب إذا قلت إنني أحببت ذلك.

الوصول إلى المركب الشراعي في عربة مهترئة كانت ألواحها المتعفّنة تتداعى، والمساعدة الوهمية من قبل عمّال الإرساء التي جعلتنا صرخاتهم المتكرّرة "هناك واحد آخر!"، نتبع حدسنا لنتمكّن من التجاوز إلى الضفّة الأخرى على متن زورق نهري صغير، لقد كان ذلك أول مذاق أعرف فيه البحر. كان الصعود على متن المركب بتلك الطريقة الدنيئة مختلفاً كثيراً عن مشاهد الأشرعة المشدودة، والرياح العادلة، والأوامر الدقيقة التي أضفتها على عبوري الأول. لقد دفعت أرخص أجرة، واقتصر حقّي على البقاء على سطح السفينة فقط، محشورًا مع العديد من البائسين الآخرين الذين يسافرون في ظلّ الظروف نفسها. نهر بليت ليس مثل نهر التايمز سيد

مكدويل أو مكدونيس: لقد كانت تسع ساعات لا نهاية لها على نهر متلاطم الأمواج. ووفقاً للكابتن، الذي بدا وجهه طبيعياً أمام نظراتي المذهولة، كان عبوراً ممتازاً.

لقد أحببت مونتيفيديو أكثر من بوينس آيرس. فهي محمية أكثر وميناؤها الطبيعي كان، بلا شكّ، أكثر أهمية، ونمت حركة كثير من السفن التي ترفع أعلاماً مختلفة عن نشاط كبير. في هواء هذه المدينة عرفت التواضع، وفي الوقت نفسه نشاط وحيوية جذبتني في أول لقاء لي في العالم. من بين جميع السفن الراسية في الميناء، بدت إحداها مهيبة بالنسبة لي. حدّقت بها مدّة طويلة، في محاولة لمطابقة ما رأيته مع أسماء حبال الأشرعة التي علّمني إياها مالوري. عندما حمل الليل حرارة النهار الخانقة إلى النهر، انتابني شعور أنني بخير، وتوسّع هذا الشعور شيئاً فشيئاً إلى سعادة لم أكن أعرفها حتى ذلك الحين. بدأت أشعر بالحرية، وأنني سيد أفعالي ومصيري. لم أعد مضطراً لمحاسبة أيّ شخص وكنت مستعدّاً لكل ما يأتي. عندما أضاءت السفن مصابيحها، استعدت شهيّتي. ذهبت إلى النزل وأكلت سمكاً مقلياً، الذي تبيّن أنه من ألذّ الأطباق التي تذوّقتها في حياتي، وشربت مع وجبتي إبريقاً من النبيذ. عندما كنت أرى والدي مع أقداحه، كنت قد تعهّدت في كثير من الأحيان أنني لن أتناول الكحول أبداً، لكن هذا الوعد اختفى بسرعة مصحوباً بالندم. استطعت بصعوبة النهوض من على

الطاولة. كانت ذراعي حول جَعبتي كقطعة حطب بين الحزم والحبال في غرفة التخزين الموجودة في الخلف.

عندما استيقظت، كان الليل شديد السواد. لم يكن من الممكن تمييز السفن في النهر، ولم أتمكّن من رؤية الأضواء على الصواري التي تتأرجح في الظلام والقمر الغائب، ولكن كان ذلك كافياً لجعلي أشعر بالقلق الذي ربطني بتلك السفن بطريقة حتى أنا لم أستطع أن أفهمها تماماً. عدت إلى النزل. كانت هناك مجموعة من الرجال على طاولة بعيدة عن الآخرين. أضاءت الشموع الكبيرة، والمصباح لوّن وجوههم وملابسهم. كنت أعلم أن هذا ما كنت أبحث عنه. لم يكن هناك أيّ شكّ بذلك، أنهم رجال البحر. لقد تعرّفت عليهم عن طريق بَشَرَتهم التي قسّاها الطقس وبعض الآثار التي لا يمكن تحديدها، التي جعلت مالوري أول ما يخطر في بالي. لم يكونوا مجرد بحارة، ولا يمكن أن تكون سفينتهم مجرد سفينة. أحدهم جذب انتباهي بشكل خاص: كان يأكل، معتدل في جلسته على كرسيه، كان ظهره مستقيماً كلوح، يشي به إحساس بالفخر والاطمئنان جعله يتفوّق على الآخرين، بما في ذلك أنا. دون وعي منّي اقتربت منه تدريجياً، مثل اقتراب حشرة من الضوء، ولم يكن ذلك فقط بسبب ما رأيته، ولكن بسبب ما استطعت سماعه. فقد تمكّنت من تمييز الكلمات التي كانت تقال وسط صوت الدمدمة ووسط الضحك ووراء

الكلمات، ممّا شكّل عبارات شقّت طريقها إلى أذني. كانوا يتحدّثون باللغة الإنجليزية.

اقتربت حتى لم يفصل بيني وبين الطاولة إلا خطوتين وتسمّرت هناك، على ما يبدو، بغباء، عندما أدار الرجل ذو الظهر المستقيم مثل لوح رأسه لينظر إليّ. كان الآخرون يراقبونني أيضاً. قال الرجل حرفياً بصوت منخفض: "لدينا ضيف". قال أحدهم بإسبانية ركيكة بدا أنها تسلّي البقية:

"ما الأمر يا فتى؟ هل أضعت شيئاً هنا؟".

اقتربت أكثر.

تمكّنت من القول: "أنا أبحث عن عمل على متن السفينة". قلت بالإنجليزية "أريد أن أبحِر"، وقلبي يخفق بأقصى سرعة.

باغتتهم المفاجأة الآن.

قال الشخص الذي يشبه ظهره اللوح المستقيم: "الصبي يتحدّث الإنجليزية تحدُّثاً جيداً"، ثم سألني إذا كنت قد نزلت من سفينة أمريكية.

"لا"، وجدت نفسي أقول، "أنا أرجنتيني، لقد جئت من بوينس آيرس".

قال الرجل: "حسناً، سأكون...".

جزمت أنّ هذا الرجل مهم ولا يَقِلّ عن كونه قبطاناً لإحدى السفن، وكان ينبغي لي أن أخمّن ذلك منذ البداية. كان الباقي أشبه بالحُلم. أجلسوني معهم على طاولتهم، واكتشفوا أن والدي كان إنجليزياً وأمي من شعوب الكريول[1]، وأنني يتيم. ثم دعوني لتناول الطعام، فشكرتهم على ذلك، لكني قبلت كأساً من النبيذ فقط. قال أحدهم: هو ملائم تماماً للسفينة، وللمهمّة أيضاً، فبهذا يمكننا الاعتماد عليه بمثابة صبي المقصورة الذي يتحدّث الإسبانية والإنجليزية. ختم الرجل صاحب المشية المختالة أنني سأبحر معهم في تلك الليلة نفسها. كانت السفينة جاهزة؛ وكانوا قد أنهَوا التصليحات وكانوا يرفعون مرساة عند الفجر.

"ستقوم بالفرك والتنظيف وسدّ الثقوب بالقارب، حتى تسقط ذراعيك يا فتى. ستعلم بسرعة كبيرة كم هي عظيمة سفينة جلالتها[2]".

لقد فعلت شيئاً غبياً تقريباً. وقفت بسرعة وصافحته بقوة، واعداً بأن أفعل كل ذلك وأكثر من ذلك بكثير دون أن يرمش

---

(1) يطلق مصطلح الكريول على الخلاسيين من أصول أوروبية وإفريقية، ثمن سكنوا جزر الهند الغربية التي تقع على شواطئ الكاريبي في أمريكا اللاتينية.

(2) سفينة جلالتها: هو اسمٌ ابتدائيٌّ لسفن عدة بلدان أهمها المملكة المتحدة.

لي جَفن؛ لقد واجهت صعوبة في البقاء جالساً على كرسيِّ. ثم رفعوا نخباً ولامست كؤوسنا بعضها بعضاً.

"هل أبحرت قبلاً على متن سفينة حقيقية يا بني؟" سأل القبطان أخيراً مقاطعاً المشاعر التي انتابتني ومحدّقاً في وجهي بعينَين اخترقتا وجهي مثل المسامير.

تحدّثت متلعثماً عن الأشياء التي أخبرني بها مالوري، عن رحلاته البحرية، وبدوت مرتبكاً ارتباكاً أخرق ومثيراً للشفقة.

"سيدي، هذا الشابّ لا يستطيع أن يميّز الفرق بين عش الغراب[1] ورجام المرساة[2]" قال أحدهم.

ابتسم القبطان لكنّه ظلّ يحدّق بي. سألني عن اسمي.

"لماذا غيفارا؟" أراد أن يعرف. "لماذا غيفارا وليس مالوري يا فتى؟".

نظر الآخرون إليّ باستمتاع وفضول. حركتُ كتفي لإخفاء إحراجي وقلت فجأة: "اسمي ليس مالوري، بل غيفارا".

في وقت لاحق، وسط ظلمة النهر، وصوت المجاديف

---

(1) عش الغراب: هو هيكلٌ في الجزء العلويِّ من السفينة وخاصة القديمة ويستخدم للمراقبة.

(2) رجام المرساة: هو رافدةٌ خشبية أو حديدية ناتئة عند مقدّمة السفينة ترفع إليها المرساة وتعلّق.

التي تشقّ عباب المياه، وهتاف الرجال الذين يناغمون عليه ضرباتهم، جرّبت أول مرة شعور الأخوة، الذي يصعب تفسيره، الذي بالنسبة للبحّار هو أغلى شيء، وأقرب شيء لما يسمّى وطناً على اليابسة. شعرت أنني جزء من طاقم السفينة. ونشوة هذا الشعور جعلتني أتخلّص من خجلي، وسألت:

"كابتن، ما مسار السفينة؟".

"كابتن؟" جعلني الضحك الصادر من كل مكان فاغر الفم. "أنا لست الكابتن، يا جاك. أنا ربّانك". ثم قال:

"نحن في طريقنا إلى تييرا ديل فويغو، يا فتى، إلى باتاغونيا[1]، إلى الجنوب، إلى الجحيم نفسه، إلى مؤخرة العالم، وهناك سفينتك، البيغل[2]، مئتان وأربعون طناً، وعوارض من ثمانية أمتار بطول ثلاثة وثلاثين متراً، وطاقم من أربعة وسبعين فرداً. ما رأيك في ذلك؟

"ظهرت السفينة بين الماء وسواد الليل، تحدّدها الأضواء التي على متنها. تكسّرت موجات النهر مع رشّ ناعم على الهيكل الضخم الذي يصدر عنه صرير، كان هيكلها ضخم كالبطن المستدير لحيوان أسطوري لطيف، كما أحب أن أتذكّره الآن. عندما أنزلوا السلم، انبعث شيء بداخلي أشبه بحبل مشدود: كان شعوراً جامحاً بالفرح. لم أستطع أن أصدّق

(1) باتاغونيا: هي منطقة في جنوب الأرجنتين وتشيلي.

(2) سفينة البيغل كانت سفينة تابعة للبحرية الملكية البريطانية.

أن كلّ هذا حدث هكذا بسهولة. كان عليّ أن أحمل حقيبتي على كتفي وأتمسّك بمقعد الزورق الخشبي بكلّ قوّتي حتى لا أقفز صارخاً، وبذلك سيعتقدون أنني جننت. لم يكن لديّ أيّ فكرة لماذا كانوا يضحكون، ربّما كانوا يضحكون عليّ، لكنّني انضممت إلى المرح العام بضحك هادر. بمجرّد أن كنت على متن السفينة، اختفت النشوة التي شعرت بها، وقد غمرني شعور أشبه بالتقديس الديني. كنت راسخاً في مكاني، وأفكّر في حبال الأشرعة والصواري الضخمة التي تتمايل برفق مع مسرى النهر وأستمع إلى تموج الرياح في الأشرعة، صرير الصواري الخشبية، والموسيقى التي ستكون من الآن فصاعداً واحدة من الأصوات المألوفة في حياتي، لدرجة أنه مع مرور السنين لم أستطع النوم دون سماعها.

قال لي ربّان المركب: "سأعود حالاً. ابقَ هنا".

حدّقت في النجوم الساطعة، الحامية والبعيدة، في الظلام الخالي من القمر، هناك وراء ضوء الفانوس الخافت على الصاري الرئيس. حوّلت وجهي إلى الأضواء على الشاطئ مثل شخص ينظر إلى مكان لم يعد له، مكان أصبح من الماضي. أخيراً، أومأ إليّ الربّان من باب السفينة الأرضي أن آتي، فنزلنا وتبعته عبر ممرّ ضيق متعرّج. توقّفنا أمام أحد الأبواب، فطرق الباب بهدوء.

عندما فتح الباب، ما ظهر أمامي كان عبارة عن مقصورة

مكتظّة بالكتب والخرائط والأشياء التي لم أتعرّف عليها، والتي عرفت فيما بعد أنها أدوات للمعايرة البحرية والفلكية. ورأيت لوحتَين تصوّران ريفاً حيث كان الرجال والنساء يركبون الخيول، محاطين بكلاب لا تُعدُّ ولا تُحصى، لم يكن ذلك الريف مثل الذي غادرته للتوّ. صدرت عن المقصورة رائحة تبغ قوية. كان الانطباع قوياً، لكنّه اختفى بمجرد أن ظهر أمامنا الرجل الذي كان في أحد جانبَي المقصورة يدير لي ظهره. عرفت الآن لماذا ضحك البحارة في القارب على ارتباكي. أيّ شخص يرى الرجل الذي يقف أمامي الآن سيعلم من فوره أنه هو ولا أحد آخر كان يقود تلك السفينة.

بعد ذلك بكثير، علمتُ أن الإمبراطورية قد خبّأت في هذه المقصورة أكثر سماتها قيمة، ووضعت فيها قيمها الأنقى، وأنّ الرجل الذي ظهر تحت المصابيح الصغيرة المثبّتة على خشب الجدران الداكن كان نموذجاً مميّزاً لما أصبحت تمثّله إنجلترا.

اليوم يكون قد مضى شهر واحد على وصول رسالتك. نحن في شهر نوفمبر، ويضفي الربيع على البراري جماله الهادئ الذي لا خلاف عليه. أنا أعرف محتوياتها عن ظهر قلب ولكنني أعيد قراءتها. لماذا لديّ شعور بأنه تحتوي تهديداً مبطّناً؟ يا سيّد مكدويل أو مكدونيس، فتأثيرها عليّ ينتمي إلى ما هو غير مألوف. أتذكّر من فوري البحر الداخلي الياباني، وعمقه الأخضر الغادر، حيث أُحتجزنا مرة مهدّدين بداء الإسقربوط على متن سفينة. استلقينا على سطح السفينة

في الحرارة الشديدة، وتحدّثنا مع صيادي المحار. أرانا أحدهم لؤلؤة. بدت لامعة مثل كوكب شفّاف صغير في راحة يده الداكنة. التقط محارة وشرح لنا -نحن البحّارة الناعسين- كيف حدثت المعجزة قائلاً: يقوم طفيلي أو حبّة رمل بشقّ طريقها إلى الصمام. فيقوم المحار بالدفاع عن نفسه أمام هذا الجسم الغريب من خلال لفّه بصبر بخيوط الصدف لشلّ حركته، وينتج عن ذلك كائن فريد. غريزة المحار، كأيّ حيوان، هي حماية نفسه، باستثناء أن دفاعه عن نفسه ينتج لؤلؤة.

لقد أثّرت فيّ الرسالة كما لو كانت كائناً غريباً أدافع عن نفسي أمامه من خلال لفّه بالخيوط اللا متناهية لهذه القصة غير الموجّهة لأيّ أحد. علاوة على ذلك، هل يمكنني أن أُعِدَّ هذه القصة "لؤلؤتي"؟ إن النشاط الغريب الذي اندفعت إليه يجعلني أسأل ما إذا كانت الكلمات لا تقودنا أحياناً إلى الحماقة.

بصياغة أسهل، الحقيقة هي أنّ القصة التي أنا على وشك أن أحكيَها تحرجني. أدرك أنه ربما يكون القيام بتغيير مسار السفينة أسهل من إعادة سرد الماضي في كلمات.

كعلاج مضاد، كرّست نفسي في الأيام القليلة الماضية للمهام المنزلية، بما فيها الاهتمام بخيولي أو للذهاب إلى المتجر العام حيث استفسر هناك عن أخبار من بوينس آيرس. بعد تكريس نفسها لنشاطي الجديد، واصلت غراسيانا النظر

بارتياب في هذه الأوراق التي تتمتّع بجاذبية استثنائية بالنسبة لها. لطفها يهدّئني، وجسدها المعطاء صغير السنّ، يقتلعني من وحدتي. وجودها هنا يحدّد التوازن الذي أحتاجه، في النهاية، حتى أتمكّن من الاستمرار. وصلت إلى نقطة في هذه القصة حيث التقيت بوتون. ما مررت به يثقل كاهلي ثقلاً كبيراً، وفي بعض الأحيان يبدو كل ما حصل وكأنه حُلم.

ما كتبته أعلاه عمره الآن يومان. شعرت بتردّد فضولي في الاستمرار، وقضيت الجزء الأخير من فترة ما بعد الظهر راكباً خيلي باتجاه البحيرة. هناك مررت دائماً بمعبر حيث بقيت آثار الهنود على الأرض الصلبة. ذات مرة، عندما كنت صبيًا، رأيت قطيعاً من الماشية أحضرها بعض أفراد الغاوتشو من الحدود، ماشية ضالة سرقها هنود البامبا وأعادوها عدة فراسخ إلى الجنوب، وراء نهر كولورادو. قالوا إنّه كان هناك حوالي ثلاثين ألفاً. أتذكّر كيف اهتزّت الأرض، حيث تمسكّت بتنّورة أمي. بعد سنوات، قبل ذهابي إلى لندن، تخيّلت شيئاً مماثلًا في سكّانها، مثل حجم تلك المدينة غير المعروفة، تلك التي ذكرها البحارة على متن السفينة باستمرار.

دارت الحشرات حول مصباح الزيت. كانت البراري في الليل أشبه ببحر ساكن. لقد غمر الليل العالم، وأحياناً كان على المرء أن يهمس ليقول شيئاً. فقد ابتلعت البراري كل شيء.

فكان لزاماً على المرء أن يهمس، كما لو كان يحاول التأكّد أنه على قيد الحياة.

مع مرور الوقت، فهمت لماذا عهد أولئك الذين أبحروا مع الكابتن بحياتهم إليه بشكل أعمى، ولماذا أطاعوه -أيضاً- طاعةً عمياء. في تلك الليلة، راقبتني عيناه الزرقاء الجليدية دون أي تعبير واضح. لقد كان شاباً يتمتّع ببنية قوية وحيوية ورباطة الجأش، بشخصية سرعان ما يتحوّل حزمها إلى انعدام المرونة. فهو لم يتحمّل أيّ نقاش، ناهيك عن العصيان، من أيّ من رجاله في المسائل المتعلّقة بالملاحة. بالنسبة لي، روبرت فيتزروي، أرستقراطي ومتكبّر، سليل ابن غير شرعي لتشارلز الثاني، حفيد دوق غرافتون، وابن أخ اللورد كاسلري، وأحد نبلاء لندنديري[1]، لذا كان دائماً الكابتن. وكبحّار، كان واحداً من أكثر من عرفتهم خبرة. استمدّ ثقته بنفسه من تدريبه العلمي -فقد كان قادراً على التنبُّؤ بطريق العاصفة مستخدماً أداة كان قد ابتكرها بنفسه- التي نُقلت إلى الطاقم. في مقصورته، وفي أوقات الوجبات، وفي معاملته الآخرين، حافظ على التعقّل ذاته والتربية الحسنة ذاتها التي أظهرها في أكثر عشاء عصري في لندن. لم يكن مرناً، وكان متطلّباً بهوس عندما يتعلّق الأمر بعمله.

(١) لندنديري: هي إحدى مقاطعات أيرلندا الشمالية.

هذا هو الرجل الذي التقيت به وجهاً لوجه في ذلك المساء، محاطاً، بما يشبه هالة قداسة، وأمام عينيّ البريئتين كان محاطاً بكلّ المُثل التي ساعدت في إبراز مواهبه كابن متميّز لإنجلترا.

أنا رجل في الثالثة والخمسين من العمر، أتذكّر شاباً يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، وعلى تردّدي، سيد مكدويل أو مكدونيس، لا يمكنني منع وميض بعيد من المشاعر التي ظننت أنها ضاعت بسبب التسلّل إلى هذه القصة.

أتذكّر نفسي في صباح أحد الأيام، بجانب الدفّة. على طرف الميناء، الفجر هو مجرد وهج شاحب في الأفق، وإلى الميمنة بعيداً، فوق شريط بحري أزرق وأخضر، كان الخطّ الداكن لمنحدرات باتاغونيا المرتفعة قد بدأ للتوّ بتحديد نفسه. نظرت مذهولاً إلى البقع الهائلة على الماء التي تخترقها طائرة نفّاثة مفاجئة كما لو كانت قطيع حيتان. كنت أرتجف من الخوف، فبدأت بقياس صِغَر السفينة التي كانت تشقّ طريقها بهدوء وسط تلك الوحوش المروّضة. أرى نفسي أقشّر البطاطس في المطبخ، وأكرّر ناعساً أسماء حبال الأشرعة والصواري، وأفرك سطح السفينة بيدي الحمراوين المتشقّقتَين، وأفشل في تنفيذ الأوامر بشكل صحيح، وأجتاز الاختبارات التي يمر بها كل مبتدئ بانتظام. لكن علاوة على ذلك كله، كنت أشاهد الرغوة على مقدّمة المركب، أصغي إلى الأمواج تضرب

الألواح الخشبية، والرياح الجنوبية المثلّجة تجرح وجهي، كان عمري سبعة عشر عاماً، ولديّ إحساس طاغ كوني على قيد الحياة. تعود إليّ ذكرى أول عاصفة واجهتها في البحر كانت لا تنسى.

كنا قد غادرنا جزر كيب فيرجين متّجهين إلى مضيق لو مير. كان الوقت بعد الظهر. وكعلامة التحذير، لعب طائر القطرس في الرياح، وترك نفسه تحمله التيّارات التي شكّلتها العاصفة في الهواء في الأعلى، والتي عذّبت السفينة وطاقمها في الأسفل. ارتفع الموج واشتدّت العاصفة وأصبح النهار مظلماً. تتابعت الأمواج الواحدة تلو الأخرى بسرعة. ومقدّمة السفينة تنسلّ عبر المياه. وقبل أن ننتهيَ من إنزال الأشرعة، اصطدمت الأمواج التي أصبحت عالية جدّاً الآن بهيكل السفينة واجتاحت سطح السفينة من البداية إلى النهاية. ضربني الماء بقوة كبيرة وخلال ثانية كنت مبتلاً حتّى العظم، متشبّثاً بحافّة المركب، لا أعلم إلى أي قديس أستودع نفسي. لقد تحوّل النهار إلى ليل وهبّت العاصفة علينا، وهي تجتاح السفينة التي كانت تئنُّ تحت رحمة البحر بآهات هائلة. انتابني شعور بالتشنّج المفاجئ في معدتي، وأصبحت مدركاً تماماً لعدم أهمّيتي ولهشاشة السفينة -وقد كان ذلك كلّه غير قابل للتصوّر حتى يوم أمس. تمكّنت من الاستجابة مثل الآلي لتعليمات الربّان الذي ناداني لأكون إلى جانبه والذي، كان يصرخ ويشتم بحالة أشبه بنوبة من الجنون، ويظهر بهجة مسعورة. بقي الكابتن على الجسر، وأصدر بهدوء

أوامر دقيقة وسريعة استوعبها الرجال من فورهم ونفّذوها دون تردّد. ارتفعت بنا الموجات العملاقة التي لم أتخيّل وجودها، وحملتنا إلى مرتفعات عالية جدّاً ثم رمتنا إلى الأعماق. لم أكن أعلم مكان السماء ولا مكان الأرض كان كل شيء ريحاً وماءً وظلاماً.

عندما هدأت العاصفة، أدركت بنوع من الذهول أن ساعات مرّت. قيل لي لاحقاً إنّها كانت أربع عشرة ساعة. سرت غيوم العاصفة بأقصى سرعة عبر السماء، ممّا أتاح لنا أن نلمح روعة القمر البعيد البارد. عند حلول الفجر، نزلت إلى الأسرّة لشرب قدح من القهوة الساخنة ولأبدّل ملابسي. ربّت الربّان على ظهري قائلاً:

"أحسنت صنعاً يا فتى".

حرصت على النظر من زاوية عيني إلى رفقائي الذين اخشوشنت وجوههم بتأثيرات الطقس، متوقّعاً أن يسخروا منّي، لكن لم يحدث شيء. تبع ذلك تعب جهنمي، فقد كانت كل عظامي تؤلمني وشعرت بيدي مسلوختَين. ارتميت على سريري وغصت في نوم عميق لا ينقطع. بعد أيام أرسل الربّان في طلبي. قدّم لي غليوناً، وكان أول غليونٍ امتلكته؛ ما زلت أحتفظ به تميمةً لجلب الحظّ.

كنت قد بدأت أفهم شيئاً من الهالة المحيطة بالمكان الذي كنا نتّجه إليه. صحيح أنني ولدت في الاتحاد لكن! لم أسمع

سابقاً عن تلك الأماكن التي تحدّث عنها البحّارة الإنجليز بدراية كبيرة، ومع ذلك كانوا في الجزء الجنوبي من أرض كانت بلدي.

حدثت تجربتي الأولى في البحر، سيد مكدويل أو مكدونيس، في متاهة الجزر التي تخشاها سفن العالم كلّه: كيب هورن. كان هذا الجحيم السائل محاطاً بإغواء كئيب بالسفن التي لم تعد قطّ. البحّارة الغارقون في السفن الذين تركوا إشارات على الصخور أو زجاجة مدفونة في الرمال؛ الجثث الحية التي التجأت إلى الكهوف التي على طول الساحل وبقاياهم الفانية التي شكّلت دافعاً آخر للخوف: كان الشتاء مرعباً في كيب هورن.

لا شيء سوى ألفة السنوات الطويلة مع هذا المكان، وصيفه المعتدل، وسلامه العجائبي، كان قادراً على تغيير هذا الانطباع الأول عنه.

لا شيء سوى جرثومة الجنون المتأصلة في الجنس البشري تسوِّغ حقيقة أن الرجال يندفعون إلى البحر. فبمجرد أن تجرب مذاقه، من المستحيل التراجع. البحر فيض، ومن ثمّ، فهو ينطوي على قدر معين من الحكمة. مع أنني لم أؤمن بذلك قطّ، إلا أنه لا بدَّ أنني كنت بحّاراً عادياً اختار هذه الأرض للتقاعد كنوع آخر من الفيض. اخترت لغة أمي، وسوف تستقبلني هذه

السهول يوماً ما كما استقبلني حضن أمي.

لديّ عدد كبير من الخرائط في حقيبتي طالما سحروني. حيث يظهر جزء كبير من أراضي باتاغونيا على تلك الخرائط القديمة تحت اسم (ريس نوليوس[1])، الأرض القاحلة. إنها بلدي. هل سبق لك أن زرت باتاغونيا، سيد مكدويل أو مكدونيس؟ هل يمكنك حتى تخيّل ذلك؟ هل يمكنك أن تتخيّل ممرّاً هائلاً للرياح وأرضها هضبة تنحدر من الجبال باتجاه الشرق وتميل فوق البحر في منحدرات مقعرة عملاقة؟ هل يمكنك أن تتخيّل حصاناً فوقه خيّال يسير بأقصى سرعة، مفتوناً بالوجود الثابت لسحابة عملاقة أشبه بصخرة التكوين[2]، التي تتدلّى بلا حراك في سماء صافية شفّافة في وقت الظهيرة، ويسرع الفارس لمجرد المتعة الصغيرة الذي يمنحه إياها المرور تحت تلك الغيمة الثابتة؟ هل يمكنك تخيّل كثافة يمكن أن تحمل في داخلها ألف مدينة مثل لندن؟

في صباح أحد الأيام كنا هناك في نهاية العالم، أمام تلك الصخور الوعرة والجزر المظلمة، ولمسافة أبعد إلى الأسفل، حيث لا شيء. كنت بجانب الكابتن عند درابزين السفينة، فاستوعبت كل شيء، واكتشفت عالماً قديماً للغاية بدا أنه تم

(1) res nullius باللاتينية: تعني لا شيء.

(2) صخرة التكوين: هي عيّنة من قشرة سطح القمر الأصلية يرجع تكوينها إلى الوقت الذي شكّل فيه القمر. أحضرت للأرض خلال مهمّة أبولو من قبل روّاد الفضاء جيمس إروين وديفيد سكوت.

إنشاؤه مؤخراً فقط. أشار الكابتن إلى جزيرة.

قال: "القرن ذاته. لا يحتاج إلى وصف، يصعب الخلط بينه وبين شيء آخر".

ظهرت صخرة سوداء وسط الماء؛ انجرفت جزر جليدية صغيرة في عرض البحر. بدا الكابتن مرتاحاً وراضياً كما لو أنه في حديقة منزله. طلب منّي أن أحضر له كوباً من القهوة إلى مقصورته.

في هذين الشهرين كان قد بدأ يحبني. كان رجلاً مثقّفاً وقد عَدَّ أي مثال على ذلك -الذي نادراً ما كان يصادفه في أعالي البحار- على أنه هدية مميّزة. بناء على طلبه، أوضحت كيف جعلني مالوري أقرأ بعض الكلاسيكيات الإنجليزية والعالمية. لقد جعله ذلك يدلي بتعليق غريب اختلط فيه الفخر العرقي بالاعتراف الصغير بحقيقة:

"إنجلترا في كلّ مكان".

لم أفكّر في الأمر بهذه الطريقة من قبل، ولكن عندما قال ذلك أدركت أن ما قاله ليس بعيداً عن الحقيقة. ومع ذلك، لا بدّ لي من شرح شيء ما، سيد مكدويل أو مكدونيس. كان هناك إعجاب، ولكن لم يكن هناك أي شعور أنني ابن للكابتن، وأنا أجرؤ على القول إنّه لا يوجد رجل أبحر معه على الإطلاق يمكن أن يكون لديه مثل هذا الشعور. لقد خلق نوعاً من الفراغ من حوله. كان جافاً ومنعزلاً، مع حاجته المهووسة إلى ممارسة

السيطرة على الآخرين، والذي أصبح واضحاً بشكل مؤلم في حالة بوتون الذي سأكون الشاهد الرئيس عليه في السنوات التالية. لا يعني ذلك أنه كان رجلاً سيّئاً، لكنه الأكيد أنه كره أي نوع من القرب من الآخرين أو مناقشة أي موضوع آخر غير الله أو البحر أو العلوم البحرية.

يتبادر إلى الذهن أن ذلك ليس سوى مثال على شخصية القبطان، وربما امتداداً للشخصية العامة التي فرضت بها إنجلترا قوانينها: كلمة تيكنيكا(1)، التي يستخدمها الكابتن لتسمية بلد بوتون وشعبه. في الواقع، كما علمت من بوتون نفسه، فإن هذا الصوت يعني حرفياً "أنا لا أفهم ما تقوله"، وهو ما كان شعب اليامانا يردّ به على الكابتن:

"تيك يونيكا"[2].

ولكن كما كرّروا ذلك باستمرار، استنتج بسرعة أنهم كانوا يقولون اسم بلدهم، وهذا هو الاسم الذي أطلقه عليها.

مرت أشهر منذ أن أبحرت أول مرة، ويمكنني تقريباً أن أسمّي نفسي بحّاراً. رسونا عند ساحل شيلي وعدنا إلى الجزر الجنوبية حيث كنا نلقي بالمرساة، ونجري دراسات من أجل

---

(1) Tekneeka قبيلة سكنت تيرا ديل فويغو.

(2) عبارة معناها «أنا لا أفهم ما تعني» بلغة سكّان تيرا ديل فويغو الخاصّة. Teke umeka

استطلاع أمر به الكابتن. وبطريقة ما، اعتدت على تلك الظلال التي انزلقت بصمت حول السفينة في زوارقهم تلك حيث أشعلوا حرائق ضخمة على طول الساحل، حرائق ثقبت ظلام الليل. وهناك من درابزين السفينة، لم أستطع أن أرفع عيني عن تلك الأجسام أو تلك الحرائق. لم أكن أعتقد أنهم كانوا حقاً أكلة لحوم البشر كما قال رفاقي -لكنهم بدوا كذلك بالفعل حول وهج النار. أطلق اللهب الطويل ألسنة حمراء في منتصف السواد، في منتصف الليل الذي كان بلا قمر أو نجوم. انتشرت النار وارتفعت أعلى وأعلى بين نفثات الدخان الكثيفة. غالباً ما رأيناهم يتبعون مسار السفينة، ويتسابقون على طول خطّ الساحل. ومع ذلك لم يسبق لي أن التقيت بأحد منهم.

بعد ظهر أحد الأيام، عادت مجموعة رجال أخذوا قياسات هيدروغرافية[1] إلى السفينة حاملين أخبار بأن المتوحّشين سرقوا أحد مراكب صيد الحيتان. اختار الكابتن مجموعات للبحث عنه فتوجّهت للعثور عليه. ذهبتُ في إحدى هذه المجموعات، ولم نعثر على شيء. فبمجرد أن يسرقوا شيئاً ما منّا، لم نكن لنراه ثانيةً. لم يتركوا أي أثر، ولا علامة على وجودهم. اختفوا فقط من أمام أعيننا. بعد نصف ساعة رأيناهم يتسابقون فوق الصخور ليجعلونا نعتقد أنهم ليسوا الأشخاص أنفسهم. كان الأمر نفسه يستمر أيامًا أو أسابيع.

(١) هيدروغرافيا، علم مسح المسطحات المائية من بحار وأنهار وبحيرات.

أتى الشتاء علينا. في محاولة أخيرة لاستعادة القارب، ثارت ثائرة الكابتن فأخذ رهائن على متن السفينة. كانوا ثلاثة، وكانت أسماؤهم وأعمارهم تتوافق مع الأماكن أو الظروف التي تم العثور عليهم فيها، وأيضاً مع الخيال: كانت هناك فوجيا الصغيرة، وهي فتاة تبلغ من العمر تسع سنوات أو عشر؛ يورك منيستر، أكثر من عشرين سنة، قويّ ولا يثق بأحد؛ وبوت ميموري، أصغر سناً وأكثر تحفّظاً. بعد بضعة أيام، ذهب الكابتن بنفسه إلى الشاطئ ليواصل البحث. وفي حين كان قاربه في طريقه إلى السفينة، عندما تمّت إحاطته بعشرة زوارق أو خمسة عشر زورقاً مكتظّاً بـأفراد شعب اليامانا. في إحداها الذي كان بالقرب من قارب الكابتن الطويل كان هناك صبي عمره خمسة عشر عاماً أو ستة عشر واقف على قدميه. قرّر الكابتن الغاضب أن يأخذ رهينة أخرى لتخويف الهنود. قبض على الصبي من ذراعه. في الحركة نفسها، قفز الصبي إلى القارب ليحافظ على زورقه من الانقلاب، في حين صرخ صوت، ربما كان صوت والده. مزّق القبطان بعض الأزرار من معطفه وألقى بها في الزورق كطريقة لدفع ثمن ما. تبع ذلك هياج كبير، وربما أصبح الأمر خطيراً. على سطح السفينة، أطلق بحار طلقة في الهواء. أخيراً، نجحنا في رفع القوارب. تمّت تسمية آخر رهينة جيمي بوتون[1] كتذكير بالسعر المدفوع ثمناً له.

توقّفت عن الكتابة وبذلت جهداً لأتذكّر. حاولت أن

(1) Button : بوتون: تعني زر بالإنجليزية، حيث دفعوا ثمن الرهينة زراً ولذلك سمّي بوتون.

أتعمّق في الماضي لأرى ما إذا كان هناك أيّ شيء في ذلك اللقاء الأول مع بوتون، أي علامة تدلّ على أهمّية الصبي الذي تحوّل إلى رجل، والذي سيكون له وجود في سنواتي اللاحقة وفي الأحداث المستقبلية. لم أتذكّر شيئاً، سيد مكدويل أو مكدونيس. فقد أعادت الذاكرة بوتون وجميع أبناء وطنه إلى صورة مشتركة للكائنات الغريبة القادمة من بداية الوقت، التي شعرت حيالها بالرفض والشفقة، وأنا أحاول استيعاب نسائهم العاريات في الزوارق.

جعلهم الكابتن يغسلون أنفسهم ويرتدون ملابس. لم يكونوا مستاءين منّا: فقد أبهرتهم كل الأشياء الجديدة أمام أعينهم، وفي غضون أيام قليلة كانوا يتجوّلون على متن السفينة بسهولة وعفوية. لقد تعلّموا اللغة الإنجليزية بوتيرة مذهلة. كانت لديهم هبة المحاكاة؛ فقد كانوا يحاكون اللغة بالطريقة التي يحاكي بها المرء السلوكيات أو المواقف أو المهارات اللازمة للبقاء على قيد الحياة. أول ما علّمه الكابتن لبوتون هو "يمكنك أن تدعوني جيمي بوتون"، وكرّر ذلك، وهو يسير بابتهاج على سطح السفينة. توقّف أمامي وكرر للمرة المئة: "يمكنك أن تدعوني جيمي بوتون". نظرت إليه ولمست صدره بسبابتي:

"جيمي بوتون".

ولمست صدري وقلت:

"جاك".

أضاء وجهه. لقد أدرك أن الاسم الذي أطلقه عليه البيض كان فقط جيمي بوتون وليس "يمكنك أن تدعوني جيمي بوتون". ولدهشتي، لمس صدره بإبهامه من فوره، وقال: "جيمي بوتون، من شعب اليامانا"، ثم أشار إلى صدري قائلاً، "جاك، من البيض".

كانت تلك المرة الأولى التي نتواصل فيها، والمرة التي عرفت فيها اسم شعبه.

كان بوتون الأكثر ذكاءً، والأكثر ميلاً لمعرفة المزيد عن الأشياء التي أثارت اهتمامه، والأكثر تلهفاً ليريني بلده. افتعل إشارات ليخبرني أنه سيريها لي. لقد كان موهوباً للغاية في التقليد لدرجة أنه غالباً ما يمرّ وقت طويل، بفضل موهبته هذه، كنا نفهم بعضنا بعضاً فيه فهماً مثالياً دون الحاجة إلى الكلمات.

بعد عدة أيام من صعود اليامانا على متن السفينة، دعاني الكابتن إلى مقصورته وأخبرني أنه يريد مني أن أفعل شيئاً مهماً. لقد قرّر اصطحاب السكّان الأصليين إلى لندن، وأراد مني أن أبقى على مقربة منهم، خاصةً على مقربة من بوتون؛ لأننا كنا في العمر نفسه تقريباً. طلب منّي أن أبذل قصارى جهدي لتعليمه اللغة الإنجليزية والأساليب المتحضّرة.

كانت حالتي الذهنية غارقة في الحذر والارتباك في تلك الأيام الأولى التي قضيتها على سطح السفينة مع الياماناً. أعقبت التصرفات الأولى التي نمّت الفضول، حقيقة مدمرة: إن يوتون يعرف أكثر مني عن أي شيء يصادفنا. فقد كان بحّاراً أفضل، وكان لديه بصر مدهش والمذهل أكثر أنه تمتّع بمهارة رماية بالحجارة. كان باستطاعته أن يكون عارياً تحت المطر المتجمّد أو حتى الغوص في بحر بارد كالثلج؛ لقد عرف كيف يصطاد ويجمع المحار ويجد أعشاش طيور الغاق على المنحدرات. كان يعرف أي نوع من طيور البطريق ليست صالحة للأكل، ويعرف أين يجد الماء العذب والحطب. ربما كان قد عاشر امرأة من قبل، وفي غضون عام، إذا كان يقيم على اليابسة، فسيكون أباً. لكن عندما كنت شاباً لم أستطع تقبّل كل هذا على الإطلاق. لقد توليت المهمّة التي كلفني بها الكابتن، وكنت أحاول أن أريه ما يجب عليه القيام به وأصحّح أفعاله على الدوام.

حاله كحالي، كان من المقرر أن يجرّب تجربة أخرى في العامين المقبلين: لندن. وهناك بدأت بإكساب حياته معنى، حيث سأتمتّع ببعض التفوّق عليه.

زوّدته بالملابس، وأريته مرآة أذهلته في البداية ولكن بعد ذلك أصبحت شيئاً استشاره باستمرار. لقد جمع مهارة الكبار المذهلة مع العادات الطفولية. بصره، مثله مثل كل شعبه، كان استثنائياً. لم يكن ليفلت منه أي وجه حتى لو شاهده من مسافة

ما، ولم يكن لينساه حتى بعد سنوات. على سطح السفينة، في أغلب الأحيان كان يشير إلى الأفق بينما لم يتمكّن البقية منا من رؤية أي شيء بعد، ولا حتى رأس دبوس، حتى يخرج الكابتن منظاره ثم يكتشف مذهولاً وجود صخرة أو سفينة أو ذيل حوت.

كان الطعام هو أكثر ما أثار إعجاب بوتون ورفاقه. وما كان مصدر ذهول مستمر بالنسبة لهم هو أنّ كل واحد منا على متن السفينة حصل على الطعام بكلّ تلك السهولة، فلم تكن المؤن توفّر الضروريات فقط بل كانت مكدّسة في مخازن السفينة. أذكر أنهم عندما نزلوا إلى مكان وضع الحمولة، جعلتهم مخازن السفينة في حالة ذهول. لقد أثار الخبز جنونهم، وأحبّوا الملابس لكنهم لم يفهموا الحاجة إليها. الشيء الذي جعل بوتون يستسلم للكابتن تماماً هو أنه أعطاه زوجاً من القفّازات. على سطح السفينة استمتعنا بدهشته بعض الوقت. إذ لم يكن ليتخيّل أنّ يديه، يمكن أن ترتدي ملابساً خاصّة بها بشكل مستقل عن جسده.

كان من المعروف أن الكابتن كان متحمّساً أكثر فأكثر لفكرة أخذ الياماتا إلى لندن. كان لديه مشاريع شرحها لي بأسلوبه الجافّ. أصبح منخرطاً في وضع خطط لتعليمهم، ومنذ البداية، لتوجيههم الديني، الذي كان بالنسبة له أمرًا أساسياً. فبدأ يتحدث إلى بوتون عن الكتاب المقدّس. أطلعه عليه وقلّب صفحاته. تحدّث معه عن الخير والشر، والخطيئة

والفضيلة، والله والشيطان، الأشياء التي أستطيع أن أرى أن بوتون قد فسّرها بطريقته الخاصّة.

كانت مهمّة السفينة هي مسح السواحل والجزر والخلجان والمرافئ المناسبة. كان لديّ أنا وبوتون العديد من الفرص لاجتياز البلد الذي أسماه شعب اليامانا وولايا[1]، والذي كان فخوراً بأن يريني إياها. في يوم واحد كان مناخها الذي لا يمكن التنبّؤ به يتغيّر من العاصفة والمطر، إلى طقس معتدل بشمس باردة بعيدة جعلت الأرض المتجمّدة تلمع وتوقظ ألواناً فجائية في الغابات المظلمة التي تنحدر من قمم الجبال إلى حافة الماء. أحب بوتون بلاده وكان فخوراً بجمالها، الذي أثنيت عليه كثيراً بدوري. لقد دُهشت من الانهيارات الثلجية، وأنهار الجليد التي تدفّقت إلى الخلجان والمضائق التي أراني إياها بحماسة متقدة. بعد ظهر أحد الأيام بحثت عن المحار على طول الساحل، وتوقّفت لأشاهد المنظر وأخبرته بالإسبانية، مع التأكيد على كلماتي تأكيداً ملحوظاً:

"إنّ بلاد بوتون جميلة، جميلة جداً".

ثم كرّرت ذلك بالإنجليزية، وبسطت ذراعي، ورسمت نصف دائرة في الأفق طوقَت المناظر الطبيعية المهيبة في تييرا ديل فويغو. نظر بوتون إليّ مبتسماً.

---

(1) Wulaia: عبارة عن خليج على شاطئ جزيرة نافاريو الغربي، أقصى جنوب تشيلي.

كرّر بالإسبانية: "بلد جميل".[1] ثم أضاف بالإنجليزية: "جميل. ليس هناك شيطان في بلد بوتون".

في ظهيرة ذلك اليوم حدث شيء ما -قد يبدو هزلياً- ويوضّح كم تقبّلني بوتون تقبُّلاً طبيعياً، حتى مع شعوري بأني أرفع مقاماً منه. عندما كنّا نمشي بجانب أحد التلال حين ثقبت صخرة جزءاً من حذائي. اضطررت إلى خلعه وكذلك خلعت جوربي لمعرفة ما إذا كنت قد أصبت. عندما رأى قدمي العارية، لم يتمكّن بوتون من كبح ضحكة لم يستطع السيطرة عليها. حتى إنه لم يتمكّن من تمالك نفسه بما فيه الكفاية لاستعادة قدرته على الكلام. انتابتني الحَيرة، فلم أكن أعرف ما الخطب حتى أدركت، بقليل من الإحراج، أنه كان يضحك على قدمي. أوضح قصده تماماً مستخدماً الإشارات أنّ قدمَي كانتا بلا فائدة، وكانتا أكثر قدمَين عديمتي الجدوى رآهما في حياته. تضاعف ضحكه حين استشعر بشرتي. غسلت الجرح الصغير بالماء، دون أن أنظر إليه. وفي النهاية واجهته بجدّية وقلت بالإسبانية:

"لا تسخر مني يا صديقي".

أشار إليّ أن أنتظر، ثم تسلّق إلى حيث الصفّ الأول من الأشجار في الغابة وعاد بقطعة من الطحالب بحجم منديل وقدّمها إليّ:

---

(1) Hermoso pais بلد جميل بالإسبانية.

"إنها تجعل الجرح يابساً". وكرّر ذلك بالنبرة نفسها، فقلت له:

"لا تسخر مني، يا صديقي".

في تلك الأيام كنت أعمى. رأيت بأمّ عيني، ولكن استطعت بصعوبة أن ألمح عالم بوتون. كنت أضحك عليه -أيضاً- مع البحّارة الآخرين، وأؤلّف نكاتاً فاحشة حول أجساد النساء العاريات. حتى أتى ذلك اليوم الذي حدث فيه شيء أحدث تغييراً في داخلي.

كنت في غرفة الحمولة وسمعت ضجّة آتية من سطح السفينة، ميّزت صوت بوتون الحادّ بين أصوات الأخرى. أسرعت الخطى، خوفاً من أن يوبّخني الكابتن على شيء خاطئ قام به أحد أفراد اليامانا.

كان بوتون في مؤخّرة السفينة يمشي جيئة وذهاباً، ويومئ مشيراً إلى شكل ضخم. بدا مجنوناً من شدة الغيظ. ما أشعرني بالراحة أنني لاحظت أن أفراد الطاقم كانوا يضحكون من وراء ظهره. لذلك لم يكن هناك شجار. لكن مشاعر بوتون كانت مشاعر وحشية، وفي حالة بدائية. ففي غضون دقائق، أثار غضبه إعجابهم جميعاً.

كان يتّهم أحد الرجال؛ كان يصل إلى مصدر الصراخ ثم يتراجع، ويعيد ذلك مراراً وتكراراً. لقد اصطاد البحار فُقمةً صغيرة وبعض فراخ البطّ. كان هذه الكومة الدامية التي استطاع

اليامانا بمشقّة أن ينظر إليها. عندما شعر بوجودي اقترب مني وتحدّث إليّ يومئ باهتياج على بعد بضع بوصات من وجهي. أوضح أنّ مثل هذا الشيء لا يمكن تحمّله، وأنّ البحّار ارتكب خطأً لا يمكن إصلاحه، إذ لا يجوز قتل الحيوانات الصغيرة، لا الصغار ولا الأمّهات، وأن هناك العديد من العواصف ستهبُّ علينا كعقاب، فربّما تغرق سفينتنا، ونفنى جميعاً في قاع المضيق الجليدي. هدّأته قدر المستطاع. وأخذته إلى مقدمة السفينة، مؤكّداً له أن البحّار سيعاقب، لكنه ظلّ يهزّ رأسه.

"الأمر سيئ، سيئ للغاية" كرّر بقلب متفطّر.

تظاهرت بالقلق، ولكن ذلك الاهتياج جعلني أبتسم في سرّي.

في تلك الليلة ظهرت رياح قوية. سُمع صفيرها في الألواح الخشبية وأنّت السفينة بأكملها. كنت مستيقظاً في سريري، حين تذكّرت مشهد الظهيرة. فجأة، ودون سبب محدّد كان لديّ إحساس بأن ما حدث كان له علاقة بشيء آخر. دون معرفة ما سأفعله تماماً، لبست حذائي وصعدت إلى سطح السفينة. بحثت عن بوتون ووجدته يجلس القرفصاء بالقرب من مقدّمة السفينة وظهره إلى الصاري، كان الظلام شديداً ويمكن بصعوبة تمييزه تحت ضوء المصباح الضعيف الموجود في مقدّمة المركب. كان عارياً من جديد، شعره الرطب يطير حول رأسه. كان منعزلاً، ويحدّق في حريق مشتعل على الساحل

يتراقص في الظلام، ويصارع الرياح، ربّما كان كوخاً مستديراً. ربما قامت عائلته بالتخييم حيث يمكنهم رؤية السفينة. ما استشعرت به سابقاً تكشّف لي هناك. اقتربت منه وجلست القرفصاء أمامه. وجعلته ينظر إليّ.

"أنا، جاك" صرخت حتى يسمع وأشرت إلى صدري، "أنا لم أقم بذلك قطُّ" -وقاطعت يدي أمام وجهي وفردتهما- "لم أقتل قطُّ" وقمت بضرب سطح السفينة بعصا بشكل وهمي، وشبكت يدي من الإبهام وقلّدت حركة الطيران، وأشرت إلى شيء صغير الحجم بالإبهام والسبّابة وقلت: "الحيوانات الصغيرة".

لم ينبس بكلمة، ولم يصدر أي إيماءة. نظر إلى عيني مباشرةً، فكرّرت عليه من جديد:

"أنا، جاك ..."،

رفع يداً واحدة، ووضع راحتها على صدري، وأومأ باتّزان مؤيّداً ما قلته.

لقد فهم، لكن مزاجه لم يتحسّن. جلست قبالته، وظهري إلى حافّة المركب، وعزمت أن أظهر له أنني فهمت. كنّا في فصل الشتاء، وكان اختباراً صعباً بالنسبة لي. كان الماء يجلد وجوهنا من وقت لآخر، وكانت أسناني تصطكّ. كان بوتون صامتاً وغامضاً، ولم يلاحظ شيئاً. عند الفجر انخفض هبوب الريح وأحيطت السفينة بهدوء غريب. مع أول بصيص من

ذلك النهار، بدأ الثلج يتساقط، وسرعان ما تغطّى سطح السفينة بغطاء أبيض ناعم. سألت بوتون إذا كان يرغب في النزول وتناول كوب من القهوة. فقبل اقتراحي.

كما استغرق مني سنوات لأفهم الأمر، الذي لم يكن مجرد مسألة تعاطف متبادل بالنسبة لبوتون؛ الأمر لم ينته فقط بفهمي له. إنّ ما حصل على سفينتنا كان انتهاكاً لنظام مقدّس أعلى منا. لم يكن هناك مجال للشكّ في وجود عقاب أجّلت الطبيعة تنفيذه فقط، ولكن لن يطول انتظار مجيئه.

بعد ذلك بيومين، هبّت رياح قوية كإعصار، مصحوبة بزوابع من حبّات البرد والأمطار الغزيرة التي هزّت السفينة حتى جنحت عن مسارها، ممّا اضطرّ القبطان إعطاء الأمر لرفع المرساة. كانت التغيرات المفاجئة في الطقس مستمرة في تييرا ديل فويغو، لذا لم يكن هذا جديداً، ولكن كان يمكن رؤية عيون بوتون تلمع برضا. كنا نتلقّى العقوبة التي توقّعها، والتي كنا نستحقّها.

كان هناك بحّار محدد على متن السفينة، وكان يحبّ أكثر من البقية أن يسلّيَ نفسه بالسخرية من بوتون. إذ مارس عليه العديد من الخدع، وكانت حماقاته وأخطاؤه الناتجة عن ذلك تجعل البحّارَ يستغرق في نوبات من الضحك الجامح. كنت أشاهد الاثنين. وجميعنا رأينا دليلاً وافياً على العنف الذي كان بوتون

وأصحابه قادرين عليه. كان البحّار متهوّراً، فأي شخص من شعب اليامانا كان أقوى مرتين من أقوى رجل على متن السفينة؛ وقد تأكّدنا من ذلك. إذ كان لديهم القدرة على الإمساك بأي رجل، ورفع جسده والقذف به على الصخور. كانوا إذا قاتلوا يقاتلون دون تفكير، كانت المسألة بالنسبة لهم فقط مسألة تدمير الخصم. كان بوتون صبياً، لكن العنف كان كامناً فيه، ويمكن رؤية ذلك بلمحة. في هذا اليوم، بعد أن شاهدت بوتون يمشي على طول سطح السفينة بالمشية المتموّجة ذاتها التي اعتمدها للسير على متنها، يتبعه الضحك الصاخب للبحّار، كان انتباهي كاملاً، وكنت على استعداد للتدخّل. وما فاجأني أن بوتون جاء إليّ مبتسماً وأقسم إنه كان ساخراً. كان يهزّ رأسه.

قال بالإنجليزية: "قُبَرات كثيرة"، وكرّرها قبل أن يختفي إلى مخزن المؤن، "قُبَرات كثيرة".

بعد عامين من ذلك في إنجلترا، عندما كان بوتون في المزرعة بالفعل ويتحدّث الإنجليزية بطلاقة، شعرت بقليل من الاستياء عندما علمت، أن الانطباع الذي تركته عليه أثناء تلك الأسابيع الأولى كان محبطاً إلى حدّ ما، إضافة إلى أنه وجدني مثيراً للشفقة.

وأكثر من ذلك، فقد رأى أنني متخلّف قليلاً ومتعلّم بطيء جداً. ووَفقاً له، فقد عاملني "بالكثير من اللباقة والصبر".

وأضاف أنه كان من الممكن أن يسلّي شعبه بأن يريهم كيف سيتحوّل شخص فخور للغاية بما يعرفه، الذي كان يحاول دائماً تعليمه الأشياء، إلى شخص لا يفقه شيئاً بمجرّد تركه على الأرض مدة ثلاثة أيام فقط. لقد شعرت بالإهانة، لكن بوتون كان على حقّ.

دعني أعترف، سيّد مكدويل أو مكدونس، أنّ قصتي لا يمكن أن تكون محايدة. لم تكن كذلك قطّ. كنت صديقاً لجيمي بوتون، ومولعاً به ولعاً عميقًا، ومع مرور السنوات وصل شعوري تجاهه إلى أبعاده الحقيقية. في البداية شعرت بشعور واضح بالتفوّق عليه، ولكن منذ زمن طويل، عندما فهمت الخطّ المنحني لحياته وشعرت بالأسى لمصيره ومصير شعبه. فالعالم الذي عرفه بوتون، عالم أسلافه، كان يقترب من نهايته الطويلة. مثل الجبال الجليدية التي انفصلت عن الأنهار الجليدية، بدأ عالمه في التفكّك وسرعان ما انجرف نحو فنائه. لم يكن وضعي الخاصّ مختلّفاً جداً. فقد كنّا في طريقنا إلى نظام لا مكان لنا فيه سوى المكان الذي قمنا بتعيينه سلفاً. لقد جئنا من حوافّ العالم الخارجية، من حدوده القصوى، من مكان بربري لا يمكن تخيّله، على الرغم من لغتي الإنجليزية الجيدة ومسحة الشقار التي تمتّعت بها، إلا أن ذلك المكان البربري انبثق منّي وحاصرني، تماماً كما حاصر بوتون.

أخيراً، أبحرنا إلى إنجلترا. كانت حماستي مساوية لما كان عليه حالي، فأنا لم أكن إلا فتى المقصورة الذي شعر بالفعل

بثقته بنفسه دون أن تكون لديه فكرة بعد عن كل ما كان عليه أن يتعلّمه عن البحر. وعلاوة على ذلك، كنت في طريقي إلى بلد أبي، في طريقي إلى مدينة مالوري. كان المستقبل يُفتَح أمامي دون وجود سحابة في الأفق. حاولت أن أشرح لبوتون إلى أين نتّجه. لم ينتبه إليّ كثيراً. عندما ابتعدنا عن وولايا، وعن متاهة الجزر والقنوات، أصبح حزيناً وقضى ساعات على سطح السفينة ينظر إلى المنحدرات الأخيرة الظاهرة عند الأفق.

أثبط الترحال في أعالي البحار عزيمة اليامانا. كانوا غير معتادين على مثل هذه المدة الطويلة على متن السفينة، فأصبحوا عابسين وصامتين. مررنا مدة وجيزة عبر مونتيفيديو، التي عدت إليها وهجرتها مرة أخرى. بصعوبة شعر بوتون برغبة الذهاب إلى الشاطئ ولو مرة واحدة. لم يبدو أنه يستجيب للحداثة. لا شيء إلا بعض الحيوانات وبعض العربات كانت كفيلة بإخراجه من اللا مبالاة، ولكن حتى ذلك كان لحظياً. عندما أبحرنا شمالاً، تركت الحرارة أثرها عليهم بلا رحمة وجعلتهم خاملين ومجرّدين من الحيوية.

نزل المطر برفق إلى الجهة التي تهبّ منها الريح. كان ساحل البرازيل وراءنا؛ وأمامنا المحيط يأخذنا إلى قارة مجهولة. جالساً على سطح السفينة، تركت نفسي أرتاح على إيقاع السفينة المتأرجحة السلس. نظر بوتون بقلب متفطّر

إلى آخر طيور النورس التي رافقتنا حتى لم يبقَ شيء حولنا سوى الماء. كان عقلي منشغلاً بذكرى: بيت دعارة رخيص قريب جداً من الساحل، له عارضة متدلية ومصابيح زيتية تومض في رياح الليل، وعلى الخلاسية التي اخترتها، مذعنة، غامضة، موافقة على مغادرة الأسرة والحصائر التي كان البحارة السكارى يضاجعونها عليها بغض النظر عن الأجساد المسترخية حولهم. كان جسدها العاري مطواعاً، ووجهها إلى السماء، وسط ضجّة المدّ. في تلك الساعات على الشاطئ المظلم كنت مبتدئاً متلهّفاً لكل ما على الرجل أن يتعلّمه.

رفض بوتون الدخول وبقي جالساً على الرمال بالقرب من قوارب الصيد، ينظر إلى البحر. وبعد أن تناولت بضعة مشروبات أخرى، دفعته إلى فتحة بيت دعارة التي كانت بلا باب مصحوباً بسخرية الآخرين. عندما عدت قبل الفجر بقليل، رأيته ينزل إلى الشاطئ برفقة شابّة صغيرة، مجرّد صبية صغيرة رأيتها في الداخل في وقت مبكّر من المساء تلوّح بورقة شجر كبيرة بشكل غريب على شكل آس البستوني، التي كانت تُهوِّي بها أجساد رفاقي الحارة.

كانت أول امرأة عاشرتها خلاسية. طاردتني صورة خضوعها، فجعلت مطر الحب المبارك يغسل وجهي وجسدي. مثل الوداع الأخير، كانت هذه هي ذكرى أمريكا الأخيرة التي رافقتني والتي ستختفي مدةً، مع عدوانية لندن.

الجزء الرابع

[لندن، ١٨٣٠]

حملَنا المدّ على كتف النهر مثل طبق. زاد حماسي لفكرة رؤية لندن مع مُضيّ كلّ ساعة ونحن نبحر في مياه نهر التايمز، ونقترب من المدينة التي تحدّث عنها البحّارة على متن السفينة بلا كَلَلٍ والتي كنت أحملها في دمي.

كان الميناء في حالة هرج ومرج. لقد بدت مونتيفيديو صاخبة بالنسبة لي، ولكن هكذا المكان كان مثل بابل[1]. كان هناك سفنٌ تحمل أعلاماً غير مألوفة، ومستودعات ضخمة، حيث صرخ موظّفي الشحن بأعلى صوتهم، وحيث التبادل تجاري، والشحنات، وأشخاص من كل بلد ومن جميع الأجناس: من زنوج، وهندوس، وصينيين. في النهاية، كنّا في قلب أكبر إمبراطورية بحرية في العالم. لم أستطع تتبّع المشاهد التي تدور حولي. كان بوتون قد استنزف قدرته على الدهشة منذ فترة طويلة. أو ربّما كانت تلك القدرة أصغر من قدرتي، مِن أو تنتمي إلى نوع مختلف من الدهشة. ومثل رفاقه، أظهر فضولاً إرادياً لكنه استنفد بسرعة. فقد انتمى إلى بلد كانت فيه الأمواج أطول من هذه المباني، حيث الأصباح والليالي تستمر لأشهر، والحيتان كبيرة بحجم المراكب الشراعية. كانت

(١) نسبة إلى أسطورة برج بابل في بلاد ما بين النهرَين حيث فرق الإله السرمدي الألسن بعدما كان البشر ينطقون بلغة واحدة.

فوضى الأشخاص والسفن والمباني بلا أي معنى بالنسبة له. انتظر العديد من أفراد الطاقم ليشاهدوا ردّ فعل بوتون بفضول، ولكن لم يكن هناك تكرار للمشهد الذي حدث عندما أعطاه الكابتن القفازات ممّا جعله يشعر بنشوة. الشيء الوحيد الذي جعل اليامانا يخرج من حالة اللا إنسانية من ذاك الانعزال الوحشي كان زنجياً بقامة عملاقة، وهو إثيوبي أُحضر من إفريقيا، ربما لغرض مشابه لغرض الكابتن. في غضون بضعة أسابيع، كان يرتدي حذاءً من المخمل، سيضيف شكله الغريب لوناً إلى قصر في لندن. أصبح مزيّناً بالريش وقلائد من الأسنان، واقفاً بلا حراك مثل وثن. عيناه، بألقهما الرقيق، لم تومضا حتّى وقت التفتيش الذي خضع له. ربما كان أفراد اليامانا أدنى من خطّ رؤيته؛ لأنهم كانوا أدنى من مستوى كتفه.

كان بوتون ورفاقه يرتدون لباساً مناسباً، حين أُخذوا إلى نزل قرب الميناء، حيث قام القبطان باستئجار غرفة لهم في الطابق العلوي. طلب مني، تحت التهديد بالعقاب، أن أعتني بهم حتى عودته. أصابت الحمى بوت ميموي وجعلته ينهار على سطح السفينة عدة أيام، قَبْلَ وحالما رآنا نستقر، فأخذه القبطان الى المستشفى البحري. سبّب وصولنا الى مكان الإقامة هناك ضجّة كبيرة بين الناس الذين لم يبدو أنهم ينظرون إلى أفراد اليامانا بمحاباة. حتى إنني ظننت أني سمعت بعض الشتائم. لم يكن لدي الوقت لأفكّر بمعنى كل الأشياء التي كانت تحصل. أخيراً، كنت في المدينة التي ولد فيها مالوري،

ربما حتى الحانة ذاتها التي قضى فيها ليلة قبل الإبحار. أثّر فيّ التفكير بالأمر بطريقة غامضة سبّبت لي الارتباك، لكنه لم يصل لدرجة أن يصبح شعوراً حقيقياً. كانت عينا بوتون غامضتين بشكل غريب، حيث التجأ إلى لا مبالاة صامتة لم أستطع فهمها. لم يحب أفراد اليامانا أن يتم فصلهم عن بوت. أرعبهم الشعور بهاجس ينذر بموته. جلسوا على الأرضية مستندين على أحد جدران الغرفة. جلست بجانبهم، محاولاً إخفاء قلقي حول الجلبة المتزايدة المسموعة في الأسفل. كنوع من التسلية، قام بعض البحارة السكارى بنقل شائعات تفيد أن رفاقي كانوا أكلة لحوم البشر، ممّا سبّب المزيد والمزيد من الصيحات. تجمّع الرعاع في الشارع، وأصبح الأمر أسوء من مجرد مزحة سيّئة. في البداية أبقى حضور الكابتن الأمور تحت السيطرة، لكن حالما غادر بدأت المشاجرة من جديد بعنف مثير للقلق. نهضت بهدوء واختلست النظر عبر مصاريع النافذة. ماذا كنا سنفعل لو أن ذلك الحشد قرر أن يصعد إلى الطابق العلوي؟ لم أستطع الاعتماد على صاحبة خان. فقد أجرتنا المرأة الغرفة على مضض، إذ استمالها بصعوبة لباس القبطان والدفعة المقدّمة السخية التي قدّمها لها.

أمسكتُ بيد فوجيا الصغيرة، لا لأشعرها بالاطمئنان فقط، بل لأرى إن كانت مصابة بالحمّى. كنا جميعاً قد خضعنا للتطعيم للوقاية من الجدري في مونتيفيديو، لكن حالة بوت خلقت قلقاً مستمراً. لحسن الحظّ، كانت فوجيا الصغيرة

على ما يرام. وعينا بوتون كانتا مثبتَتين عليّ. ماذا كان يحاول أن يخبرني؟ حتّى الآن كانت كل محاولة للتواصل بيننا، وأيّ شيء يمكن أن يقوله بعضنا لبعض هو بفضل مهارتهم المذهلة في المحاكاة والتقليد. كنت أعرف كلمة أو كلمتين فقط من لغتهم. أشرت إلى الباب المغلق.

قلت جزئياً باللغة الإنجليزية، وجزئياً بلغة الإشارة: "سيعود القبطان قريباً وسنترك هذا المنزل".

ومع ذلك، لم يكن هذا كل شيء. فقد كانوا جالسين في زاوية على الأرض، ملتصقين بعضهم ببعض كما هو الحال في فصل الشتاء في بلدهم البعيد، مع أنه لم يكن هناك كوخ مستدير مصنوع من أعمدة أو أغصان فوق رؤوسهم، ولم تكن هناك رياح مألوفة تجعل موج البحر يتحطّم على الصخور، ولم يكن هناك كلاب لتمنح الرجال حرارة أجسادهم الودية، ولا ألسنة النار العتيقة ترتفع حولهم. لم يكن هنا إلا الارتباك والخوف ورجال يصرخون بجنون في الأسفل. أوحت لهم الغريزة أنه بالبقاء بالقرب بعضهم من بعض دون حراك؛ لأنهم كانوا في منطقة غريبة محاطين بغضب عدو مجهول ووحشي. لم يجرؤ شيء على مقاطعة شبه الظلام البارد الذي كنا فيه إلا صوت فوجيا الطفولي.

قالت: "مثل صيادي أسد البحر".

كانت نظرة الجدّية في عينيها في وسط ذاك الوجه الدائري

كفيلة باستحضار صور الوحشية والقتل إلى تلك الغرفة.

أنا -أيضاً- كنت مضطرباً. أردت أن أتخيّل أنني أستطيع تنفيذ أوامر القبطان، لكن الحقيقة هي أنّ المكان الوحيد الذي شعرت فيه بالأمان كان في الغرفة مع الياما‌نا.

بعد ذلك ببضع ساعات، لم يتبقّ سوى عدد قليل من الثرثارين. بالنسبة لهم كان الياما‌نا فضيحة اليوم ولم يرغبوا في تركنا في سلام. قرّرت النزول لآكل شيئاً. كانت هناك مفاجأة مخبّأة لي. فقد كان أحد الذين أرادوا أن يعلّمونا درساً ينتظر عند أسفل الدرج.

كان شخصاً تافهاً يرتدي زيّاً أسودَ دهنيّاً مهترئاً. تظهر بضع خصلات قذرة من الشعر وسوالف كثيفة تحت قبّعته. بدأ بالصراخ بمجرد أن رآني.

"أنزل أكلة لحوم البشر! ارمِ أولئك الحثالة خارجًا!" اقترب منّي وبصق على الأرض.

تظاهرت صاحبة النزل بعدم ملاحظة ذلك. استمرّ ذلك النكرة في إهاناته.

"فليؤخذ أكلة لحوم البشر إلى السجن! وليتعفّنوا في الحفرة! يجب أن يتمّ نقلهم إلى السجن الآن!".

هذه المرة لم أدعه يقترب. فأنا لست الآن ولم أكن، في الثامنة عشرة من عمري رجلاً صغير الحجم، سيّد مكدويل أو

مكدونيس، وكان بناء الرجل الإنجليزي أشبه بسمك الرنجة المجفّف. دفعته من كتفَيه: لمسته بصعوبة فطار على الطاولات ثم سقط منبطحاً على الأرض. فهدّد اثنان آخران في الخلف بالنهوض. فكّرت في الكابتن وبمستقبلي. قد ينتهي بنا المطاف في السجن دون أن يكون قد مضى على وجودنا في لندن أربع وعشرون ساعة.

"آسف يا سيّدي" تمتمت. رفعت جسده من ثيابه وتظاهر بنفض الغبار عن ملابسه: "لقد كان من الأفضل لنا أن نتعامل مع الأمر بهدوء، حتى لا نتسبّب في هياج أكلة لحوم البشر. سيعود الكابتن غداً" كذبت على ذاك العفريت الذي لا أسنان له. "سنغادر قريباً".

لسبب ما، اختفى المتنمّرون. أعطتني صاحبة النزل بعض الأطباق على مضض، وأعطتني حساءً لم أرغب حتى في النظر إليه. لم يعجبني ما كنت أراه في لندن، وكان حبّي لسكّانها يقلّ. إذ لم أرَ في لوبوس مثل هؤلاء الأشخاص القذرين.

عدت إلى الغرفة. لم يأكل أحد. كان الجو بارداً في مطلع الفجر، فلففت نفسي بلحاف رفض اليامانا قبوله، وبقيت عيونهم مفتوحة في الظلام. على السلام الواضح الذي ساد الآن في الأسفل، إلا أن يورك وفوجيا وبوتون لم يغيّروا مواقعهم، ولا حتى لينظروا داخل المكتب أو خزانة الملابس، والتي كانت ستثير إعجابهم في ظروف أخرى. في الأيام التالية،

حملت قلبي وخرجت، وكنت أغامر أكثر قليلاً كلّ يوم. عند حلول الليل، كنت أعود إلى النزل، ويتبدّد الإحساس بالابتهاج الذي أحدثته جولاتي الأولى في المدينة ليحلّ محلّه الشعور بالذنب. في الطابق العلويّ، بقَوا وحيدين، غرباء صامتين، كان اليامانا ينتظرون عودتي لأنها كانت الخيط الوحيد الذي يصلهم بعالم لم يكن يرغب بوجودهم على الإطلاق.

هناك مع اليامانا في لندن، سيد مكدويل أو مكدونيس، ظهر سؤال لا مفرّ منه. لماذا تم إحضارهم هناك؟ في ذلك الوقت، بالكاد كان بإمكاني التفكير في الأمر بوضوح تام، لكن السؤال بقي معلّقاً بشكل واضح في الهواء ولم يكن بالإمكان تجاهله. قرّر الكابتن إحضارهم واستبعد غيابه أيّ إجابة حاسمة. لم يكن هناك سبب، لقد أُحضروا من أجل لا شيء. أجبروا على عبور المحيط بشكل فجائي أو للقيام بتجربة، ولم أستطع الوصول إلى معرفة السبب.

سيوصلني الوقت إلى فهم أن الغرض من وجود بوتون في لندن قد تقرّر في مكان بعيد جداً عن هناك، مكان أبعد من شوارع الميناء القذرة والأشخاص الذين يشبهونا: هناك في دوائر السلطة النبيلة التي لا يمكن الوصول إليها، حيث وضعت إنجلترا خططها في جميع أنحاء العالم. احتل اليامانا مساحة دقيقة جداً في أحجية معقّدة، كانت إحدى قطعها تييرا ديل فويغو الذي يرغبون في امتلاكها مع فتح قنواتها في المحيط الهادئ.

هبّت رياح البامبا بالمزيد والمزيد من القوة. الأفق، الذي كان ساطعاً قبل بضع دقائق، تحوّل الآن إلى اللون البنفسجي، وسيجار كبير بلون صخر الأردواز[1]، ممتدّ على خطّ الأفق، يتدحرج بسرعة باتجاهنا. هناك في الوضوح الهادئ الذي أحاط بنا، بدت الطيور مجنونة وتطير من مكان إلى آخر، وتتقاطع، بحثاً عن ملاذ من خطر وشيك. بدأ صوت الرعد البعيد يظهر في الظلام الدامس. واختبأ عنا أياكس[2] المتململ في مكان سرّي. قامت غراسيانا بتربسة الأبواب المجلجلة، التي بدأت تهتزّ. ذهبت إلى النافذة لمشاهدة المشهد. اهتزّت النباتات الشوكية بجنون، وارتجّت رؤوس الأشجار بشدة؛ وهطل الماء دفعة واحدة بقوة غاشمة، وبينما توغّل الليل واهتزّ السهل كما لو كان تدافعاً لخيول هاربة تعدو عبر ممر الهضبة الهائل من أقصى الجنوب. ما أخافني كصبي أصبح يثيرني كرجل. إنّ هبوب عاصفة على سهول البامبا، سيد مكدويل أو مكدونيس، هو شيء لا يمكنك تخيّله في المساحة الضيّقة لمكتبك الصغير: يبدو الأمر كما لو أن المنزل كلّه سيقتلع من أساسه، وفجأة ينتهي كلّ شيء. يتوقّف الرعد والبرق، وفجأة ينقطع هطول المطر، ويتكشّف سطوع خارق في السماء ويغسل السهل بألوان زاهية ورقيقة لا يمكن لأحد وصفها، إلا إذا كان رجلاً مثل تورنر، شديد الحساسية للضوء. تبدأ الحياة من جديد، وكما هو الحال في اللحظة الأولى من التكوين،

---

(1) الأردواز: هو صخر تكون من الرماد البركاني وهو رمادي اللون.

(2) أياكس في الميثولوجيا الاغريقية: هو أحد أبطال حرب طروادة.

يسود الانسجام في الاتجاهات الأربعة للبامبا.

فتحت غراسيانا الأبواب من جديد. توقّفتُ عن الكتابة لأنّ الظهيرة أغوتنا بالخروج بعد مرور العاصفة.

في اليوم الرابع، عاد الكابتن إلى اليامانا. وأرسل فوجيا ويورك إلى مزرعة في الريف، حيث سيتلقون تعليماً إنجليزياً وأساسيات لمهارات معيّنة. سيبقى بوتون معي في لندن بضعة أسابيع، ثم سيُنقل -أيضاً- إلى مدرسة المزرعة. لم يتسبّب هذا الفصل في أيّ مشكلات؛ فقد أصبحت غريزة يورك بحماية فوجيا واضحة.

"هو ينتظرها لتكبر"، شرح لي بوتون.

اشترى الكابتن ملابس جديدة لجيمي وحذاءً جديداً، وأخذه ليحصل على قَصة شعر جديدة. حتى أنه قدّم له قبّعة. بجهد كبير تجاوز بوتون أسبوعه الأول في إنجلترا، وبدا أنه استعاد اهتمامه وفضوله بشكل تدريجي مرة أخرى. أسهم برد الشتاء في هذا السلوك. كنا نحن الثلاثة نخرج في عربة الكابتن. في البداية أراد بوتون أن يجلس بجانب الحوذيّ الذي كان يسمح له بين الحين والآخر بإمساك زمام القيادة. كان قد استعاد مهارته المذهلة في الإيماء ولم يكن هناك أيّ شيء مادي يصعب عليه تعلّمه. لقد كان هناك شيء آخر بأفعال معيّنة، وهو ما ضاع فيه تماماً. أظهرت أسئلة بوتون المقلقة أن

العلاقات التي وجدها البيض طبيعية كانت مربكة بالنسبة له. أربكه تناقضهم، وأقلقه الحديث لمجرد الحديث أو الإصرار على أشياء لم تثبت صحّته لاحقاً. وما أشعره بخيبة أمل وحَيرة أن يكون هناك نيّات محجوبة وراء أفعال معيّنة. ولكن، كما أحب الكابتن أن يكرّر، كان ذكياً جداً واستطاع أن يتكيّف.

بعد ظهر أحد الأيام، أمضى الكابتن بعض الوقت وهو يريه بعض النقود الورقية والعملات المعدنية.

كان يقول، وهو يفصل بين العملات ذات القيمة المختلفة: "مال، المال من أجل التجارة، ولشراء الأشياء".

كنت أرتدي قبّعة تبادلتها مع الكابتن مقابل قطعة نقدية، ثم أرجع لي عملات معدنية صغيرة. أُعقب هذا التقليد بتركيز جدّي من قبل بوتون، الذي مع ذلك، نظر للحظة في عيني نظرة ملؤها الشك ثم نظر إلى الكابتن مرة أخرى باهتمام. أومأ بوتون برأسه موافقاً، وطلب المال، وكرّر العملية معي. فهم فعل التبادل قبل أن ننهي عرضنا الرنان بكثير. كانت قيمة المال المجردة شيئاً آخر، ففكرة التعامل معها لهدف الحصول عليها كان يعود لعالم من القيم غير المادية، والتأثير الغامض الذي لم يتمكّن بوتون قطّ من استيعابه، أو ربّما فعل ذلك بطريقة ما كما سيوضح ما يأتي.

كنا نتجوّل في شوارع مزدحمة بالقرب من الميناء. أعطاه الكابتن عدة عملات معدنية وضعها في جيبه. أُعطيتْ له

كاختبار لمعرفة ما إذا كان سيخطر بباله شراء شيء ما. أخرجهم بوتون من جيبه وانشغل بتلميعهم بسترته، ورميهم في الهواء والتقاطهم مرة أخرى كما رآني أفعل. سقطت إحداها منه وهربت تتدحرج على حجارة الرصيف. دفعة واحدة هرعت مجموعة أولاد رثي الثياب من المداخل لالتقاط القطعة النقدية. وهذا ما أدهشه وأسعده. كانوا يصرخون، اتجهوا بوجوههم النحيلة القذرة نحونا أملاً في المزيد. لشدة سروره، ألقى قطعة نقدية ثانية في الهواء، ونتج عن ذلك اهتياج كبير. كان بوتون يضحك بجانب أولئك الأطفال الذين أحاطوا به الآن وبدؤوا بشد ملابسه. عندما رأى أنه اضطر لرمي كل ما لديه في الشارع، أمسكت بذراعه، لكنه ابتعد عني دون عنف.

"الأمر مسلّ جداً، يا جاك" قال ضاحكاً. "مسلّ جداً!".

هكذا أضاع بوتون ما كان لديه من نقود لكنه اكتسب تجربة استثنائية: فقد كان قادراً على فهم فكرة القوة المجردة التي يمتلكها المال. منذ ذلك الوقت لم يطلب إلا القطع النقدية المعدنية ليرمي بها في الشارع. كان شراء الأشياء أو الأطعمة فكرة غير مفهومة بالنسبة لليامانا؛ ففي كيب هورن كان كل فرد يحصل على ما يحتاج إليه، والباقي يصبح ملكاً للجميع، لكن هذا أمر لم يهتم أحد باكتشافه، بين كثير من الأشياء الأخرى.

منذ أن عدّ القبطان مسألة التعامل مع النقود ضرورية، عندما غادر إلى وطنه طلب منّي أن أحافظ على إصراري. كنت سعيداً

بكوننا قادرين على المشي بأنفسنا في مدينة، أو على الأقلّ في أحياء أصبحنا نشعر فيها الآن كأننا في وطننا، اعتدنا الخروج إلى الشوارع بين الناس لنفعل بشكل أو بآخر ما كان علينا فعله. بهذه الفكرة دخلت إلى أحد المتاجر لشراء غليون وبعض التبغ، مما أدى إلى تحسين العرض من خلال المساومة الملحَّة والمفصلة التي أمتعتني. تابع بوتون عد العملات والمجادلة على السعر بانتباه طالب مجتهد. لكنه قال لي فيما بعد:

"النقود، يا جاك؛ نقود لأرميها".

وضع قطعة نقدية أمام وجهي، فأوضحت بإشارات، تماماً كما فعلنا معه، أنني كنت سأرميها في الشارع بين الصبية الصغار.

اكتسبنا شعبية بعد وقت قليل؛ فقد كنا ثنائي من نوع غريب، دائماً ما نكون متبوعين بجلبة مجموعة من الأطفال. أحب بوتون الأمر؛ ففي بلده كانوا يظهرون مراعاة خاصة للأطفال، أطفال المرء وأطفال الآخرين كذلك، والذين اعتنى بهم الجميع دون استثناء بحماسة كان يمكن أن تصل لدرجة التضحية.

بالنسبة لبوتون، كان متسوّلو لندن القذرون الأقلّ تهديداً، والشيء الأكثر وضوحاً حول إنجلترا.

عند المشي في شوارع لندن، تبلورت في ذهني صورتان متوازيتان للفقر، وبدت كلاهما أكثر يأساً من الأخرى: واحدة،

عن سهول بلادي التي لا نهاية لها -حيث تم إخضاعنا إلى حالة من الفقر الدائم، ويرجع ذلك جزئياً إلى رفضنا القيام بالأعمال اليدوية، وجزئياً لأنه باستثناء الحرب، لم يعرف أحد بماذا يوظفنا- وواحدة عن لندن. لم يكن الاكتظاظ والعدد الكبير من المنازل التي بدت كالأقباء، سوداء مثل الكهوف، وترشح منها الرطوبة، أفضل وضعاً من الصحراء التي غادرتها. في هذه المنازل، كانت النساء ذوات الأثداء المغمورة ينجبن أطفالاً نحيلين يرمونهم في الشوارع، ولم تنتظر أمهاتهم أن يتعلّموا المشي ليحملوا ويلدوا الطفل اللاحق. كشفت لندن عن فقر لم أكن أعرفه. ففي بلدي ربما كنا أكثر وحشية وأكثر فقراً، لكني تجرّأت على تخيّل سعادة أكبر. في لندن، تذكّرت العواصف التي نظّفت سهول البامبا وأبعدت الفقر والأوبئة. في هذه الأحياء استقرّ المرض والبؤس في حجارة الأرصفة نفسها.

لقد كانت تجربة غير عادية، سيد مكدويل أو مكدونيس: تجربة غير واعدة ومدمرة في الوقت نفسه. منذ أن كبرت في الصحراء، أسرني أولئك العوام الذين لا هدف لهم، الذين يكسبون خبزهم اليومي بأي طريقة ممكنة، بمخططات قذرة ومهام سرية، جذبوني إليهم كما تجذب الدوامة كل شيء إلى وسطها.

بعد سنوات عديدة سأكون قادراً على ربط تلك المشاهد المؤلمة -التي عادت مثل اللكمات على وجهي- بهذه

المقاطع الشعرية من تأليف شيلي[1] والتي لم أكن أعرفها في ذلك الوقت:

"الجحيم مدينة تشبه لندن كثيراً

مدينة مزدحمة بالسكّان والدخان

حيث العديد من الناس بلا أمل

والقليل من العدالة،

حتى إن الرحمة أقل...

وتلك الخطوط التي تجمعها الذاكرة الليلة مصادفة

من هناك على بعد آلاف الأميال في البامبا،

إلى الآخرين الذين يأتون بإرادتهم

-ولا أتذكّر من أين-

أتجوّل في كل الشوارع المستأجرة،

بالقرب من مجرى التايمز المستأجَر،

وأرى في كلّ وجه أقابله

علامات الضعف، وعلامات المصيبة".

(1) بيرسي شيلي: شاعر إنجليزي رومانتيكي.

والتي سألت نفسي عنها ببراءة، هل كانت الثروات والمستوطنات التي احتلّها الإنجليز وتمسّكوا بها بأيّ ثمن في أقصى أقاصي الكوكب؟ فالأحياء التي توالت وراء بعضها بشكل لا نهائي في الشوارع الضيقة المرصوفة، لم يكن يسكنها المستفيدون من تلك المشاريع.

كان مالوري قد مشى في تلك الشوارع، وربما يكون ارتاد أيًّا من هذه المداخل المظلمة.

لم يكن من الممكن لأيّ من جولاتنا الطويلة أن تخيف بوتون. تجوّلنا في شوارع المدينة التي لا تنتهي من الصباح حتى الليل. شخصان من بين آلاف الأشخاص المجهولين الغريبين، أولئك البشر سريعي الانفعال، السعداء، الكئيبين، البائسين الذين رأينا وجوههم في المرة الأولى والأخيرة، والذين كانوا يسحبوننا من شارع إلى الشارع الذي يليه في متاهة تنتهي في بعض الأحيان بطرق مسدودة بجدران صبغها الزمن والدخان باللون الأسود. بدت لندن بالنسبة لنا تنحدر نحو الواجهة البحرية حيث كانت المدينة مضطربة هناك، ويحلّ الليل على نهر التايمز، فنطوف حول الجسور. المياه المرتعشة بالقرب من الأرصفة عكست مدينة متألقة بآلاف المصابيح الغازية، وبالطبع كنا نضيع طريقنا وننام في أي مكان: في الحدائق والمداخل والأسواق بالقرب من حافّة

النهر. وما إن تركنا وراءنا منطقتنا الطبيعية -الواجهة البحرية أو المناطق الصناعية النائية- تم الاستيلاء على تلك الأماكن من قبل المتسوّلين، وبائعي الأقمشة البالية، والنساء المسنّات العاجزات، والمكفوفين والمقعدين، الذين كانوا يتسكّعون على أبواب الكنائس. كانوا يتسوّلون في الليل. ومع بزوغ ضوء النهار، تتراجع تلك الكائنات إلى جحورها وتختفي من الأماكن المفتوحة في المدينة كالطرق المشجّرة والحدائق، وحيث سيشكّل وجودها لطخة قبيحة على تلك الجدران السكنية التي تجوّل الكابتن خلفها، حيث كان أقاربه وأصدقاؤه، وحيث كان له تأثير.

كان مكاناً منفصلاً، لكنها المدينة ذاتها، نعم، لقد كانت هذه مدينة مختلفة. فقد جعلتني هندستها الرائعة في ذهول. كنت أسحب بوتون ورائي مراراً ونتسكّع في الشوارع حول تلك القصور والحدائق كما لو أنهم كانوا في دولة أخرى.

أمام تلك الجدران الرخامية المبهرة والمحاطة بطرق تخطّها الأشجار على الجانبين، وأمام تلك العربات التي عاشت خيولها بلا شكّ حياة محمية أكثر من الناس الموجودين على تلك الزوايا القذرة التي أتينا منها. تلاشيت أنا وبوتون، وأصبحنا لا شيء. فقد جئنا من مكان يفوق الخيال بالنسبة للناس هنا -هناك حيث هدير الريح في البراري اللا نهائية، والمشاعل في الليل، وصيد الحيتان- ولكن حتى لو عرفوا ذلك المكان، لم يهمهم ذلك. الأمر الذي استمرّ دون عائق

كان اللا مبالاة الأرستقراطية، التي بقيت أكثر صلابة وهيبة من الجدران والأقواس الضخمة والبوابات. كنا نكرات، بوضوح وبكل صراحة.

بدأ وجودنا يتجسد في جزء آخر من المدينة، في المكاتب الاستعمارية، ولدى سماسرة السوق، في الأميرالية. هناك، من خلال الكيمياء الغريبة للحضارة، تولينا أنا وبوتون أمر أنفسنا، وأصبحنا حقيقيين، فأصبحنا ننتمي إلى مكان ما على الكرة الأرضية حيث أصبحنا في وضع تحوّلنا إلى جلود ونقاط وأرقام.

لا أستطيع أن أقول أنّني لم أكن أتعلّم. ألهتني ضخامة لندن لكنها مع ذلك علّمتني، ورفعتني نحو مستواها. كنت حسّاساً لجمالها الذي لا يمكن إنكاره. كان هناك الكثير ممّا يمكن تعلّمه من حدائقها ذات المناظر الطبيعية ومصابيح الغاز، ليس من هذه بحدّ ذاتها ولكن من التفكير الذي جعل وجودها ممكناً. في لندن، كما هو الحال في القواقع، سيد مكدويل أو مكدونيس، كان من الممكن رؤية الزمن. كان الزمن ممهوراً على الحجر والحديد والرخام. ولم تكن المباني فقط، فقد احتلّ الناس -أيضاً- مكاناً في التدفّق الطبقي لعقود وقرون. وكانت ملابسهم وعرباتهم ومنازلهم بمثابة بطاقات تعريف عنهم، عن رتبهم وماضيهم، وماذا كانوا يتوقّعون من الحياة وماذا منحتهم الحياة مقدّماً.

لم يكن للوقت وجود في المكان الذي أتينا منه، ولم يكن أحد يعرف كيف مرّ؛ لأن الحياة بدت دائماً تعود إلى الأرض دون ترك أيّ أثر. وقد كان لزامًا ربط الحقائق بالسهل لمنعهم من الطيران. هناك لم يكن التاريخ قد بدأ بعد، بينما في لندن، مرت السنوات والقرون والعصور الماضية بوتيرة دائخة هكذا، بالنظر إليها فقط.

لم أكن أفهم كثيراً، لكنني فهمت بما يكفي لأدرك أن روحي بقيت عالقة بين الطبيعة التي خلفتها ورائي والتي لا يمكن سبر أغوارها، والتعداد الهائل لمدينة بدت لي لا نهائية.

كانت إنجلترا تعلّمني، وأنا، كنت ابتلع كل شيء مثل سمكة ضخمة.

على أي حال، لم يستطع بوتون أن يدركها أو يفهمها. لم يكن حتى من الممكن له أن يبدأ في استيعاب ما يعنيه كل هذا. كما لم يكن لديه مكان ليقصّ فيه ما رآه. من كان لدى بوتون ليخبره عن تجربته مع الحدائق أو النزل أو المال، وفوق كل شيء، إلى من كان يمكن أن يفسّر معنى ما كان يراه: مدينة متوهّجة في الليل بألف ضوء والتي تضاعف عددها في النهر؟ لو أراد بوتون أن يصفها، لكان عبّر عنها بصوت غاضب، وستكون قصته وصفاً لا نهائياً للظروف والأشياء التي يقدّمها شخص قادر على رؤية ما يجري، ولكنه غير قادر على فهم السبب.

بعد سنوات أكّدتُ أنّ ما سمّاه الطبيب الصغير "انحدار بوتون إلى حالة وحشية"، وصفَ بشكل تامّ ردّ بوتون على تواصله مع الحضارة. أفضل ردّ، والردّ الوحيد الممكن.

لقد قضيت ليلتي بلا نوم، سيد مكدويل أو مكدونيس. أصابني الأرق الشديد. فذكرياتي عن لندن، عن المرات العديدة التي كنت فيها هناك، والتي أضع فيها وصفاً مكثّفاً لزيارتي الأولى إلى هناك، إذ إنّ تفاصيل صغيرة أخرى لن تؤدّي إلا إلى وصف لن يفيد كثيراً، تدفعني إلى وضع أشياء أخرى بالحسبان.

الليلة الماضية، على ضوء مصباح الكيروسين، وبينما كنت أفتّش داخل الحقيبة الجلدية التي كانت معي دائماً أثناء الثلاثين عاماً الماضية، والتي كانت ممتلئة بأشياء من جميع الأنواع كتذكارات من دول لن أزورها مرة أخرى، الحربة المصنوعة من العظم التي أعطاني إيّاها جيمي بوتون، سجل فيها ملاحظات حول هذا العبور منذ مدّة طويلة، وجدت ما كنت أبحث عنه: بعض الصحف القديمة التي حافظت على عادتي في تلقيها من بوينس آيرس. أتحدّث عن صحيفة التايمز. قد توضّح صفحاتها، وعلى وجه التحديد فقرات معينة من نسخة من عام ١٨٥٩، يمكن أن تظهر نهاية الأرض التي أتينا منها من "مركز الإمبراطورية البحرية". يذكر المقال المهمة الباتاغونية.

وكان السحر التبشيري، بالتأكيد، وكما أعتقد أنني قلت سابقاً، هو المسبّب الذي أطلق سلسلة الأحداث التي حوكم فيها جيمي بوتون في الجزر.

سأترجم جزءاً ممّا جاء في التايمز: "كما نرى، فإن روح التبشير هي غالباً ما ترتبط بروح المغامرة الرومانسية. دولة بعيدة على الجانب الآخر من خطّ الاستواء، ملفوفة بسرّ النصف الآخر من الكرة الأرضية الآخر، القبائل الهمجية، التي لا تزال غير معروفة، التي تُعدُّ عقولها أرضاً مجهولة بالنسبة لنا، وتثير الاهتمام والفضول الذي يخفّف من رتابة العالم اليومي.

"نحن لا ننتقد هذا المزيج من الدين والروح الرومانسية، فهو أمر طبيعي تماماً. ولكن من الواضح أن روح المغامرة الدينية هذه مصحوبة بمخاطر لم تتوقّعها الجمعية التبشيرية الباتاغونية. لا يمكن لأحد أن يشكّك في الحماسة والحميّة لهذا الارتباط، والشخصية الكريمة حقّاً التي لفتت الانتباه إلى السواحل الغامضة لتييرا ديل فويغو كمهمة للبعثات التبشيرية.

"كل ما يمكن أن يكون مطلوباً لمغامرة دينية كان موجوداً هناك: وحشية السكّان الأصليين تُوّجت هناك تحت الغيوم لم يخترقها الضوء قطّ، أرض الأرواح أو الأشباح. فقط بلد برابرة هيرودوت[1] والآخر حيث أمطرت الريش استطاع بصعوبة أن يتفوّق على تييرا ديل فويغو بسحره المجهول.

---

(١) هيرودوت: مؤرّخ يوناني قسّم العالم إلى قسمَين قسم يتحدّث اليونانية وقسم لا يتحدّث بها والقسم الثاني هم البرابرة.

"ومع ذلك، فإن هذه الحملة الدينية، التي تمّ التخطيط لها تحت هالة من المغامرة الرومانسية والروحية، كانت منذ البداية متّجهة إلى المتاعب. فبمجرد وصولهم إلى إحدى جزر فوكلاند، اصطدموا مع الحاكم آنذاك، السيد رينيه.

"تم التعاقد مع الكابتن باركر سنو (لقيادة سفينة البعثة، مركب ألين غاردنر[1])، وعلى اعتراضه على منهجية البعثة، إلا أنه جعل العبور إلى تييرا ديل فويغو بحثاً عن التحوّلات المستقبلية ونجح في العثور على جيمي بوتون، وهو مواطن يدلّ اسمه المألوف على أنه أحد المعارف السابقين. وفي وقت لاحق، واجه وزير البعثة المفوض، القس ديسبارد، الكابتن باركر سنو وأعفاه من مهمته. إذ من الطريقة التي تحدث بها الكابتن سنو لاحقاً مع أصحاب العمل، قد يفترض المرء أنهم كانوا من الهمج الأتراك أو الوحوش بدلاً من كونهم من المبشّرين الأتقياء والمتحمّسين.مكتبة سُر مَن قرأ

"كان من الممكن تجنّب هذه النتائج المؤسفة لو لم يفشل هؤلاء الأشخاص الطيّبون في تحقيق أدنى قدر من الاستقصاء، أو لو أعدوا أنفسهم للصعوبات المخبّأة لهم. كل ما كانوا يتخيّلونه كان مشاهد ريفية عن الحياة الوحشية: حيث رؤساء باتاغونيا يخضعون للسيطرة التبشيرية ويخضعون لضرورة إيقاظ العقول البربرية.

(١) ألين غاردنر كانت سفينة تعود لجمعية البَعثة الأمريكية ومقرّها إنكلترا.

"من المعروف الآن أن مهمة باتاغونيا انتهت بشكل سيّئ، ولم يقتصر الأمر على أن الوثنيين لم يتحوّلوا، ولكن النتيجة كانت شجاراً داخل مجموعة من المسيحيين أصحاب الامتيازات".

يمكننا أن نستخلص من رأي التايمز يا سيد مكدويل أو مكدونيس، أنه لم يرَ أيّ من سكّان المدينة شخصاً اسمه بوتون كما علمنا.

ذكرني المقال بشيء. كانت كلمة "رومانسي" مألوفة في ذلك الوقت، وكانت تستخدم لكل شيء. وهنا يتم توظيفها بشكل جيد؛ فهي تعطي المهمّة طابعها السطحي، إضافة إلى الجانب غير المسؤول الذي كان فيها. يمكنك أنت أو من يضع عينيه يوماً ما على هذه الصفحات الفوضوية، أن تستخلص استنتاجاتك الخاصة.

اسمحوا لي أن أستمرّ في رواية قصتي الخاصّة.

كنت في لندن أبحث بشكل أعمى عن اسم الحي أو الشارع الذي سيستخرج من ذاكرتي شيء ما قاله مالوري في وقت ما. نظرت إلى المداخل وسألت في الحانات. أو ربّما هذا ليس صحيحاً تماماً، ربّما لم أكن أرغب في العثور على أي شيء، وقد أعطاني البحث فقط عذراً للتجوّل طوال اليوم والذهاب إلى أماكن لم أكن لأدخلها قطّ. الشيء الذي لم أعرفه قطّ هو

ما وجده بوتون في تلك الشوارع.

بعد ظهر أحد الأيام، تجاوزنا عتبة متجر أنيق حيث باعوا ملابس من النوع الذي يرتديه السادة النبلاء من أمثال الكابتن. توقّف بوتون قليلاً قبالة عدة أزواج من القفازات المعروضة.

"هل تعرف رجلاً في أيّ مكان هنا يحمل كنية مالوري؟ لقد عاش في هذا الشارع". اختلقت هذا وقلته للموظّف، وهو شخص من نوع أنيق كان يحدّق بالرعب إلى بوتون. "قد تتذكّره؛ إنه أميرال في البحرية".

ألقوا بنا إلى الخارج من فورهم، ولكن ليس قبل أن أتمكّن من اختلاس زوج من القفازات ووضعها في جيبي خفية. لقد كان بوتون يستحقّهم. منذ البداية، حتى أثناء العبور، شرحت له عمّا كنت أبحث، وقد عرض بإخلاص الذهاب معي. حتى عندما كنا نقضي اليوم كلّه في التجوّل، لم تتضاءل رغبته. أشياء مثل تلك التي أخبرتك عنها للتوّ لم تحدث مرة واحدة فقط ولكن عدة مرات. في الواقع، بعد وقت قصير من مغادرة الحيّ القريب من الواجهة البحرية، نسينا الخطّة المهمة التي كان هدفها العثور على منزل والدي في خضم اكتشافنا المستمر لأشياء جديدة.

وبعد ساعات، توقّفنا عند كشك امرأة كانت تبيع المحار أو تنظر إلى بعض الأطفال على المراكب على طول النهر، فجأة أخذني بوتون من ذراعي:

"العثور على الأب مهمّ جداً".

أومأت برأسي وتابعنا الانتقال إلى أماكن أخرى لم نكن نعرفها.

ذات مساء ذهبت وحدي إلى حانة -لأن بوتون لم يحبّ الحانات- وهناك حدث شيء، بلا شكّ، كنت أنتظر أن يحدث كما لو أنه سحر.

وسط الدخان والشتائم المزعجة التي كانت أمراً عادياً يصدر عن الرجال الذين يسلون أنفسهم، والذين دفعني كبريائي أن أتمنّى لو أكون بينهم، كنت أشرب على إحدى الطاولات وبالقرب مني رجل في حالة سيّئة لكنه كان متطفّلاً وثملاً نوعاً ما، كنت قد أخبرته أن والدي كان إنجليزيًا، فسألني عن كنيته.

فقلت له: "كان اسمه مالوري. ويليام مالوري".

فتح الرجل عينيه.

"ربما كان ذاك الرجل الذي انتهى به الأمر بالانضمام إلى البحرية؟" سألني متّكئاً إلى الطاولة.

"هو بعينه"، أجبت دون تردّد. ذهب الآلاف إلى البحر وما زال الآلاف يفعلون ذلك، لكن شيئاً كهذا لم يخطر على بالي حتى.

ضحك الرجل ضحكة ساخرة.

"مالوري! ويليام سكوت مالوري! هل تعرفه؟" صرخ قائلاً: "كنت أعرف هذا الوغد عندما كنا نتراكض أنا وهو في شوارع لندن! لقد دخلنا في الكثير من الشجارات معاً. كان كسبُ العيش في هذه الشوارع أمراً صعباً يا بني. ويليام سكوت مالوري، بالطبع. ما الذي حدث لابن العاهرة هذا ياولد؟".

"توفّي. قبل أكثر من عامين". قلت

هزّ الرجل رأسه بحزن:

"سيأتي دورنا عاجلاً أم آجلاً، نعم يا سيّدي. في السرير أو في الماء، لكنه يأتي". ثم سرعان ما استعاد مزاجه الجيد. "اعتدنا على ارتياد الحانات محاولين العثور على شيء، أي شيء نصادفه في طريقنا...".

تمسكت بكلماته. كان الرجل يزداد مرحاً في دفء مدفأة غير مرئية. قام بابتلاع نصف إبريق وضرب راحة يده بقوة على الطاولة.

"كان يثير قرفي وضجري بالحديث عن رجل اسمه ميلتون...! كان معتاداً على سرقة أشياء عديمة الفائدة، مثل الكتب. بحقّ القديس إلمو، يا لَها من عادة غريبة...!".

كان بإمكاني فقط أن أتمتم نعم، لا بدّ أنه كان والدي. عندها انتبه الرجل إلى نفاد صبري، وبدا أنه يتذكّر كلّ شيء فجأة، ثم بدأ قصة كان فيها شخص ما اسمه تشارلز مالوري، ويبدو أنه عمّ والدي.

"لقد عاش في مكان ليس بعيداً عن هنا، مع عمّه تشارلز، رجل عجوز مجنون تماماً يا فتى. أخذني والدك إلى مكان إقامته". أفتر صديقي الجديد عن ابتسامة كبيرة لقرصان طيب القلب، ذو فكّ بارز، وينقر على حلقه بهدوء. قال مشيرا إلى أباريق النبيذ الفارغة "الحديث يجعلني أشعر بالجفاف...".

ناديت القائم على الحانة. لم يكن أحد مهتمّاً بقصته، إلا أنا، وسرعان ما كان لدينا طاولة لنا. شرب رفيقي نصف إبريق آخر في جرعة واحدة.

"من المؤكّد أن الرجل العجوز كان هادئاً ولكنه كان رجلاً طيّباً جداً. كان من الممكن أن يموت سكوتي المسكين جوعاً دونه". أسند مرفقَيه إلى الطاولة، كان كل شيء مجهّزاً ليخبرني قصة أو ليبتكر واحدة، وكنت على استعداد لتصديق كل شيء ودفع ثمن جميع المشروبات اللازمة ليسمح لي بسماعها. أسدل عينيه قليلاً:

"لقد تُرك مالوري يتيماً عند الولادة تقريباً، وقام هذا العمّ تشارلز مالوري بتربيته. بدا أن الرجل العجوز كان مجنوناً بالكتب؛ لم أر شيئاً مثل هذا في حياتي كلها. لقد كانوا مكومين في كل زاوية. كنت أتخيّل دائماً أن حريقاً جيداً يمكن أن يشتعل هناك. كان يمكن أن يتحمّصوا وهم على قيد الحياة يا فتى، فلو لمستهم شرارة طائرة؛ لكانوا قد احترقوا، نعم، مثل حبال الكتان".

"ولكن والدي، ماذا فعل؟".

"ماذا يمكنه أن يفعل؟ كان عليه أن يطيع الرجل العجوز. يا ولد اعتاد والدك مالوري، أن يركض في الشوارع مثلي، ويبحث عن أي شيء، أي شيء يبقينا على قيد الحياة. كان ذلك طبيعياً، ولكنه كان يتلقى أوامر للحصول على بعض الكتب، لذا كان يسرقها. كان العجوز تشارلز أعمى تقريباً، فمنح والدك المأوى والطعام بشرط أن يقرأ له بصوت عالٍ. لذا كان والدك، منذ صغره، كأنه في أكسفورد، يقرأ كيفما اتفق في ضوء النهار أو على ضوء الشمعة. رغب العجوز دائماً بالمزيد من القصص والمزيد من الكتب. لا بدّ أن سكوتي كان في عمرك عندما مات تشارلي العجوز. ثم ذهب إلى البحر ولم أره بعدها...

لا أعرف كيف أصف الإثارة التي أحدثها هذا الاجتماع في داخلي. فقد جمع صديق مالوري المفترض أجزاء قصة توضح لي أشياء كثيرة.

"قرأت أنا ووالدي العديد من الكتب معاً، انظر" ثم بدأت بالتفتيش في حقيبتي وسحبت ما حصلت عليه بعد ظهر ذلك اليوم نفسه. رفعت كتابين صغيرين: "بجعة آفون!"، ثم أضفت بحذلقة غبية أشعر بالخجل منها الآن: "لقد أحبّ بن جونسون لكنّني...".

"هذا هو، هذا هو". قاطعني الرجل وهو يرجع كرسيه للخلف. "كان ذلك مالوري يا فتى". نظر إليّ متضايقاً، يرمش

بعينه ويلوي فمه، كما لو أنني كنت أمسك فأراً ميتاً لا كتبًا أمامه. تأمّلني. أخبرتني عيناه بما كان يفكر فيه: كيف كنت! هل كنت بنظره مجرد غرّ متباهٍ تافه، مع كل حديثي الكبير عن الكتب في حانة متواضعة للأشخاص المتواضعين؟ علّق إبهامَيه بالحبل الذي كان يرفع سرواله. كان لديه ما يُسمّى بطن بارز. اقترب قليلاً ونظر إلى الإبريق.

"يا ساقي الحانة!" صرخت.

"نعم... أستطيع أن أراه تقريباً"، تحدّث مرة أخرى في مزاج مرح. "ويليام سكوت مالوري العجوز الطيب! كان يذهب من طاولة إلى أخرى ويقرأ ويتحدث عن بن جونسون. ما زال في ذهني". قال مشيراً إلى جبينه. "كيف استطاع أن يشعرنا بالملل من بن جونسون هذا وجون ميلتون! لقد كنّا أصدقاء رائعين يا فتى. دعني أخبرك بشيء: نعم، أنت تشبهه...".

شعرت بعقدة في حلقي فتجرعت جرعة معتبرة. فعل مرافقي الشيء نفسه. كان وجهه بنفسجيّاً. كان يضخ الهواء إلى رئتيه.

"ذات مرة، أتذكّر الآن، مرة، في أحد تلك الأحياء الغنية، ظل محبوساً طوال الليل في مكتبة عامة. كان قادراً على الفرار ومعه بعض الكتب. كان تشارلي العجوز سعيداً جداً لدرجة أنه كاد يموت... هكذا كان، تشارلز مالوري العجوز، جدّك يا فتى".

"عمّ والدي"، قلت بقدر ما استطعت من وضوح.

"هو ذاته".

شعرت بدوار خفيف لكنني كنت سعيداً وراضياً وشجّعني مزاج رفيقي الجيد، كنت على استعداد لطلب إبريق آخر. لكن القدر لم يشأ أن تنتهي تلك الليلة بطريقة سلمية. كما لو أنه بسبب ذكرنا المتكرر لها، فقد جعلتنا روح مالوري نشعر بها، فتحول المساء إلى جدال محتدم. في الواقع، وفي اللحظة الأقل توقّعاً، في خضمّ الدخان الكثيف وجوّ المكان الثقيل، وقف شخص فجأة في مكان ما، ولسبب ما بدأ يهين صديقي الذي كان في هذه المرحلة في حالة سكر شديد تمنعه من الوقوف.

أمسك به الغريب من رقبته ونعته لصاً بأعلى صوته، من بين افتراءات قبيحة أخرى عدّها موجهة إليّ، فلم أكن أقلّ سكراً منه. سرعان ما تشكّلت دائرة في خضمّ فوضى الطاولات المقلوبة وأباريق تحلق في الهواء. لا أعرف كيف وجدت نفسي في الوسط، وعلى ما يبدو مصمّماً على التضحية بحياتي من أجل صديق مالوري الذي أظهر علامات بأنه تعرض للإهانة، لكنه كان في عجلة من أمره للوصول إلى الشارع. في هذه الأثناء، قام الرجل الذي اتهمنا بسرقة لم أكن أعرف عنها شيئاً بسحب سكين. نتج عن هذه الخطوة صمت مؤقت بين الحاضرين، وكان لها أثر كبير عليّ ساعدني على تصفية

ذهني إلى حدّ ما. كان لديّ ما يكفي من الوقت لسحب سترة من الجزء الخلفي من كرسيٍّ وألفه حول ذراعي اليسرى مثل المعطف. قبل أن تتاح لي الفرصة للتفكير، قام الرجل المتوحّش -الذي حاول توجيه عدة طعنات إليّ، الله يعلم كيف تجنّبته- لكنه جرح ذراعي فوق الكوع. بعد دقيقة انتهى القتال: قمت بتصويب زجاجة إليه، ووجهت ضربة مخادعة إلى معدته وحطّمت الزجاجة على رأسه. كان هناك هتاف هائل في كلّ مكان. سكبوا الجنّ على جرحي، ولفّوه بشكل ملائم نوعاً ما بين الهتاف والويسكي.

عانقني صديق مالوري، ووضع رأسه على كتفي:

"مثل أبيك، يا ولد! أين تعلّمت الدفاع عن نفسك بهذه الطريقة؟ تماماً مثل والدك!" استمرّ بقول ذلك. بعد ساعات تركت الحانة في حالة سكر كرب، وأغني كلمات عدائية بأعلى صوتي، متمسّكاً بصديقي الجديد حتى لا أقع.

لدي الآن شجرة عائلة.

تم أخذ بوتون إلى المدرسة التي في الريف. بقيت وحيداً، فقضيت القليل من الوقت في مسكني. في الليل خرجت بشكل لا إرادي. هناك سادت جلبة وشغب يصمّان الآذان، فقد حلّت الساعة التي كانت تزدحم فيها الحانات بالبحارة والتجار واللصوص والعاهرات. أثارتني الحشود المضطربة والفوضوية، وانبعث في

داخلي مزاجٌ سعيدٌ من المستحيل أن أشرحه. كنا جميعاً غارقين في الرائحة الكريهة للدفء الإنساني ذاته، مما جعلنا نعتقد في أن الليل سيستمر إلى الأبد. فبدلاً من أفق البامبا الصامت والممل، شكّلت كومة من الأجساد والوجوه كياناً واحداً متعدّداً عالقاً في الهيجان نفسه. في وقت لاحق، سيعيد ضوء الصباح البارد تلك الأماكن والشوارع النائية إلى طبيعتها الحقيقية. في هذه الأثناء، على بعد خطوات قليلة من مياه نهر التايمز الهادئة، ولبضع ساعات يمكن للمرء أن يتجاهل المعرفة المريرة بأن الحياة كانت فخاً، والقليل من الناس استطاعوا الهروب منها. خلقت هذا الفورة اليائسة هالة نابضة، هالة من البؤس، مثل شرر القديس إلمو[1] فوق الصواري أثناء العاصفة. كان مكان التقاء أولئك الذين تمكّنوا من البقاء على قيد الحياة بأفضل قدر ممكن، وأولئك الذين ليس لديهم شيء ليخسروه، وهم سلالة أذهلتني خسّتها وقبحها، لأنني بدأت أعلم، سيد مكدويل أو مكدونيس، بطريقة لا أستطيع أن أشرحها، أنهم يعبّرون فقط عن الحالة الإنسانية. لم تُر هذه عند القبطان، أو ربان السفينة، أو السادة ذوي البشرة المتورّدة الحليقة ممّن يرتدون البذلات اللائقة الأنيقة، ليسوا المعلمين الذين تلقّوا تعليماً جيداً أو السيدات المتغطرسات اللواتي تحدّث معهن الرجال، ولا اللواتي زرن منزل الكابتن ليشربوا الشاي على الشرفات. الحالة الإنسانية لم تُر هناك، ربما بسبب العرض المفرط للملابس أو الأناقة أو الثقافة.

---

(١) شرر القديس إلمو: هو عبارة عن تفريغ كهربائي مضيء خفيف إلى متوسّط يظهر في الجوّ على شكل نارة تنبعث من أجسام مرتفعة كمانعات الصواعق وصواري السفن.

عندما كنت أسير في شوارع لندن، تائهاً في الحشد الكبير، في هذا التدفّق المجهول للأجساد، وقد شربت بلا شك الكثير من النبيذ، أودّ أن أقول لنفسي: لكن ألم يكن القبطان -أيضاً- رجلاً، إضافة إلى ذلك رجل متعلّم محترم؟ ألم يخترع أداة للكشف عن العواصف في البحر؟ ألم يقرأ الكتاب المقدّس لطاقمه من أجل العزاء؟ ألم يكن ذلك شيئاً إنسانياً، أو لمنفعة البشر، ومن ثَمّ، ألم يضع ذلك الكابتن في الفئة التي شعرت أنها تمثّل "الحالة الإنسانية"؟ بطريقة ما، بالنسبة للصبي الذي كنته في ذلك الوقت، لم يشكّل هذا إجابة. بشكل تعسّفي، شعرت أن الكابتن كان ثرياً جداً، ومؤثّراً، ومتعلّماً جداً. في الشوارع، الحانات، أكشاك في الشوارع، على متن السفينة، يمكن للمرء أن يرى وجوهاً وحشية ومتدهورة، هذا صحيح، لكن هذه كانت أماكن حيث يمكن للمرء -أيضاً- رؤية وجوه قادرة على فهم كل شيء، وعلامات غير عادية للتضامن والشعور الأخوي الذي أشرق كالحجارة المصقولة في حفرة الطين. كنت مقتنعاً أنه إذا تعرضت أية من هؤلاء السيدات والسادة العظماء في لندن الأخرى، التي تضمّ المسكن الفاخر الواسع، إذا تم إلقاء أي منهم في هذه الشوارع دون ممتلكاتهم، دون أيّ شيء سوى ما لديهم، مثل أي واحد منا، لكانوا قد وصلوا بسرعة إلى تلك الحالة القصوى التي تقتضي بهم الحاجة للتمسك بالبقاء. ومع ذلك، إذا كان هؤلاء السكارى أنفسهم، هؤلاء البغايا، وهؤلاء المتسولون، الذين شعرت فيهم بحالة الإنسان الحقيقية، قد وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع بوتون ورفاقه عارين في

كيب هورن، لكانوا سيرجمونهم، بلا شكّ، ويدعونهم أكلة لحوم البشر، دون أن يهتمّوا بوجود فتاة صغيرة بينهم. كانوا سيقودونهم إلى البحر، معتقدين أن لهم الحق في القيام بذلك بسهولة لأنهم شعروا بالتفوق.

الإمبراطورية، يا سيّد مكدويل أو مكدونيس، لا يسعها إلا أن تعيد إنتاج نفسها. إن السلطة تولد العقول الشريرة التي تسيء معاملة المحتاجين في جميع أنحاء العالم. هذا شيء لا يمكن أن يقال أبداً عن اليابانا أو بوتون وأبنائه، الذين عُدّوا المحرّضين على المذبحة التي حوكموا من أجلها في الجزر، ولهذا أرسلتم لي رسالتكم. هم الأكثر حاجة في تييرا ديل فويغو. إنهم يعيشون ويناضلون للبقاء على قيد الحياة ونضالهم متواضع وطبيعي، بل ويمكنني القول بُطولي في تلك الأماكن المقفرة. تأتي حياة مجتمعهم قبل الفرد، ومن ثم فلا مجال للخداع أو الاستغلال أو الرفض. قال لي بوتون ذات مرة: إن الشيطان غير موجود في بلادي.

الليلة صعد تأثير النبيذ إلى رأسي. ولم يكن نبيذ الحانات الذي شربته في شبابي، ولكن ذاك الموجود على هذه الطاولة وحيداً وسط سهول البامبا. الكتابة والنبيذ لا يسيران جنباً إلى جنب؛ فالكحول يبالغ في رؤية الأشياء، ويشوّه الصور. من الحكمة أن أتوقّف عن الكتابة الآن وأن أدع البلاغة لترتاح وتنام.

كانت غراسيانا نائمة في سريرها. على ضوء الشموع، برزت وحشية شعرها الأشعث معاكسة للسلام الطفولي في وجهها...

كل ذلك بسبب النعاس أو بسبب جسدها البناتي.

ذات صباح ظهر الكابتن بشكل غير متوقّع في النزل بالقرب من الواجهة البحرية. لم أخرج عدة أيام، منذ فورة الشرب المسرفة والعراك. على ما يبدو بسبب قلقهم على صحتي، نصحني بعض الرفاق الذين عاشوا هناك أو في أماكن قريبة، بالتأنّي، فقد كان الكابتن ضد التجاوزات وإذا كانت هناك رحلة أخرى فقد تفوتني. كان لهذا تأثير سحري في تهدئتي. قضيت وقتي في قراءة ما حصلت عليه.

كانت غرفتي نفسها كئيبة، لكن الاضطراب العام حوّلها إلى مخبأ يتناسب مع هلعي. في المدخل ذلك الصباح، قام الكابتن بتكشير أنفه مشمئزًا؛ بدا أفضل وأصبح أكثر أناقة من أيّ وقت مضى. وقفت على قدمي.

"لقد بقيتَ بين الهمج فترة طويلة حتى أصبحت واحداً منهم. سأكون في الطابق السفلي في غضون ساعة، وأريدك أن تذهب معي".

بعد ساعة، اغتسلت، وأرتديت ملابس لائقة، حتى إنني

قمت بحلاقة شعري سريعاً بعد أن وافق صاحب الحانة السمين على قصّه. جلست بجانب الكابتن، الذي أمر حوذيه:

"إلى الأميرالية".

عبرنا إلى المدينة الأخرى، جميعنا مع الحمولة، ودخلنا إلى مبنى مثير للإعجاب. فتح لنا الباب خادم يرتدي بزّة. بدا الكابتن متوتّرا. المفاوضات الصعبة جعلته يأتي ويذهب من منزله في الضواحي إلى هذا المبنى، الذي كان مركز جميع مشكلاته. كان ينتمي إلى عائلة دائماً ما شكّلت جزءاً من الدائرة الأكثر تأثيراً في السياسة الإنجليزية، لكن الكابتن فضل البحر. لم تكن حركته مريحة بين مؤامرات القصر والسلطة. في رأيي، وجده الرجال على الجانب الآخر، الذين تعاملوا مع السياسة، متكبّراً جداً وغير مرن.

انطلاقا مما أخبرني به أثناء رحلتنا القصيرة، كان يحاول الحصول على إذن للإبحار إلى تييرا ديل فويغو مرة أخرى. كان قد قرّر إعادة اليامانا لكنه لم يخبرني لماذا. وأوضح أنه كان يتوقّع دعماً رسمياً لأشهر، ولكن إذا لم يحصل عليه، فسيمول العبور بنفسه.

مكثت في رواق أنظر إلى الأرضيات الرخامية والدرابزين والدَّرَج الذي كان يمكن لطاقم سفينة كاملاً أن يمشي عليه جنباً إلى جنب. لقد رأيت -أيضاً- العديد من مكاتب موظّفي الجيش البريطاني الفرعية -ربّما مثل المكتب الذي تشغله،

يا سيّد مكدويل أو مكدونيس- والذي وافق أحد المرشدين أن يريه لي بعد أن شعر بالإطراء من إعجابي. بعد برهة، خرج الكابتن. أحاطت به مجموعة من الرجال، بعضهم يرتدون الزي العسكري وبعضهم الآخر يرتدون ملابس مدنية. كانوا يتحدّثون بنبرات منخفضة. تقدّمت المجموعة كموكب، مع الكابتن في وسطهم. بدا أنه مستاء للغاية، إضافة إلى أنه بدا غاضباً. كان بصعوبة قادراً على الاستمرار بالتصرّف بشكل لائق. لم أستطع التوقّف عن النظر إليهم بعين الفضول: لقد كانوا جبابرة هذه الأرض. لم يبهروني كثيراً. كانت مشيتهم البطيئة في الممرات، بين المرشدين الذين انحنوا لهم، مصحوبة بالهمسات. أدركتُ أن القصد هو إرضاء الكابتن لمنعه من المغادرة بغضب؛ لا بدَّ أن يكون ذلك امتيازاً استثنائياً تم منحه فقط لأبرز الزوّار. لم تبدد هذه البادرة مزاج الكابتن السيّئ، وما إن ركب العربة، حتى حبس نفسه في صمت جليدي.

قبل دقيقة من نزولي إلى النزل، أخبرني، كما لو كان يتحدّث مع نفسه، أنهم رفضوا طلبه. فقد استحوذ الشرق الأقصى في الوقت الحالي، على كل اهتمامهم، ولم يكن لدى الأميرالية الوقت ولا المال لمنحه من أجل تييرا ديل فويغو. وأدنى من ذلك، لثلاثة متوحشين.

رأيت لندن خزانة مليئة بالهدايا المدهشة. قابلت النساء في

الحانات، لكن في إحدى الليالي التقيت بإيزابيلا.

كنت في حالة سكر تام حين اقتربتُ من امرأة شابّة، فشربنا معاً ثم صعدنا إلى الطابق العلوي، لا أعرف كيف، وتوجّهنا إلى غرفة وسرير، فرأيت نفسي، كما هو الحال في حُلم ممتع، أكرر مشهداً مألوفاً في حياة مالوري. كان الأمر سريعاً وغير متوقّع لتلك الدرجة. ألفيتُ نفسي جالساً على سرير، حيث كاد رأسي يلامس السقف الذي كان منحدراً إلى الأسفل. كنت أنظر إلى امرأة تخلع ملابسها، امرأة قدّمت لي على ضوء الشمعة جسداً جميلاً ورقيقاً بشكل مذهل. أتت عارية إلى حيث كنت جالساً، تقدّمت ببطء، سامحة لي بالتحديق إليها بينما كانت بدورها تحدّق في وجهي بعينين ضاحكتين. كانت بشرتها ناعمة ودافئة، لدرجة أفقدتني القدرة على الكلام مكتفياً بحاسة اللمس. رمت نفسها عليّ في السرير، همست لي برقة إنني أستطيع أن أفعل بها ما أشاء، يمكنني أن أضربها إذا رغبتُ بذلك. إذا أردت، بإمكاني جلدها والقيام بأشياء أخرى لا أتذكّرها، لكنها صعدت إلى رأسي بشكل أسرع من النبيذ. كانت تتوق لإرضائي، وفي الوقت نفسه كانت مراوغة، كانت عاهرة تمارس الحبّ من أجل المال، لكنها كانت أغلى هدية تكرّمت بها المدينة عليّ، المدينة التي أقسمت في تلك الليلة أنني لن أغادرها أبداً.

أمضيت أربعة أيام مع إيزابيلا. أنا لا أكذب، سيّد مكدويل أو مكدونيس، عندما أقول لك إنها من الذكريات الجميلة

القليلة في حياتي. لقد كانت سخية وكنتُ كريماً، كان صبي التوصيل يصعد وينزل الدرج ليزودنا بالطعام والشراب، أعتقد أننا كنا عراة طوال هذا الوقت. عند الفجر، مستلقياً على السرير، وأذرعنا ووجوهنا ترتكز على نافذة تلك العلية، كنا نطيل النظر إلى الشوارع المهجورة وأسطح ذلك الحي البائس، وإطلالته الخاصّة الغامضة تحت نور القمر. في هدوء تلك الأصباح، أخبرنا بعضنا بعضا عن قصة حياتنا. من جهتي، بالغت في بعض الحقائق وأضفت التفاصيل التي جعلتني أبدو جيداً؛ كان الشعور الصادق فيما بيننا هو السعادة، واقتصرت الحياة على هذه الغرفة وإيزابيلا، كان يمكن أن ينهار كل شيء خارج هذه الغرفة دون أن يرمش لي جفن. أمّا بالنسبة لها، فلم تكن قصتها بحاجة إلى الزخرفة. كانت في السادسة عشرة من عمرها، وقد ربتها جدتها، التي ورثت اسمها، ولكن أطلقوا عليها اسم الفينيسية.

كنت جالساً مثل بربري على السرير غير المرتب، وشعرها الداكن على ثدييها الأشبه بالخزف، أخبرتني، كما لو كانت حكاية خرافية، ما قيل لها منذ وعت على الدنيا. كانت الفينيسية امرأة جميلة، قيل إنّها كانت ابنة دوق. قالت إن منزلها كان قصراً استطاعت وهي فيه رؤية القوارب تتأرجح في القناة الكبرى، وقالت إنّه كان لديها أربعون خادماً وملابس فاخرة، وأنها كانت مخطوبة لأمير، وسافرت إلى الكنيسة عن طريق الماء. الأثر الوحيد لتلك الحياة كانت حجراً كريماً، نظرت إليه بعناية

-جعلتني إيزابيلا أقرّب وجهي من ضوء الشمعة بينما كانت تحمل قلادة صغيرة- يمكن للمرء أن يرى فيها تاجاً معلقاً وتحته نقش غير مقروء. اختطفها قراصنة البحر الأدرياتيكي[1] في سنّ الرابعة عشرة. بعد أن تم بيعها لعدة سفن أصبحت إيزابيلا الأخرى العشيقة المفضّلة لكوك، الملاح الشهير، وأبحرت معه برحلات طويلة. في التاسعة عشرة من عمرها -أصبحت معروفة جيداً في الموانئ باسم الفينيسية- تُركت إيزابيلا الكبيرة في بليموث، ومنذ ذلك الحين تمكّنت من تدبّر معيشتها، بطريقة أو بأخرى، حتى وصلت إلى لندن.

قال الجميع أنها كانت مجنونة، لكنها كانت محبوبة لقلبها الكريم وكان الجميع معجباً بمزاجها. أنجبت ابنة من والد مجهول، وعندما اضطرت لتربية حفيدتها -أيضاً- أحضرتها وأسمتها إيزابيلا؛ لأن والدتها توفّيت أثناء الولادة. كانت الفينيسية معتادة على الذهاب في جولات على الحانات المحاذية للماء، وكانت تأخذ حفيدتها معها. كان الرجال بالنسبة لها شيئاً آخر، مجرد مهنة أو وسيلة لكسب العيش، أمّا أكبر عيوبها فكان تدخين السيجار الذي تعلّمت تدخينه في رحلاتها مع كوك إلى جزر معيّنة تغلب على أجوائها الحرارة الشديدة والسماوات الشديدة الزرقة والصفاء، لدرجة أن إيزابيلا الصغيرة لم تكن قادرة على تخيّلها. كما كانت عاجزة عن تخيّل كيف كانت تبدو الشجرة التي تسمّى شجرة النخيل.

---

(١) البحر الأدرياتيكي: هو أحد فروع البحر المتوسط الذي يفصل شبه الجزيرة الإيطالية عن شبه جزيرة البلقان.

في تلك الجزر المتوحّشة، كانت الفينيسية تخبر حفيدتها، أنها كانت تمشي مع كوك نصف عارية على طول الشاطئ، تدخّن السيجار وتنفث الدخان في الهواء الملتهب. في خيمة منصوبة على الشاطئ، على ضوء المشاعل كان طاهي السفينة يحضر حساء السمك الموصى به لخصائصه المنشطة جنسياً.

أرادت إيزابيلا معرفة ما إذا كان هناك سيجار وأشجار نخيل في المكان الذي أتيت منه.

ولجعلها تستمر في الحديث ولا تتركني، اخترعتُ أشياء لم أرها من قبل. جمعت رجال الغاوشو على ظهور الخيل مع البرازيليين الثلاثة أو الأربعة الذين صادفتهم في حياتي، وجعلتهم جميعاً يدخنون سيجاراً ضخماً، وأخبرتها أنني أرغب في مقابلة الفينيسية. ضحكت إيزابيلا. التقيت بها بالفعل. كنت في حالة سكر حتى إنني لم أكن أتذكّرها. كانت الفينينسية صعبة للغاية في اختيار الرجال من أجل معاشرة إيزابيلا الشابّة. لسبب ما، بدوت لها زبوناً مناسباً، وبعد ذلك اختفت، بعد التأكّد من أنّ لدي المال للدفع.

أردت أن أعرف ما الذي حصل مع كوك.

ذات صباح انتهت الجنّة مع كوك بأشياء فظيعة، حيث تذكّرت منها الفينيسية ثلاثة أشياء: جسد البحار الذي لا حياة فيه وهو محاط بمتوحشين غلّفت أجسادهم الوشوم، هروبها إلى السفينة مع أولئك الذين نجَوا، واسم غريب نطقت به

إيزابيلا بتوقير وخوف: كالاكوا.

نمتُ أثناء اليوم الخامس. عندما استيقظت، اختفت إيزابيلا وأخذت معها القليل الذي كنت أمتلكه.

يبدو ذلك منطقيًا بالنسبة لي، فهذه هي الطريقة التي انتهيت بها في إنجلترا من إنفاق النقود الفضية التي كانت أجور مالوري العسكرية عن غزوة فاشلة. لقد كانوا ميراثي، وقد أنفقتهم للتو بطريقة ربما لم تكن لتزعجه.

لعدة أيام وما زال، كانت هذه القصّة تشدّني. وتركت الأوراق فقط لأكل شيء بناءً على إصرار غراسيانا التي سألتني إذا كنت مريضاً أمَ لا، ولأنام في أوقات الاستراحة، ولأستلقي بلا مبالاة في سريري.

الكتابة لها آثار غريبة، سيد مكدويل أو مكدونيس. مدفوعاً بما أخبرتك به قبل بضعة أيام، أول أمس أسرجت حصاناً فعدا بي إلى المتجر. أردت أن أرى الرجل العجوز. كان هناك كالمعتاد، في زاويته بين الجدار الخلفي والطاولة. كانت أصابع قدمَيه بلون الأرض الترابية، محنّطة، بارزة من حذائه المصنوع من جلد الخيل. بصعوبة تستطيع عيناه الهزيلتان الصغيرتان الرؤية، ولم أعرف ما إذا كان يتذكّرني.

ردّاً على سؤالي، بقي صامتاً. وعندما ظننت أنه نسيني

بالفعل، صدر صوت صرير صغير من حلقه.

حدّق في الهواء قائلاً: "الرائد... أنا متأكّد بما فيه الكفاية. منذ سنوات عديدة، حوالي عشرة أو اثني عشر، بنى منزله. وأحضر إليه امرأة. كان الغرينغو شيئاً يجب رؤيته في الريف... ذهب إلى سهول البامبا للقتال مرتدياً ملابسَ مثل ملابس الإنجليز".

وسكت... ثم أضاف:

"يا له من مشهد".

طلبت مشروبًا آخر لكلينا وأشعلت غليوني. في الداخل كانوا يعدّون الحساء. مكثتُ طويلاً بينما كنت متكئاً على مرفقي إلى جانب الرجل العجوز، أراقب من الباب حلول الليل وإشعال مصابيح الزيت. نسيت كل شيء، حتى سمعت مرة أخرى صوت الصرير الصغير.

"هل كنت تعرفه؟".

توقّفت للحظة قبل أن أشعر بهذا الوجه المحفور بالتجاعيد، حيث كانت عيناه القلقة الصغيرة تراقبني بطريقة ما.

"لا"، قلت أخيراً. "في حقيقة الأمر، لم أعرفه".

عندما عدت، كان الظلام دامساً. سرتُ دون توقّف. بعيداً، أضاء القمر سطح البحيرة.

مرّت أسابيع فشعرت بالإحباط. فما قاله الكابتن جعل مستقبلي ومستقبل اليامانا غير مؤكّد. افتقدتهم جميعاً، وخاصة بوتون. ومع مرور الشهور، بدت لندن موحشة، وكلّ شيء وجدته مثيراً في البداية جعلني حزيناً الآن. فلم يكن لدي أحد هناك باستثناء زملائي في السفينة. لم أجد شيئاً، ولا إشارة إلى المجد الشخصي الذي ظهر على سطح السفينة أحياناً، عند مشاهدتي للغيوم التي تدور فوق القمر، فالصبي الذي كنته آنذاك تخيّل أنّ العالم يخبّئ له هذا المجد. ما كنت لا أعرفه على وجه اليقين، لكنني كنت آمل أن أكتشفه في هذا العالم الجديد، كان في عالم الحضارة هذا. غرقت في حالة من اللا مبالاة. لا شكّ أنني شعرت بالوَحدة وأردت أن أرى بوتون، ابن بلدي الغريب، مرة أخرى.

في أحد الأيام، قمت بتعبئة حقيبتي، واستأجرت حصاناً، وغادرت إلى المدرسة في الريف.

لم تعجبني هيئة بوتون العامة، فقد تغيّر، وأصبح أكثر نحولاً، وكان متأمّلاً. إما أنه فقد، أو كان يخفي ميزة التواصل التي كانت صفة مميّزة للغاية له، وقد حبس نفسه في صمت قاسٍ لم أستطع اختراقه. شيء لفت انتباهي: تحدّث بهدوء شديد، تقريباً هامساً. لقد علّموه كيف يركب الخيل، لكنه لا يحبّ الخيول -في حين أن الكلاب تتبعه في كلّ مكان.

مشينا بلا هدف في الريف الذي امتدّ حتى الأفق في التلال

الخضراء المتموّجة بلطف. كنّا في الربيع، وكان هناك إشعاع في الهواء بدا رائعاً بعد لندن. في وقت متأخّر بعد الظهر، امتلأت السماء بالغيوم وهطلت الأمطار الغزيرة. كان عليّ أن أتوسّل إليه عدة مرات للعودة إلى المنزل. أعدَّت زوجة المزارع الشاي لنا، فأخذناه إلى غرفة بوتون. لم يكن هناك شيء أكثر إثارة للشفقة بالنسبة لي من مشهد تلك الغرفة التي لم يتمكّن مظهرها اللائق أن يخفي فقرها. سرير حديدي وكرسي وطاولة مع إبريق، كان هذا كل شيء. انحدر السقف المعلّق على جدار مخزن الحبوب، إلى حواف السطح، حيث جفّت المياه. أشرفتْ نافذته الوحيدة الضيقة على الحقول، وأدخلت ضوءاً رمادياً غامقاً سلّط سطوعاً غامضاً على الغرفة وعلى وجوهنا. في الخارج، على بعد حوالي مئة متر على المنحدر، بدأ الريف الإنجليزي الرطب ينحدر ببقع الغابات الداكنة. وقفنا على جانبَي النافذة، بهدوء نراقب المطر.

"وولايا، يا جاك. تييرا ديل فويغو".

أجفلني صوته.

"الأب، الأم، الإخوة". نظر بوتون إليّ، فوقفت باستقامة.

"أفهمك. أنا -أيضاً- أريد أن أعود".

"متى؟".

"لا أعرف. القبطان قلق على هذا الأمر، ويعمل على

تنفيذه. أنا متأكّد من أنه سيحدث قريباً".

أردت أن أقول شيئاً لرفع معنوياته، لكنني شعرت -أيضاً- بأنني محاصر برتابة تلك الظهيرة ولم أكن أعرف ماذا أقول. عند وقت الغداء، قالت زوجة المزارع أنها دُهِشتْ من الرحمة التي أثارها المرضى في نفس بوتون. حدث هذا في نهاية الشتاء عندما أصيب صاحب المنزل بمرض الالتهاب الرئوي. فاعتنى به بوتون بإخلاص، وبقي مستيقظاً ليلةٍ بعد ليلة يراقب نومه.

"تقول السيّدة إنك تشعر بالأسف الشديد على المرضى؛ هل ستصبح طبيباً يا جيمي؟".

ندمت من فوري. فقد كان سؤالاً غبياً. لقد عاملته مثل طفل، أو أسوأ، مثل شخص متخلّف نكتشف فيه مهارة غير متوقّعة.

"طبيب" ضحك علانية أول مرة. "لن أصبح طبيباً أبداً يا جاك".

كان هذا الصبي بعمر السادسة عشرة أو السابعة عشرة حقيقياً أكثر من أي شخص قابلته في لندن كلّها. لم أكن أعلم سوى القليل عمّا كان يمرّ به، لكن هذا القليل أثارني. كان عليّ استعادة ثقته التي لم تعد هي نفسها التي وحّدتنا خلال العبور وجعلتنا نتجوّل حول شوارع لندن أثناء الأسابيع الأولى.

"في وولايا، الجميع يعتني بالمرضى. إنها التعاليم يا جاك".

"التعاليم؟".

"نعم. تعاليم القدماء. ما تعاليمك؟".

كنت في حَيرة من أمري. ربّما أساء بوتون فهم كلماتي. فكّرت في الأمر ولكن لم يكن لدي أي قدماء قريبين. إلى جانب ذلك، فالتحدّث مع بوتون عن الأشياء التي علّمني إياها مالوري لن يكون له أي معنى.

"تعلّمت ترويض الأحصنة، تربيتها في قطعان، اصطياد ثعالب الماء، وتوجيه السفينة...".

استمر بوتون في هزّ رأسه، كانت ابتسامته القديمة تعود للظهور.

"غيفارا لا يفهم، عليه أن يتعلم".

ثم تحدّث عن انطباع سيّئ للغاية تسببتُ فيه خلال أيامه الأولى على متن السفينة، وكيف كان "مهذّباً وصبوراً جدّاً" معي.

لقد تفاجأت، بل وشعرت بالانزعاج. كنت غير مرتاح لأنني كنت موضع مراقبة ولم أكن أعرف ذلك حتى. لكن نظرة بوتون عادت ودودة مرة أخرى ممّا جعلني أطلق ضحكة كبيرة.

"إذن، لم أترك انطباعاً كبيراً. كان يجب أن تراني أقشّر البطاطا أو أنظّف سطح السفينة...".

"ما هي تعاليمك؟" أصرّ بوتون على سؤاله.

أجبت منزعجاً قليلاً: "ما هي تعاليمك أنت، أودّ أن أعرف".

بقي صامتاً لحظة. نظر إلى عيني مباشرةً. كان يفكّر في قرار كان يصعب عليه اتخاذه. تحدّث أخيراً. "سأخبرك بالقليل فقط، يا جاك. إنها أشياء يعلّمونها لك، في مكان سري من الغابة أو الجزيرة، في الكوخ الدائري الكبير، ولا تخرج من ذلك المكان أبداً. قبل ثلاث سنوات دخلت الكوخ الدائري الكبير. لدى شعب اليامانا، يتعلّم الشبّان والشابّات الصغار: أن الجسم يصوم أياماً عديدة، وأن الرأس له سلطة على الجسم. المقاومة والطاعة. التعليم... صعب"، توقّف بضع ثوانٍ ليبحث عن الكلمة الصحيحة. ثم تابع: "شديد، شديد جداً. إنه سرّ كبير، لكن جاك صديقي". مدّ يديه وأمسك بساعديّ فوق المعصمين. فعلت الشيء نفسه بسرعة.

قال "أوموي لوم".

"أوموي لوم؟".

"لست جيمي بوتون. اسمي أوموي لوم".

ثم جلس القرفصاء كما لو في بلده. طغت علينا همهمة المطر الثابتة؛ بهت ضوء العصر الرمادي حتّى تلاشى وحوله إلى صورة ظليلة دون وجه.

"بعد أيام من اختبار الجسد، عندما يغمر الليل السماء ويسود الصمت في الجبال والمياه، بشكل كبير، يوجّه المعلم القديم

العظيم، إشارة، والشباب الجالسين في دائرة يستمعون: أهمّ من ذلك كله، يجب أن يكون الرجال والنساء جيدين ومفيدين للمجتمع. يجب أن يكون لكل رجل وكل امرأة سلطة على نفسه أو نفسها"، اتخذ صوت بوتون عمداً نبرة جليلة؛ كان يركّز قدر الإمكان حتى لا تخذله الكلمات. "تعلّم أن تتخلّى عن كل فائض. يجب على كل واحد منّا، رجل أو امرأة، أن يظهر أكبر احترام لكبار السنّ. فكبار السنّ يعرفون كيف يبنون الأكواخ والزوارق، كيف يقاتلون الحيتان، سيساعدونك لتعيش، سيواسونك، وسيخبرونك عن الأسلاف. عندما يقوم أي رجل بإهانتك، لا تفعل أي شيء، تحدّث بمفردك مع الشخص الذي أساء إليك عندما يهدأ كل منكما. فكّر: لدى الآخرين مشاعر مثلك تماماً. ساعد الأيتام، خذ الطعام للمرضى، اعتنِ بالغرباء أولاً، عندما تصطاد سمكة كبيرة، يجب عليك مشاركتها؛ احتفظ بالجزء الأصغر لنفسك. الأطفال ينتمون إلى الجميع، اعتنِ بهم، ساعدهم، لا تعاقبهم أبداً: لقد كنتَ ذات مرة طفلاً، عندما تتزوّج، ساعد زوجتك واهتمّ بالماء، الأشجار والأسماك والحيوانات ملك للجميع. لا تقتل لمجرد القتل. أشعل النار في الليل لإبقائك دافئاً ولا تدعها تنطفئ".

توقفَ عن الكلام.

"هذا لا يخصّ الرجال البيض"، قال في العتمة. "منذ فترة طويلة، والتعاليم تتحدّث عن البيض. تحدّث والدي ورجال آخرون عن الأشياء التي اعتاد الرجل الأبيض القيام بها؛ عندما

عاد البيض، انتقم مواطنو بلدي. تقول تعاليمنا حول البيض إننا يجب أن نخاف منهم وأن نبتعد عنهم، لأنهم يأتون للسرقة واغتصاب النساء والفتيات الصغيرات اللواتي لم يصبحن نساءً بعد. يقولون إنّهم يقتلون، يذبحون قطعان الفقمات، والرضّع والأمهات؛ إنهم يدمّرون كل شيء. الدخلاء لا يعرفون شيئاً عن الطبيعة. الكلمة الأخيرة التي تركها أبي وآباء الآخرين والأسلاف: لا يجب على البيض الأشرار أن يستقروا هنا في أرضنا".

علقنا في الصمت في ذلك الظلام. كانت النافذة المستطيلة المعتمة مجرد بقعة رمادية كانت تتلاشى. توقّف المطر، وفي الخارج كانت الكلاب تنبح، ومن مكان ما فاحت رائحة الطعام التي لا لبس فيها. كان هناك شعور بخطأ جسيم وانحراف عنيف تم ارتكابه، وكان لا يزال مستمراً طافياً هناك، في الظلام أو في داخلي، لا أعلم، ثم اختفى. جلست على الأرض أمام بوتون وظهري إلى الحائط، دون أن أعرف ماذا أقول. أشعلت غليوني.

الآن، على مرّ السنين، أستطيع أن أفهم تلك اللحظة: بطريقة لا يمكن لأيّ منّا، لأننا كنا صغاراً جداً، استيعابها بالكامل، كان بوتون ينقل رسالة. واستحالة التعبير عنها بوضوح بكلمات في ذلك الوقت لم يجعلها أقل واقعية. بعد أن نضجت، في لقاءات لاحقة مع بوتون -إلى اللقاء الأخير- تعمّق هذا الانطباع الأول ليصبح يقيناً.

بعد ظهر ذلك اليوم أُعيد تأسيس صداقتنا من جديد، وخُتمت كأنّها ميثاق.

يورك، كما هو الحال دائماً، استمرّ في حالة من عدم الثقة والتجهُّم. من ناحية أخرى، كان مزاج فوجيا سعيداً فتعلّمت بسعادة عدداً مذهلاً من المهام. لقد فوجئت بجودة تحدّثهم اللغة الإنجليزية.

كنت حاضراً في الصفوف التي قدّمها معلّمهم. بعد ظهر أحد الأيام، جلسنا في زيارة -واحدة من العديد من الزيارات، كما علمت فيما بعد- لزوجين من طبقة النبلاء الإقطاعيين الذي كان من الممكن رؤية منزلهم الريفي من أعلى التلّ. كان القدوم لرؤية اليامانا يعدّ تسلية غريبة وحتى عصرية بين أصحاب الألقاب في الحي. كانت فوجيا المسكينة محطّ الانتباه الرئيس، فقد كان عليها أن تؤدّي كل الأشياء الجذّابة التي عرفتها. كل بضع دقائق، كانت السيدة الزائرة، التي بدت مثل الببغاء تقول: "لا أستطيع أن أنتظر حتى نخبر الكابتن عن هذا! لا أستطيع أن ننتظر حتى نحكي عن هذا في لندن!" ثم تنظر إلى زوجها نظرة خاطفة، وتكرر:

"يجب أن نتباهى بهم في المنزل!".

قام بوتون بتوضيح كيفية ارتداء حذاء للخيول، وكان عليه أن يقرأ صلاة الربّ. كان المعلم راضيا. وتابعت زوجة المزارع

العروض برضا، ويداها متشابكتان فوق مئزرها. عندما أصرّوا على أن تقدّم فويجيا الشاي وتسمّي كل عنصر من عناصر الخدمة، قاطعتهم. قلت إنني كنت أتبع أوامر صارمة من الكابتن لإعطائهم درساً خاصاً، وقد حان الوقت لذلك.

ودعتهم بعد ثلاثة أسابيع من ذلك، واعدا بأنني سأعود قريبا مع أخبار من الكابتن حول الرحلة. انطلقت بأقصى سرعة كما لو كان في لندن شيء عاجل أو حاسم ينتظرني، ووصلت عند الفجر إلى مدينة أشباح مغطّاة بالضباب من نهر التايمز. ففقدت الاهتمام بها من فورها. كنتُ مليئاً بالمشاعر المشوشة. بعد أن سيطر عليّ اشمئزاز عام، لم أغادر غرفتي في النزل في هذا اليوم أو الأيام اللاحقة.

أرسل الكابتن في طلبي، فحللت ضيفاً في منزله بضعة أيام. كان يعرف عن رحلتي إلى المزرعة وأراد أن يعرف كيف كان حال الياماتا. كان من الغريب رؤية الكابتن يعيش على اليابسة. كان يتعامل مع رجال قدموا من لندن وكان منشغلاً بأمور سياسية، أدركت أنه كان حساساً للغاية بشأنها، خاصةً بسبب كرامته ودمه النبيل، الذي يجب دائماً أن يؤخذ في الحسبان قبل كل شيء، كلما استدعت الحاجة لاتخاذ القرار. لم تسر الأمور كما كان يأمل. لقد كان بالتأكيد رجلاً خُلق للبحر، وكانت الصفقات التجارية على اليابسة تمثّل عقبات أخرى.

كانت شخصية وصعبة. فقد كان الرجال مهتمين بشؤونهم فقط وليس بالأشياء الفريدة والجوهرية، مثل إبقاء السفينة عائمة.

حدث أمر ذلك الصيف وتمّت طباعته في الصحف. فقد أعرب الملك والملكة عن رغبتهما في مقابلة يورك وفوجيا وبوتون. كان فخوراً لكنه كان متوتّراً قليلاً، إذ جهّزهم الكابتن بالرموز الملكية الكاملة وانطلقنا. لم أكن مدعوّاً للدخول، فبقيت في العربة خارج مدخل قصر سانت جيمس. ومع ذلك، سيد مكدويل أو مكدونيس، كل هذه الأبّهة والظروف لم توارِ السؤال الذي لم يكن له إجابة، والذي قام الناس في المزرعة بطرحه على الكابتن بالفعل: ماذا سيكون مصير الياماناً؟ هل سيدخلون مجال الخدمة في منزل ما؟ هل سيستمر تعليمهم؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن سيتكفّل بالنفقات؟

بدأت سحابة من عدم اليقين تخيّم على تلك الكائنات الغريبة. فظهروا في الصحف، وانهالت عليهم الهدايا، لكن هذا لم يغيّر الأشياء بشكل أساسي. لقد أصبحوا كاتهامات محرجة، بدأت تنمو حولها جراثيم فكرة مؤلمة، وكانت تسمّم الجميع بالتدريج بَدءاً من الكابتن حتّى آخر سكّان المملكة الذين عرفوا بوجودهم: ماذا كانوا يفعلون هناك الآن منذ أكثر من عام؟ ماذا كان الغرض من جلبهم؟ بدأ اهتمام الناس في لندن يصبح أقل بهؤلاء السكان الهمجيين الغريبين الآتين من مكان لا أحد يعرف عنه شيئاً، باستثناء أنه كان مكاناً عدوانياً هجرته العناية الإلهية، حيث لا يجذب عنف عوامل الطبيعة أي شيء سوى أعضاء

البعثات التبشيرية الذين كانوا يضعون أرواحهم على أكفّهم.

قرّر القبطان بعدئذٍ تجهيز السفينة بكلّ ما هو ضروري للعودة إلى تييرا ديل فويغو. كان سيفعل ذلك من جيبه الخاصّ. أخذني إلى الواجهة المائية لرؤيتها. يجب أن أعترف أنها لم تكن سفينة عظيمة، لكنها ستكون جيدة بما فيه الكفاية، إذا لم نأخذ بالحسبان العواصف في خليج كيب. ومع ذلك، أعادت استعداداتنا حماستي. في الآونة الأخيرة، كنت قد مكثت كثيراً بالقرب من الواجهة البحرية. كنت أجلس في أيّ مكان لمشاهدة المراكب على الأمواج المتلاطمة تنسلّ في اتجاه مجرى البحر.

ثم في أحد الأيام وصلت الأخبار التي تهدف إلى تسريع كلّ شيء. تمّ استدعاء القبطان على وجه السرعة إلى الأميرالية، وتمّ السماح للقبطان مرة أخرى بقيادة سفينتنا ومهمّة علمية ذات أهمية كبيرة -لرسم خرائط سواحل البرازيل وباتاغونيا ودراسة النباتات والحيوانات الخاصة بهم. جميع المصاريف مدفوعة. كما تعلمون بلا شكّ، سيد مكدويل أو مكدونيس، فإنّ المخططات السياسية كانت توصي بإقامة بؤر استيطانية في أقصى جنوب القارة الأمريكية، والاستيلاء لاحقاً على الجزر، وهذا ما كان وراء هذه الحملات العلمية. على أيّ حال، كان النقيب مبتهجاً. لقد كان، قبل كل شيء، رجلاً مهنياً لن ينسى تنفيذ تعليمات سرية بشكل حرفي.

الجزء الخامس

[لندن/ كيب هورن، ١٨٣٠-١٨٣٤]

بعد تجاوز الحقيقة الواضحة أن التغيّرَ المفاجئ في رأي الأميرالية لم يكن نتاجاً فقط لحبّ العلم أو الإيثار، ولكن بسبب القيمة الاستراتيجية التي اكتسبها مضيق ماجلان وكيب هورن، أظهر النقيب روح الدعابة بشكل غير عادي، كما لو كان أصيب بحالة انعدام الصبر العامة السائدة على متن السفينة لرفع المرساة، ورفع الشراع، والعودة إلى البحر.

بالنسبة لي، سأكون قريباً في العشرين من عمري وأحسست باليقين وأنا واقف على قدمي. في صباح أحد أيام نوفمبر المتجمّدة وصلت إلى الميناء وحقيبة على كتفي. وبأنفاس لاهثة، وقفت مدة طويلة وأنا أنظر إلى السفينة نفسها التي جئت فيها إلى إنجلترا قبل أكثر من عام. ترنيمة الرجال، وضربات المطارق، وحركات الأشرعة في الهواء النابض بالحياة، بدا لي كل شيء مثل أُغنية بَحْرية مألوفة تحثني على عدم إضاعة الوقت في الصعود على متن السفينة مرة أخرى. وعادت إلى ذاكرتي الكلمات التي قالها لي مالوري منذ وقت طويل مضى: السفينة مثل الوطن. صعدت سلم السفينة في خطوتين.

ما إن صعدت على متن السفينة، حتى عرفت أن الواقع أقلّ شاعرية. فقد تم تكليفي بمهمة جديدة لهذه الرحلة: وهي

مساعدة الربّان في حسابات السفينة العامّة وتوزيع مخازنها. بدا بوتون وفوجيا ويورك مبتهجين بالعودة إلى بلادهم وأقلعوا عن شعورهم بالخجل. كانوا يتحدّثون الإنجليزية بطلاقة، لذا لم يكن لديهم صعوبة في التواصل مع أحد، بل وحتى مع طاقم من البحارة الفظّين. لقد أعجب النبلاء بتأثيرهم الشخصي في القصر الملكي، وقد تأثر سكّان لندن والبلاد كلّها برحيلهم. كانت الصحافة قد قالت إن إنجلترا لديها مهمة: وهي الوعظ بالإنجيل والتعليم. ألم تأت الهدايا من جميع أنحاء المملكة للفوجيين[1] الذين آوتهم بريطانيا العظمى وعلّمتهم، وهم الآن عائدين إلى أراضيهم الهمجية النائية لنشر الحضارة ونقل اللغة؟ ألم تقم هذه الهدايا من أطقم الشاي، وأغطية الطاولات، والسكاكين، وأدوات المطبخ لفوجيا من أجل منزلها مع يورك مينستر، بإظهار الروابط الوثيقة بين الإنجليز ومستعمراتهم، ألم يظهروا الاهتمام الأخوي للمواطن العادي بهذه الأرواح المسكينة؟ هذا ما قالته الصحافة. أمّا بالنسبة للهدايا، فقد كانت فوجيا هي الأكثر حماسة بشأن... تلك الهدايا التي أمر القبطان، بتغليفها ووضعها في مخزن الحمولة، حيث سيتمكّنون من رؤيتها مرة أخرى في كيب هورن.

بعد أيام قليلة من المغادرة، ألقى الكابتن خطاباً في مقدّمة

(1) الفوجيين: هم واحدة من القبائل الأصلية التي سكنت تيرا ديل فويغو. (Fuegians)

السفينة. وأوضح أن الرحلة استندت إلى اقتراح علمي من شأنه أن يفيد الملاحة العالمية. فالخرائط الإسبانية كانت ناقصة للغاية، وأعلن: هي ناقصة ونادراً ما تكون دقيقة، دون الأخذ في الحسبان حقيقة أنّ مساحات كبيرة من ساحل باتاغونيا وتيرا ديل فويغو لم تكن معروفة حتى الآن. مهمتنا ستجعل من الممكن للملّاحين المستقبليين أن يبقَوا عائمين في تلك المناطق. كنت متحمساً لخطاب القبطان وأعتقد أنه يمكن قول الشيء نفسه عن الجميع باستثناء أفراد اليامانا، الذين ظلوا غير مبالين. في وقت لاحق أثناء الغداء، استمر القبطان بثرثرته بطريقة لم أعهدها فيه من قبل إلا نادراً، كما لن أراه بعد ذلك إلا نادراً. حتى إنه تحدث عن عبوره الأول في سنّ الثانية عشرة.

سرعان ما اتضح أنه ما زال يمتلك الشخصية التعسفية نفسها، سريعة الغضب، كما هي حاله دائماً. في الصباح كنا نراه يظهر على سطح السفينة عبوساً بنظراته الباردة التي نعرفها جميعاً، يبحث عن ركن من السفينة لم يكن نظيفاً أو منظّماً. كثيراً ما كنت آكل معه. كان يسألني عن مهامي أو عن الكتاب المقدّس، وهو موضوع فشلت فيه فشلاً ذريعاً، وهذا ما منحه الفرصة لممارسة التحويل الديني عليّ. أظن أن هذا كان أحد دوافعه لدعوتي إلى طاولته.

ولكن الوقت قد حان لتقديم عضو آخر في بعثتنا، سيد مكدويل أو مكدونيس، وهو رجل شاركنا معه سنوات هذه الرحلة الطويلة التي لن تنتهي في تيرا ديل فويغو، والذي لم

أره مرة أخرى بعد عودتنا إلى إنجلترا.

قبل يوم واحد من مغادرتنا، وقفت عربة تجرّها الخيول بتألق صاخب، تقريباً فوق سلم السفينة، وخرج منها رجلين. كان أحدهما عجوزاً إلى حدّ ما ويبدي سلوكاً رصيناً؛ كان يرتدي بدلة سوداء. كان الآخر شاباً، ليس طويلاً جداً، يرتدي ملابس رسمية وإن لم تكن أنيقة، ذا وجهٍ مستدير وسلوكه مفعم بالحيوية[1]. نظروا إلى سطح السفينة. صاح الرجل الأكبر سنًّا:

"أيّها البحار! هذا رجل يجب أن يرى الكابتن!".

صعدوا إلى سُلّم السفينة.

انضمّ للتوّ إلينا في عبورنا إلى تييرا ديل فويغو شابّ أكاديمي نال مركز عالم على متن السفينة استجابة لإعلان تم نشره في صحيفة التايمز، واستناداً على قوة التوصيات الممتازة التي قدّمها للأميرالية. هذا ما قاله الكابتن عندما قدّمه رسمياً على العشاء في ذلك المساء. وكرّر كلمات المستشار الذي جاء معه إلى سفينتنا: "عالمٌ شابٌ يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، ذكي للغاية، جادٌّ وقدير، لم يتردّد أساتذته في التوصية به بحرارة".

أحضر معه الكثير من الأمتعة، وساعدته على أن يستقر ويشعر بالراحة على متن السفينة. أخرج عدداً لا حصر له من الأشياء من حقيبته: أدوات القياس، وبوصلة، ومقياس صغير،

(١) من المؤكّد أنّ غيفارا يشير هنا إلى تشارلز دارون. (ملاحظة المحرّر من النسخة الأصلية).

وعدسات مكبرة، وكمّاشة، وفهرس نباتي وجيولوجي، وعلبة مليئة بقوارير صغيرة تحمل أسماء لاتينية، وقد خلع قبّعته وسترته وكان يفعل الشيء نفسه الذي فعلته مع كل ممتلكاته: لقد راقب كل عنصر بفضول قطة. تنتبه عينه الهادئة المتفكرة الحادة مثل إبرة بمجرد أن يجذب أي شيء اهتمامه. يبدأ هذا التغيير في وجهه ثم يمتصه جسده سريعًا؛ لقد كان تغييراً عاماً في السلوك، كما هو الحال في الأيام الملبدة بالغيوم عندما يصبح مظهر البحر معدنياً ويتحوّل من الظلام إلى النور. إذا ركّزت في هذه النقطة، فذلك لأنّ هذه السمة ميّزته؛ كان الشيء الأكثر لفتاً للنظر في شخصيته، وأعطته جاذبية فريدة. فيما يتعلّق بكل شيء آخر، بدا أنه مثلي شابّ عاديٌّ تماماً، ولمّا كنت بطول ستّ أقدام وبضع بوصات، لذا كنت أطول منه بقليل.

كنت سعيداً لاكتشاف روح الدعابة العامة لديه، التي أزالت منذ البداية أيّ تحفّظ بيننا. لم يكن تأهيل "الشابّ الجاد" إلا جزءاً رسمياً من توصيته. وما لا ريب فيه كانت قدرته العلمية التي اختبرها حقيقةً عليّ. لقد تركت لي جولاتي في حانات لندن تذكارَين، هما: ندبة على ذراعي اليسرى ومرض محرج عذّبني في تلك الأيام. كان الدكتور الشاب قد درس الطب بضع سنوات ولديه مهارات مذهلة في علم النبات. لا أعرف ما الذي قام به بالضبط، ولكن انتهى به الأمر أن عالجني من شيء همس به سرّاً، وهو مرض لم يكن نادرًا على الإطلاق بين زملائه الطلاب.

ومنذ ذلك الحين أسميته الطبيب أو الطبيب الصغير. من جانبه، أطلق عليّ اسم الغاوتشو. اعتاد على أن يسخر مني وكان يضيف: الغاوتشو المثقّف. فقد اختبرني من خلال إلقاء عناوين الكتب واقتباسات المؤلّفين عليّ.

"هناك شيء غريب في ذلك"، كان يعلّق بسعادة، ويتصرّف باهتمام بالغ.

لقد زوّدته بذخيرتي كاملةً، مستشهدًا بمقتطفات ومقاطع من هنا وهناك. لم أشعر قطّ أن ما ورثته من مالوري كان امتيازاً خاصاً. حتى مالوري نفسه لم يعط الأمر أكثر من قيمة شخصية بحتة، أو ربما قيمة لابنه. لذا، فإن الصبيّ الذي كنتُ، سيحاول جذب الانتباه إليه مثل شخص يستعرض عضلته ذات الرأسَين المتضخّمة. ما تمثّله الكتب حقاً في حياتي، يا سيد مكدويل أو مكدونيس، هو شيء احتفظت به لنفسي.

"ماذا؟" كان يقول لي، ويبدو عليه الشك، "هل يعرف أفراد الغاوتشو القراءة؟ كيف يمكن لهذه المعجزة أن تحصل إذا كانوا متوحّشين؟".

ضحكت، ولكنها لسعتني بطريقة ما.

كان اهتمامه بكل شيء لا ينضب. كان يسألني كيف يبدو سهل البامبا، وماهي طبيعة الهنود الذين عاشوا هناك، ماذا عن طيور الإيمو، وهكذا دواليك... ويسألني عن طبيعة الغاوتشو ومن هو. كان هناك نوع من الهالة الغريبة حوله، التي أثنى عليها

المسافرون الذين أثار فضولهم شخص لا يمكن تحديد إن كان متوحّشاً أم أنه رجل متحضر.

سرعان ما اتضح أنّ الطبيب لم يكن مؤمناً كثيراً. لقد أثار ذلك اشتباكات مباشِرة مع القبطان، زد على ذلك، فقد شارك المقصورة معه؛ إذ إنّه لم يكن هناكَ إلا القليل من وسائل الراحة على متن السفينة. كان كل منهما نداً للآخر في الذكاء والشخصية. عالم الطبيعة - كان اللقب الذي أعلنه الكابتن في الجريدة- كان منفتحاً وذكياً؛ أما الكابتن، فقد كان شديد الحساسية ومنغلقاً. كان للطبيب شخصية هادئة ومرحة؛ أمّا الكابتن، فكان عكس ذلك. في مناسبتَين -وهما أفضل ما أتذكّره- ازدادت حدّة المناقشة فترك الطبيب مضجعه في السفينة، ممتناً. وأنا متأكّد من أنّ الأمور قد ذهبت إلى هذا الحد. في بعض الأحيان لا بدّ أنه وجد مجاملة القبطان له غير مريحة.

نحن الآن في ديسمبر، سيّد مكدويل أو مكدونيس. الأيام طويلة والحرارة مستمرة. الليالي الهادئة تعجّ بصراصير الليل والنجوم. في الأسبوعين الماضيين كنت أكتب باستمرار. أمس، بسبب الحاجة الداخلية للتواصل مع أشخاص آخرين، أسرجت حصاني وذهبت إلى المتجر. مكثت هناك طيلة فترة بعد الظهر، أتابع ما فاتني من أخبار الحي عبر النميمة وأتناول

بعض المشروبات، متعمداً تأخير عودتي بسبب نفاد صبري الذي اكتشفته مؤخّراً مع حقيقة أن الورق والحبر كانا ينتظرانني هناك، وكذلك ذكرى بوتون والرحلة التي لم تكن مثل بقية الرحلات. أعني بالنسبة لنا نحن الذين كنا جزءاً منها. أنا مقتنع أن العبور كان لأسباب مختلفة وقد طُبع في ذاكرة كلّ منا، وبطريقة أو بأخرى غير حياتنا.

عندما عدت إلى المنزل، بحثت في حقيبتي عن الكتاب الغريب من تأليف لافرتر الذي أعطاني إياه القبطان في إحدى الليالي، والذي استدعته ذكراي عن الطبيب الآن، بعد كل هذا الوقت الطويل.

في المساء، تناولت أنا وغراسيانا العشاء في المعرض. أرادت أن تعرف ماذا أكتب، فشرحت لها ذلك دون تبديد حيرتها. غراسيانا فتاة رقيقة تمتلك ميزات شعوب الكريول الجميلة. تمشط شعرها بأن تجمعه في ضفيرتين، وقد اكتشفت أنني أحب أن أشاهدها وهي تقوم بتضفيرهما صباحاً بمهارة دون مرآة، وتنظر في الفراغ بشرود. قبل عدة أيام، شعرت بخدر الإرهاق في ذراعي وكتفي، وضعت أوراقي جانبا وخرجت إلى المعرض. عندما دخلت مرة أخرى، كانت قد أضاءت مصباح الكيروسين. وهناك في الضوء الوامض، دون أن تدرك أنني كنت أراقبها، حملت القلم وغمسته بعناية في الحبر. لو لم ترني، أعتقد أنها كانت ستحاول اختطاط رسالة ما.

ضحكت من الصميم، فأزعجها ذلك كثيراً. لا أعرف ما إذا كنت قد ذكرت أن الفتاة أمية. خرجتْ إلى الفناء ولم تظهر مرة أخرى حتى حان وقت تقديم العشاء، الذي أجلته حتى منتصف الليل تقريباً.

مثلما كتبت قبل يومين، فإن ذكرى الطبيب قادتني إلى البحث عن الكتاب الذي أملكه الآن فوق الطاولة.

كان المثال مناسب لمزاج القبطان بمجرد أن يصبح مهووساً بفكرة ما، هو إخضاع هذه الفكرة لنظريات علم الفراسة التي يحملها الفرنسي كاسبار لافاتير، والتي كان يصفها بحماسة بالتفصيل. كان القبطان على يقين من أن وجه الرجل، وملامح وجهه، كشفت دون أي خطأ عن شخصيته وميوله. استحضر هذا النقاش الأول بينه وبين الطبيب أثناء العبور، فأصبحت آراء ومزاج كل منهما واضحة جداً للآخر.

تابعنا الإبحار في طريقنا نحو أسبوعين، فأصبحوا الآن ودودين بما يكفي لكي يعترف الكابتن له ذات يوم على العشاء أنه عندما رأى داروين أول مرة، فإن شكل أنفه لم يلهمه بأقل شعور بالثقة تجاهه، وأنه لو لم يكن داروين قد أتى بتوصيات جيدة للغاية من أساتذته في كامبريدج، فإن شكل الزائدة الأنفية كما عبر عنها سيكون سبباً كافياً لرفضه المنصب.

فوجئ الطبيب، لكنه بقي مبتسماً حتّى إنه أنزل سكينه وشوكته.

"ما علاقة أنفي بتكليفي بمنصب عالم على متن السفينة يا كابتن؟".

كان الكابتن راضياً عن لفت انتباه شخص بدأ يشعر باحترامه له، وبدأ في شرح طويل ومفصل لنظرية لافاتير لقوانين علم الفراسة. وأشار إلى الرفّ حيث احتفظ بهذه الكتب، وطلب مني أن أحضرهم وأضعهم على الطاولة. كان أحدها -الترجمة الإيطالية- هو الكتاب الذي أعطاني إياه فيما بعد، والذي هو أمامي الآن.

طوال فترة الشرح، كان الطبيب يهزّ رأسه عدة مرات، نافياً، أو على الأقلّ مشكّكاً فيما كان يسمعه. ومع عدم قدرته على قبول الخلاف من أي شخص آخر، أنهى الكابتن محاضرته بالإصرار مرة أخرى على نظريته حول الأنف. وأشار إلى أنه في اللحظة التي رآه بدأ يشك في أن هذا الأنف لم يبشر بنتيجة جيدة لعمله العلمي. كان منتفخاً وغير محدد الشكل نوعاً ما، وأوحى بطريقة ما إلى شخص غير منتظم وضعيف الإرادة. تحدث كما لو كان يشير إلى تمثال. وقال إن الظروف ليست مستحسنة بأي حال من الأحوال لرحلة طويلة من البحث العلمي، التي تتطلّب الحزم والشخصية فوق كل شيء.

أجاب الطبيب بدهشة متزايدة:

"آمل أن تتيح لي الوقت الكافي لإثبات العكس يا كابتن. من ناحية أخرى، فقد أطلقت صفة العالم على ذاك المدعو لافاتير".

قال الكابتن:

"بالتأكيد. مع وجود عدد لا بأس به من الأدلة الدامغة".

"اسمح لي أن أخبرك يا سيدي بأنني أعدّ السيد لافاتير دجالاً بذيئاً".

لثوانٍ قليلة، كان كل ما سمعناه هو صوت الماء وهو يقرع جانب السفينة.

ردّ الكابتن: "هذا لاذع بعض الشيء". وضع سكينه وشوكته على صحنه وصار ينظر إليه باهتمام. "أكرر أنه ملتزم بالمنهج العلمي كثيراً، علمي مئة بالمئة، فكل آرائه موضحة؛ ولا توجد ميزة واحدة غير مفصلة ومبرهنة".

"علمي". مثل النتوء المتدلي فوق أعين الطبيب، إذ أصبحت المسافة البارزة بينهما عبوساً: "اسمح لي أن أضحك، دون أن أسيء إليك".

"ما هو الأمر الممتع في كل هذا يا سيدي؟" قال الكابتن، دون انفعال.

أخذ الدكتور أحد الكتابين وكان الأكبر، وقلب صفحاته بسرعة بينما الكابتن يراقبه باهتمام.

"سأريكم دون بذل الكثير من الجهد. هنا، بشكل عشوائي، يشرح لافاتير ما يقصده "بالإحساس الفسيولوجي". حسناً،

حين يتعلّق الأمر بالإحساس..." هزّ الطبيب رأسه كما لو كان يفكّر بصوت عالٍ. قرأ ما أقرأه هنا: "انطلاقا من الإحساس الفسيولوجي، أعني تلك المشاعر التي يتم إنتاجها عندما نواجه بعض حالات الملامح الخارجية، والتخمينات التي يستدلّ عليها من هذه الملامح، فيما يتعلّق بصفات العقل التي ينتجها ما هو ظاهر في هذه الوجوه، أو في صورهم المرسومة... هل أتابع؟".

"اختر عشوائيا، وبهذه الطريقة يساء فهم كل شيء. أصرّ على أنه رجل علم درس الطبيعة البشرية بلا كَلَلٍ...".

"ما درسه هو أُنوف" قاطعه الطبيب بثقة. بدا مرتاحاً جداً بهذا النوع من المناقشة التي أزيلت منها أي اعتبارات للرتب بين المتحدّثين. مع الكابتن، لم يكن الأمر نفسه. "الأحاسيس، التخمينات، المشاعر... ما هي هذه الكلمات؟ العلم مبني على الصرامة والمنهجية. إذ فقط بعد تصنيف آلاف العينات وملاحظة خصائصها الفردية والمشتركة، يكون المرء في وضع يمكنه من تأطير مجرد فرضية. ما هي الملاحظات التي قام بها هذا العالم؟ كم عدد الآلاف من الوجوه التي صنفها؟ من أي أعراق؟ أسود، أصفر...؟ من فضلك، يا كابتن...". هنا قام بمراجعة نفسه والشرر يتطاير من عينيه. "غيفارا!" ناداني صارخاً. في الركن الضيق في المقصورة، كنت أنا وهو عملياً قريبين جداً من بعضنا، لكن هذا لم يمنعني من القفز. "من فضلك أحضر الهمج إلى هنا من فورك!".

أصيب الكابتن عميقاً في أحد معتقداته وآرائه المفضلة، الذي صنف الرجال على أساسه عادةً، فتراجع إلى قوقعته الجليدية المعتادة. أحضرتُ بوتون من سطح السفينة بأسرع ما يمكن، وهناك كنا نحن الأربعة.

لم أتحرّك، ابتسمت قليلاً، ظل بوتون واقفاً على قدميه. كان معتاداً على كونه مركز الاهتمام في مَشاهد غير مفهومة بين البيض، وقد تقبلهم بصبر.

"انظروا إلى هذا الوجه!" واصل الطبيب جداله مخاطباً الكابتن. "ماذا ترى في هذا الأنف؟ ما الذي يوضّحه هذا الأنف مقارنة بي؟ هل هو أعرض، أطول، مسطح أكثر، أكثر سمنة، أكثر بروزاً...؟" أمسك خَدَيّ بوتون بأصابعه المتوترة، ونقّل وجهه من جانب إلى آخر ليثبت بشكل أفضل ما كان يقوله. "وحاجبه الناتئ، أيشبه حاجبي...؟ وعظام وجنتيه البارزة وهذه الابتسامة الماكرة؟". توقّف بوتون عن الابتسام. اكفهرت عيناه وأصبحتا ثابتتين على زاوية من المقصورة على ارتفاع بضع بوصات فوق رؤوسنا. "ما قولك؟ ما هي الفروق، أو بالأحرى، ما هي فئات الفروق بين الخصائص الجسدية والقحفيّة التي يمكنك تحديدها بين عرقين مختلفين، بحيث يؤدي عرض أكثر بسنتمترين أو أقل بسنتيمترين إلى ظهور شخصية متشابهة أو مختلفة؟ ما هو طول الأنف الذي تعدّه معادلاً؟ ومن هذا، ما هي الاستنتاجات العامة التي يمكن أن تستخلصها؟ إذا لم تكن عالمية، فهي ليست علمية يا سيدي. علينا أن نكتشف القوانين.

القوانين العالمية، وليس المقارنات...".

كان الكابتن يحدّق في الدكتور كما لو أنه تحوّل إلى الحجر. كنت أحدّق في الكابتن، والخوف يشلّني أيضاً. كان بوتون غامضاً، ينظر إلى البحر من خلال كوّة المقصورة. الكابتن كان يرتدي قميصاً وسترة، ولكن يبدو أنه كان يرتدي الزيّ الرسمي مع شاراته وميدالياته، من ناحية أخرى، أصبح الطبيب صبيانياً، فوجهه المستدير المتورّد وحركاته العصبية جعلته يبدو وكأنه صبي. ولكن، على حماسته، كان لسانه حاداً كالموسى، وظل مزاجه بارداً مثل شاهد قبر، وكان الكابتن على النقيض تماماً: قاسياً من الخارج، وحججه، وحتى بلاغته، استسلمت أمام نار السخط المشتعلة داخله. بينما كنت أشاهدهم، كنت أتعلّم شيئاً عن الرجال.

"اسمح لي!" تابع الطبيب الذي لم يعد من الممكن إيقافه. التقط أحد المجلدات الذي أحضرته من حقيبتي وهو بحوزتي الآن. كان يبلّل إصبعه بلسانه ويقلّب الصفحات. "نسختيّ الترجمة الإنجليزية والإيطالية المختصرة: «Il Lavater portabile». لم أكن أعلم أنك تقرأ الإيطالية أيها الكابتن. ها هو. استمع لهذا: الأنف، هذا ما يهمّني، الأنف. أعتقد أنه، حسب رأيكم، هذا هو الجزء الذي يتعلّق بي... ما رأيك بهذا الرسم التوضيحي؟" أدار الكتاب ووضعه أمامنا وأمام بوتون، ومرر فيما بيننا رسماً لأنف سمين إلى حد ما. "الأنف الذي ليس له انثناء حادّ، مشابه لكتلة

لحمية لا شكل لها، لن يكون أبداً لرجل عبقري غير عادي[1]". ماذا يعني انثناء حاد؟ أن كتلة اللحم لا تميل إلى جانب أو آخر، كما أنها لا تنحني إلى أسفل بل تتدلى فقط، ولا تتجه إلى أعلى؟ والشيء الآخر؛ ربما أنها لا تتطابق مع (عبقرية غير عادية) ولكن فقط مع (القليل من الموهبة). أو، تقريباً، عدم وجود الموهبة؟ ما نوع هذه المصطلحات يا سيدي؟ هل هي مصطلحات علمية؟".

قال الكابتن بلهجة قاطعة "أنت تفاجئني يا سيدي. يبدو أنّ العلم هو إلهك، إله عملي ومادي بشكل مفرط، معصوم من الخطأ...".

"الرب؟ ما علاقة الرب بهذه المحادثة يا سيّدي؟".

"حسناً، يمكننا أن نعترف بالفرضية، إذا أردت، يا سيدي، مع أن كبرياءك العلمي يمنعك من اعتبار الرب في عُلاه بمثابة الآلة والمحرك الرئيس لكل الخليقة".

"فرضية! عفواً يا كابتن، لكن هناك بعض الموضوعات التي تمسني بعمق... كنا نتحدّث عن شيء آخر. الرب هو السلاح السري لكل ما هو لا منطقي. ولكن بما أنك تصرّ يا سيدي، دعنا نفترض أن هذه الفرضية جزء من هذه المحادثة بعد العشاء. لم لا!". كان يقلّب صفحات الكتاب بشدة لدرجة أنني ظننت أنه سوف يمزّقه. "لنرَ" وأشار إلى الرسومات التي تمثّل جميع أنواع الرؤوس والأنوف والآذان، "فلنلقِ نظرة هنا.

(1) تُقرأ الملحوظة مرتين، مرة بالإيطالية ومرة بالإنجليزية.

إذا كان ما أفهمه في نظريتك الفسيولوجية صحيحاً، فسيكون لدينا أمثلة مادية على الشر والخير في شكل الكمثرى، إذا أخذنا كل شيء في عين الاعتبار، الشر والخير الذي طرحه الرب ليحلّق فوق العالم يتجسّد في أنواع أنوف فرعية وتيجان فوق رؤوس الناس. هنا لدينا مثال مختلف: الحماقة... لماذا قامت السلطة الإلهية بتوزيع شيء كهذا بطريقة تعسفية؟ لماذا يجب على الإنسان، في اللحظة نفسها التي يُخلق فيها...".

"احذر يا سيدي، أنت تقترب بشكل خطير من الكفر".

بدا أنّ الطبيب وحيد في المقصورة. كان لبوتون ابتسامة غامضة على وجهه. وأتذكّر أنني كنت مسرورًا.

"... في اللحظة نفسها التي يُخلق فيها إنسان يحمل بالفعل في ملامحه مصيره للخير أو للقسوة، العبقرية أو الغباء! هل هذا عادل؟ أسألك. هل تبدو هذه خطّة إلهية نبيلة؟ هل هذا إله عادل؟ ألا يتعارض معتقداتك بعضها مع بعض؟".

قال الكابتن من قوقعته المحصّنة: "بالتأكيد لا يا سيدي. بالتأكيد لا. أنت نفسك الدليل. فأنفك ليس الأكثر ملاءمة للوظيفة، وفقاً للنظرية التي أحملها. فهو دائري زيادة عن اللزوم وسمين... وفي الوقت الحالي، يجب أن أضيف، إذا كنت ستعذرني، أحمر ومبقعًا مثل سكير غارق في سكره. وهكذا مثلما تلطفت لقراءتها منذ لحظة. ومع ذلك، أؤمن بقوة الإرادة البشرية حيث يسمح لنا الرب برؤية شرارة نوره اللا متناهي.

أؤمن بالإرادة التي تستطيع بجهد هائل أن تصحّح انجذاب الرجل الطبيعي تجاه التردّد أو الكسل أو الرذيلة، ويمكن أن ترفع الروح نحو...".

"أنت تربكني بهذه الحجج يا سيدي!" قاطعه الطبيب بعدم احترام. "من هو المسؤول عن الطبيعة البشرية إذن: المستوى المنخفض للشكل، اللحم، المادة النقية، أو الروح؟ على ما يبدو بالنسبة لكتابك العلمي، هو الأول من بين هؤلاء. لاحظ هذا، انظر إلى هذا الوجه الأشبه بوجه القرد يا سيدي". اختار في الكتاب وجهاً وحشيًّا حقاً، انحنينا أنا وبوتون لرؤيته. "تبرأ الإله من هذا وهو أحد مخلوقاته، إنه روح، وقد هجره... كيف تفسر ذلك يا سيدي؟ سيحكم على هذا الرجل أن يكون قرداً، وسيحكم عليه بالغباء إلى الأبد، أم أن الرب سيسدي له معروفاً بأن يلقي عليه تحسُّنًا ما؟".

"بلا شك، سيّدي، عندما تمّت مراجعة التوصيات المقدمة لشغرك هذا المنصب، فإنّ المعتقدات الدينية لم تُبحث".

"وضع الرب الملعقة فيها وحركها، ولا يوجد شيء آخر يمكن أن يقال"، تابع الطبيب بمفرده. "تخضع كل الحجج لحكم تلك السلطة، وهي غير محدودة وكلية القدرة، أبعد من أي مناقشة علمية".

"أنت تحاول إبعاد الرب عن هذا الأمر يا سيدي!". صاح الكابتن، وفقد السيطرة.

"هذا صحيح يا سيدي!". صاح الآخر بدوره.

"في هذه الحالة، لا يمكنني الاستمرار في التحدّث معك يا سيدي!".

"ليس من الضروري ذلك يا سيدي. سأرحل الآن". بدأ بحشو الأوراق والكتب والملابس على عَجَل في حقيبة.

خرجت أنا وبوتون خلفه.

بعد ساعتين من ذلك، كان الطبيب في مقدمة السفينة يتكلّم بهدوء مع الربّان عن النجوم، ولا شك في أنه كان يسأله عن شيء متعلّق بالأبراج. كانت الرياح القوية تشعث شعره الخفيف المسدل، وقد اختفى أي أثر للمناقشة الساخنة التي حدثت في المقصورة. فلم يبدُ على الطبيب أنه رجل مستاء على الإطلاق.

لأكون صريحاً، هناك شيء يجب أن أقوله قبل أن أتابع. هناك ذكريات حية تظلّ واضحة تماماً في ذهني: كلّها تقريباً مرتبطة ببوتون، وإيزابيلا، وصديق مالوري؛ وهناك غيرها أعيد تشكيلها، مثل هذه الجدالات بين الكابتن والطبيب الشاب. على كونها مبهمة، إلا أنها علقت في ذاكرتي لسبب ما، فأعرتها الكلمات لأسمح لها باستعادة جزء من حقيقتها. لا شك أن كل واحد من أولئك الذين كانوا في تلك المقصورة سيعطون نسخة مختلفة عني. يمكنني أن أقدّم عذري عن ذلك حين

أقول: هذه قصتي، وهي تطبع الشيء الوحيد الذي يهيمن عليها بشكل طبيعي: ذاكرتي.

انتظر الكابتن مرور يومين قبل أن يدعو داروين مرة أخرى لمشاركة مقصورته. في الوقت نفسه، تمكن بوتون من تحقيق التعادل. مكتبة سُر مَن قرأ

لم يتحمل الطبيب الشاب البحر كما يجب -فقد عانى من دوار البحر- وأصابته الدوارات بالمرض. اصفرّ وجهه، ممّا أظهر أنفه غير الجذاب من قبل الكابتن أكثر من أيّ وقت مضى، وجلس على مقعد على سطح السفينة، غير قادر على الحراك أو القيام بأي شيء. ثم جاء إليه بوتون وقال يملؤه التعاطف:

"أيها الرفيق المسكين! أنت مسكين، مسكين يا رفيق!" وربت برفق على ظهره. ثم ذهب دون أن يخفي الابتسامة التي تحوّلت بعد أن مشى خطوتَين إلى ضحك قوي. بالنسبة لبوتون الذي قضى حياته في زورق مترنح، فقد كانت رؤية رجل بالغ يشعر بالغثيان في البحر أمراً مضحكاً للغاية.

كنا قد غادرنا سواحل البرازيل قبل بضعة أيام وتوجهنا نحو مونتيفيديو. أثناء الساعات التي تشاركنا فيها في المقصورة، تحدّثنا عن بوتون، وتقدّمه في اللغة الإنجليزية، وحول الكتب

والأمور البحرية بشكل عام، ولكن في هذا اليوم أخذت المحادثة منعطفاً آخر. أثناء التحضير للحلاقة، قدم لنا الكابتن دفاعاً نمطيًا وجذاباً عن العبودية، وهو نظام سائد في مزارع البرازيل. في منتصف حديث الكابتن -الذي كان يشحذ شفرته بحذر- قاطعه الطبيب وبدأ من جانبه خطبة ضد الرقيق والمزارع. "إنه أمر مَشين للجنس البشري يا سيدي. ويجب أن أضيف، إنني دَهِش من دفاعك عنه". توقّف الكابتن مؤقّتاً أثناء شحذ شفرته وقال بعد أن ارتسمت على وجهه نصف ابتسامة:

"دعني أخبرك بشيء أنا متأكّد من أنه سيثير اهتمامك: في وجودي، كطريقة للبرهان، سينيور دوس سانتوس ليفا، كان أحد أكثر المزارعين البارزين في البرازيل، جمع كل عبيده، مجموعة كبيرة من الكبار والأطفال في ساحة مزرعته، ومن شرفة منزله الرائع، حيث كنا، سألهم بصوت عالٍ إذا كانوا سعداء، ردّ عليه العبيد معاً: "نعم!". ثم سألهم -أيضاً- عمّا إذا كانوا يريدون أن يكونوا أحراراً. وأجاب الكبار والصغار، مرة أخرى في جوقة، بصوت عالٍ وواضح "لا!". ما رأيك في ذلك؟ كما ترى يا سيدي لم يتم إخباري بذلك؛ كنت موجوداً هناك".

شعر الكابتن بالرضا عن نفسه، وشاهد وجه الرجل الآخر، الذي كانت خدّاه تلتهبان.

قال الطبيب بهدوء: "وهل تعتقد أنه إذا لم يكن سيدهم

موجوداً، أن الجواب سيكون ذاته؟".

أصيب في الإيمان الراسخ بحجّته التي بدت مُحكمة جداً بالنسبة له، إذ إنّه كان يتحدّث عن الحقائق، وبهذا حان دور الكابتن لتحمرّ خدّاه. جعلته المفاجأة يقف على قدمَيه بسرعة. لحسن الحظ، منذ شبابه المبكّر وجسده معتاد على ارتفاع سقف مقصورته وإلا، لكان كسر رقبته. ألقى كوب الحلاقة المليء بالماء والصابون على الأرض، دون حتى إنذار واضح.

فقال: "كالعادة لا تعرف كيف تقيس كلماتك يا سيدي".

"لا أظن أنني قلت أي شيء مسيء يا سيدي، باستثناء ما يخصّ العبودية".

"إذا سمحت لي، أودّ أن أحلق وأنا وحدي يا سيدي".

كان الطبيب قد أعلن بالفعل أنه سينام في غرفة المؤن، في أسرّة البحارة، وكان يلتقط عدداً من الأوراق والكتب، ويعبر الممر ليصل إلى الحجرة.

طُلب مني في تلك الليلة نفسها أن أُقدم له رسالة اعتذار من الكابتن الذي دعاه مرة أخرى لمشاركة مقصورته، حيث كان لديه على الأقل الحدُّ الأدنى من وسائل الراحة التي وفّرت له طاولة حيث يمكنه أن يعمل فيها على ملاحظاته.

ما رويته للتو سيساعد في شرح ما الذي دفع الكابتن إلى مغامرته مع اليامانا، التي ربما تتوافق مع الجزء الأكثر تصلّباً في

طريقة تفكيره. إذا كان يعتقد حقاً أن العبيد سعداء، فقد يأخذ اليامانا بعيداً عن وطنه ويختبر تجربة تحضيره.

أعلم أن هذه ليست الحقيقة كلها، سيد مكدويل أو مكدونيس. الواقع أكثر تعقيداً، وبالتأكيد فن الكتابة الخاصّ بي ليس كافياً لرسم الظلال الدقيقة لصالح الكابتن -إذا كان بإمكاننا تسميتها ذلك- بالنسبة لبوتون، الذي يتضمّن بشكل غير متوقّع مكانه في مخطّط السلطة السياسية في إنجلترا، ولا يمكن إنكار جانبه الإنساني والديني. ربما كان الشك في أن رجال الأميرالية لم يثقوا به هو ما نضج بداخله، وفي قدرته السياسية -مع أنهم وثقوا بقدراته كرجل بحر، وهو أمر لا جدال فيه- وربّما كان يحاول إثبات شيء ما.

استقبلتنا كيب هورن بعاصفة. وَفقًا للكابتن، كانت أعنف عاصفة اضطر إلى تحملها منذ أن وطئت قدمه السفينة أول مرة. اليوم أستطيع أن أقول الشيء ذاته.

تركنا مضيق لومير، والتففنا حول كيب بنجاح. أعتقد أن الكابتن تصرف، للمرة الوحيدة في حياته، ضد حسّه المهني. هناك شيء ما جعله حريصاً على ترك اليامانا في بلادهم، لمعرفة النقطة التي وصلت إليها تجربة تحضيرهم، وليثبت أن تجربته كانت ناجحة. كنا في يناير، أسوأ وقت في السنة لعبور القرن

الغربي. كانت السفينة تسير في العاصفة بحدّ أدنى من الأشرعة. عندما وصلت إلينا الأمواج -في بحر القطب الجنوبي، أتت الأمواج بثلاث سلاسل متتالية، مثل جبال تحاصر السفينة. صَعدتْ سفينتنا الصغيرة، التي كانت ترزح بالحمولة، على أول قمة مما أبطأ تقدّمها. أما الثانية فأوقفت السفينة تماماً ووضعتنا وجهاً لوجه مع العاصفة. الموجة الثالثة جعلت السفينة تنحرف بعد أن ضربتها على الأجناب وغمرتها في البحر. وكما نقول نحن البحارة، سيد ماكدويل أو ماكدونيس، "نامت السفينة". مرت علينا لحظة رهيبة من الذعر لأنها إذا لم تخرج من هذا السبات، وإذا انقلبت بالكامل، ليس هناك من ينقذها، إنه موت مؤكّد للجميع. لحُسن الحظّ، استعادت السفينة موقعها العمودي، وأشارت الصواري مرة أخرى إلى السماء المظلمة المهددة، وتمكّننا -نحن الرجال- من معانقة بعضنا بعضًا، مرعوبين ولكن كنا آمنين وسليمين. كانت الخسارة الوحيدة هي القارب الذي تم سحبه "من الجذور" من دعاماته فطار إلى قلب العاصفة.

آلهة بوتون الغاضبة، التي أصبحت الآن طليقة، كانت تتحدّانا. ربّما نكون قد تجاوزنا أسس ذلك العالم -البكر والسرمدي أمام الزمن- ولن يبقى شيء كما كان عليه من قبل.

في منتصف ليل ذلك اليوم الرهيب، تمكنا من الرسوّ في كيب هورن الغادرة، وبعد بضعة أيام ذهبنا إلى الشاطئ في وولايا، بلد جيمي بوتون. كما قلت، كنا في يناير في منتصف

الصيف وهو موسم الجمال الذي لا مثيل له في تييرا ديل فويغو.

اقتربنا كثيراً حتى إنّ القارب قد احتكّ بحصى الشاطئ مصدراً صوتاً أجوف. كنت أنا وبوتون ننظر للخليج. كان هادئاً كالبركة، كان مفتوحاً في نصف دائرة وسط هدوء جليل لا يضاهى. تدفق إليه نهر من الجليد. انتقلت الأشكال الغريبة الصغيرة للأطواف الجليدية بالتدريج من الكومة الرئيسة لتستقر على البروزات الصخرية للشاطئ. بين الحين والآخر في الصمت المثير للإعجاب، كنا نسمع الدويّ الخافت للجليد المتكسّر، الذي ارتفع مع أصداء متكررة نحو جبال من الثلج الدائم. خلفنا، كان هنالك امتداد من الرمال الخشنة، مختلطاً بالجذور، وتغطيه أوراق الأشجار والأشنيات ذات اللون الأخضر المسود. بدأت الغابة على الساحل نفسه، مظلمة ورطبة، تطنّ بأصوات منخفضة، ورفرفة الأجنحة الفجائية، ونداءات عبرت من شاطئ إلى آخر. تلألأت جذوع الأشجار المغطاة بالطحالب بلون الزمرد العميق. تباطأت موجات القناة الهائجة عند دخولها الخليج وهمدت بين الصخور بدفعات خفيفة جعلت القارب يلطم الشاطئ.

حدّق بوتون باهتمام إلى المسافة أمامه.

قال: "حيوانات غوناق[1]".

على الطريق، ساحل جزيرة نافارينو ظهر في المشهد. حيث أحاطت كتلة ضخمة من الغيوم بقمم الجبال في الجزيرة. بعد مدّة وجيزة، ميزت بعض النقاط الصغيرة التي تتحرك على قمة تلّة.

بعد كلمته التي قالها، ظل بوتون صامتاً مدّة طويلة.

كما أنني لم أكن أعرف كيف أعبر عن غضبي لما مر به قبل عدة أيام، والذي استمر تأثيره ثقيلاً علينا، فاخترت الصمت أيضًا. لم يكن هناك ما يمكن قوله. في ذلك الصباح، كان بوتون يريد أن يريني خليج طفولته الخفي وكان بمثابة علامة ودية، لفتة مضيافة، بعد الأيام المقلقة التي أعقبت وصولنا.

وهذا ما حدث. وضع الكابتن بوتون على شاطئ جزره، مرتدياً ملابس إنجليزية بالكامل حتى القبّعة والقفّازات. قاده رأيه الخاطئ إلى الاعتقاد بأنّ ملابس بوتون ستثير هيجاناً من الإعجاب والفضول بين اليامانا. لم يغامر أحد بالإدلاء برأيه أو بمناهضته لهذا الأمر. بمن فيهم أنا. استحوذت على بوتون سلبية غريبة. وقف بهدوء على بعد خطوات قليلة من الشاطئ، محاطاً بطاقم السفينة المشغول بإرساء القوارب وإفراغها

(١) الغوناق: حيوانٌ بريٌّ من فصيلة الجمليات، يعيش في أمريكا الجنوبية.

من الصناديق وكل شيء أحضروه من إنجلترا، ويتوقّفون بين الحين والآخر للنظر إليه. غرابة الوضع لم تفت أياً من هؤلاء الرجال. كان هناك شيء في الهواء لا يمكن تحديده، مثل مشهد في كرنفال، ومع أن الكابتن، كان فضولياً ومتحمّساً، لكنه بدأ أنه لم يلاحظه. فجأة نظر جيمي أمامه، وعلى بعد مسافة كبيرة تمكّن من التعرّف على الصوت الحاد لشقيقه الأكبر الذي لم نتمكّن من رؤيته بعد. بعد لحظة من ذلك، بدأت الزوارق تظهر في الخليج. تمكّنت من إحصاء أربعين منها تقترب من جميع الاتجاهات. هزّت فورة من الذعر البحارة، الذين ذهبوا لإحضار الأسلحة في القوارب.

كان الكابتن والطبيب قد تحدثا طويلاً عن هذا اللقاء. كيف سيتصرّف بوتون؟ كان القبطان على يقين من أن جزءاً على الأقلّ ممّا تعلّمه في العالم المتحضر سيأخذ تأثيره من فوره. لكن الطبيب شكك في ذلك. أما بالنسبة لي، فقد كنت جالساً على صخرة على مسافة بعيدة، وشعرت بالإذلال المزدوج الذي تعرض له بوتون كما لو كان صفعة على وجهي.

كان يقف على حصى الشاطئ، مع معرفته أنه كان مراقبًا -يرتدي الزيّ الكامل، وحذاؤه مصقولاً بشكل مثير للشفقة- رفع بوتون رأسه بشكل غريزي ليتنشّق رائحة أسود البحر الحامضة.

رست أول الزوارق على الشاطئ، وتبعها الآخرون. شاهد

بوتون الزورق الذي يخصّ أفراد عائلته، وسار بضع خطوات في اتجاهه وتوقّف. قفزت والدته وأربعة أشقاء وشقيقتان في الماء وسحبوا الزوارق باتجاه الصخور. كان التعبير على وجه بوتون مزيجاً من العار والخوف، وفي اللحظة التي تمكن فيها من لفظ عبارة إنجليزية غير مكتملة، أخفض رأسه. تمكّنتُ فقط من سماع شيء همسهُ بالإسبانية، شيء بدا مثل: "ألا تعرف؟" شكل شعبه دائرة حوله. خرج الرجال والنساء من الزوارق الأخرى؛ كانوا يتحدّثون فيما بينهم ويوبخوننا، وأصواتهم تعلو وتعلو. ثم كان هناك صمت مُتجهّم، وكانوا ينظرون إليه بثبات من الأعلى إلى الأسفل، دون كلمة، وبدا أن أخواته لم يتعرفن إليه وهربن إلى زوارقهن كما لو كانوا خائفين منه. قامت والدته باستدارة كاملة حول ابنها وعادت -أيضاً- إلى زورقها، كما لو كانت تتأكد من أنه تم ربطه بإحكام. في وقت لاحق اكتشفنا أنه قبل ثلاث سنوات، كانت والدة جيمي تبحث عنه بشدة لشهور، معتقدة أن ابنها قد هرب من السفينة، لكنها لم تبد أي شعور الآن، ولم تبد سعيدة ولا حزينة. اكتفت بالنظر إلى زورقها، الذي كان محور اهتمامها.

"تحدّث إليهم"، أمر الكابتن. "اشرح لهم من أين أتيت، وماذا أحضرت لهم. تحدّث إليهم!".

ظل بوتون صامتاً بشكل مؤلم، ورأسه منخفض. ولم يصدر أي صوت من حلقه، كما لو أن الكلمات ترفض أن تأتي، لا بالإنجليزية ولا لغته. لم يخاطب أي شخص بأيّ لغة، ولم يتحدّث أحد إليه.

"هل نسيت لغتك؟" ذهب الكابتن إلى إحدى الحقائب وفتحها بخشونة. "أرهم ما أحضرناه من إنجلترا، أرهم ما الذي ستقدّمه إليهم الحضارة! تكلّم!".

نزع بوتون قبّعته ببطء دون أن ينبس بكلمة.

"تحدث إليهم! آمرك بأن تتحدّث!" فقد الكابتن رباطة جأشه الهادئة.

بدأ اليامانا في الرحيل. صعدوا زوارقهم واتجهوا بخفّة إلى المياه العميقة، وهم يجدّفون أسرع وأسرع ويبتعدون، ويختفون وراء الرؤوس الصخرية.

فعلت عائلة جيمي الشيء نفسه. في اللحظة الأخيرة جاء أخوه الأكبر إليه. تحدّث بضع كلمات جافّة وحادة.

ثم ذهبوا.

كان بوتون المقتلع من جذوره يرزح تحت ثقل تلك السنوات الثلاث. ربّما كان يشعر بالخجل من عري شعبه بقدر ما كان يشعر بالخجل من زيّه. إن السنين الطويلة من العيش مع البيض قد محوا جزئياً من ذهنه الحالة العارية التي عاش فيها شعبه، وهو الآن يشعر بالخجل.

شاهدناهم يختفون، يجذّفون في زوارقهم، مع أطفالهم وكلابهم، لإشعال حرائق الليل. كان الخليج مهجورا، مرة أخرى، إلا من طيور الغاق التي كانت تنسل مرة أخرى من بين

الصخور. من الجزر جاء هدير أُسود البحر، الذي بدا لي وكأنه عويل جنازة. بقينا جميعاً بلا حراك، وكأننا ننتظر حدوث شيء ما. وضع جيمي القبّعة والقفّازات على صخرة بعناية، فخرج صوت واحد مكسور من حلقه عندما رأى آخر زورق يختفي خلف صخور أسود البحر.

أدار الكابتن ظهره لبوتون وكسر الصمت، ممّا أعادنا إلى ركود تام كتعويذة شريرة من خلال إعطاء البحارة أوامر قوية؛ فقد تحتّم عليهم تكديس الصناديق وتغطيتها في حالة هطول الأمطار، وتوجب نصب الخيام. سنقضي تلك الأيام على الأرض، حتى نبني المنزل ونتركه جاهزاً من أجل جيمي وفوجيا ويورك. وسيكون المركز الحضاري الذي كان حلم بريطانيا العظمى.

اقتربت من بوتون: "ماذا أخبرك أخوك؟".

لم أكن متأكّداً من رغبته في التحدّث لكنه فعل.

"مات والدي الشتاء الماضي".

هذا ما أجفلني وأفقدني التوازن تماماً، فقد تخيّلت اللوم والاتهامات.

"أنا آسف للغاية جيمي".

"لقد كنت أعلم. في المزرعة حلمت أن أبي مات. يحدث الأمر دائماً بهذه الطريقة".

وكما عبر الطبيب عن ذلك بشكل عرضي، في تلك الليلة أثناء العشاء المرتجل في الخيمة التي أقيمت على الشاطئ، كان الاجتماع مثيراً للاهتمام، مثل اجتماع حصانين في منتصف حقل. لقد كان منتصراً أمام الكابتن المهزوم، كما لو كان هناك نوع من الرهان غير المعلن بينهما. لقد توقّعت جدلاً طويلاً حول تلك "الكائنات المسكينة" التي بصعوبة عدّها الطبيب الشاب بشرية. طلبت أن يتم إعفائي من تناول الطعام معهم وخرجت.

كان يورك وفوجيا يأكلون مع دائرة البحارة المفعمة بالحيوية حول النار. ذهبوا لصيد المحار، وكأن القيام بذلك أعادهم مرة واحدة إلى أرضهم الأصلية، بدوا سعداء، وجوههم مشرقة أمام اللهب. لا يوجد شيء بجمال ليلة صيفية غير عاصفة في تييرا ديل فويغو: ظهر بريق فوانيس السفينة بشكل خافت على وجه الماء، وألقت الأشجار القريبة التي أضاءتها النار أطيافاً عابرة غريبة، وارتفع الدخان نحو سماء تألّق فيها الصليب الجنوبي الذي لا مثيل له. نظرنا إليه أنا وبوتون مدّة طويلة. حلّ صفاء فريد من الجبال أشبه بالبلسم، وبدا أنها تبعد ما حدث بعد ظهر ذلك اليوم. وعلى الجانب الآخر من القناة، هناك في السواد على طول الساحل، ارتفعت نيران مشاعل الياماناً الأبدية وأضاءت الليل.

لكن الهدوء كان مجرد وهم. فما حصل بقي عالقاً في روح بوتون كشظية مدفونة في اللحم.

يجب أن أكتب أنني لا أستطيع أن أفهم لماذا أبهجني فشل الكابتن، ووجود دليل على هذا الفشل. فقد تحيّزت إلى جانب بوتون بشكل تلقائي، ولكن لماذا؟ بصرف النظر عن صداقتنا، ربما كان ذلك لأنني عانيت -أيضاً- من سلطة الكابتن المتغطرسة، وخفت من كل ما تمثله تلك السلطة؟ ربّما لأنه من خلال بوتون كنت أقوم بانتقام خاصّ بي من إنجلترا التي كنت أكرهها وأحبّها في الوقت نفسه؟ لا أدري. ولا أعتقد أنه من المهم لهذه القصة أن ننظر عميقاً في المشاعر المختلطة التي لم تعد لها أهمية كما قبل، وإذا كانت موجودة فلم أعد أذكرها.

على أي حال، تملّكني شعور بالرضا الشديد لم أتمكّن من شرحه، وكان عليّ إخفاؤه بطريقة ما. لم يكن ذلك مبنياً على ما رأيته من بوتون الكتوم الذي كان يختفي أوقاتًا تطول وتطول في الغابة أو الجزر، يذهب إلى تلك الأجزاء من بلاده التي كانت غير مألوفة أو يتعذر الوصول إليها بالنسبة لنا.

سرعان ما اكتشفت ما وراء مظهر جيمي الخارجي الغامض، فقد كان يسترد أراضيه في جرعات كبيرة -كان يستعيد الريح والغابات والبحر والجبال- وأن ذلك اقترن ببهجة قرّر إخفاءها كما فعلت أنا. حينها أخبرني ذات صباح أنه يريد أن يريني مكاناً مخفياً، وهو خليج قضى فيه جزءاً كبيراً من طفولته.

هناك جلسنا -والماء يخرخر عند أقدامنا- وراقبنا الليل

يحلّ ببطء، وأسراب من طيور النوء ترتفع وتنخفض بتناغم رائع، وتتسابق على سطح الماء لاصطياد الحشرات.

لم نتحرّك أو نتحدّث، لكن وجود بوتون هناك كان مختلفاً عن وجودي.

أجفلني حين قال: "بالالا". كنت نصف نائم. "بالالا! ما هذا؟" قلتُ وأنا نصف جالس وأسند كوعي على الرمال.

"هذا هو الاسم الذي يطلقه شعبي على شعبك" قال بوتون. "بالالا: الناس الذين لا يستطيع أحد أن يفهمهم. فأشياء البيض لا فائدة منها هنا. هذه السفينة كبيرة جداً ولكنها ليست جيدة للصيد؛ منزل مصنوع من الخشب، ليس جيداً أمام النار، والأحذية زلقة على الأرض الصخرية...". ثم عاد إلى الصمت مرة أخرى.

كنت أحاول أن أشرح لنفسي شيئاً ملأني بالفضول. وبطريقة غامضة لم أفهمها، كان بوتون يتحكّم في العالم الطبيعي من حوله. فاتباع أي طريقة أخرى، كان سيجعل البقاء مستحيلاً. لقد كان تماسكه الإنساني التام الذي أصبح بلا شكّ يتكثّف في أوقات المحنة والعداء، عندما هبت الرياح القطبية، وكان العالم مكاناً كئيباً غارقاً في عاصفة هوجاء.

كان لدي يا سيد مكدويل أو مكدونيس، شعور غريب بأنه كان يمثّلنا، وأنه هناك في نهاية القارة، كان بوتون وعشيرته يضيئون مشاعلهم ويشهدون على طلعة البشرية. قد يبدو الأمر

مبالغاً فيه، ولكن كما أشرت من قبل في مكان ما، فإن القواعد الوحيدة التي تحكمني هي تلك التي تتعلّق بتجربتي الخاصة.

كان هناك شيء واضح: فحالما استعاد بوتون عالمه، انسحب من بيننا.

بُنيَ المنزل الخشبي في غضون أيام قليلة، وتميّزت حديقة الخضار فيه بجدار حجري. كان معسكراً، حسب خطة الكابتن، سيُترك فيه بوتون مع كل شيء يُحضر من إنجلترا، وفي خياله الريفي، هو المكان الذي سيقيم كل من فوجيا ويورك وأطفالهم منزلهم فيه أيضاً. رأيت كيف كان كل هذا بلا معنى. على بعد آلاف الأميال، كانت الفكرة مقبولة، بل تستحقّ الثناء، ولكن عندما تجسّدت في المكان، أصبحت سخيفة. فالطبيعة لا تعطي فرصة للخيال. لقد تم ترتيب بذور حديقة الخضروات التجريبية وتصنيفها بعناية. ستترك هناك أباريق الشاي، وأغطية السرير، والأدوات، والأواني والمقالي، والمكانس، والأباريق، والسكاكين -وهو توليف متواضع لهدايا الحضارة- سيترك هناك تحت سماء غائمة في مناخ وحشي لا يمكن التنبؤ به.

واصلت سفينتنا مهمّتها على طول ساحل المحيط الهادئ. بعد مرور عام، مررنا مرة أخرى عبر الخليج في طريق عودتنا إلى إنجلترا. وعندئذٍ، رأينا بأنفسنا نتيجة ما بدأه الكابتن قبل أربع سنوات تقريباً.

بعد ظهر هذا اليوم، بينما كانت غراسيانا تتجوّل بصمت وتحضر المتة، فتّشت في حقيبتي مرة أخرى. وجدت ما كنت أبحث عنه، وهو نسخة من التايمز من السبت ١٠ ديسمبر ١٨٥٩، الذي يتضمّن رسالة من قارئ معيّن يشرح -ربما أفضل، وبلا شكّ بشكل أكثر موضوعية مني- بعض الجوانب المشكوك فيها لما يسمّى ببعثة باتاغونيا.

المُوقّع على الرسالة هو جورج رينيه، حاكم الجزر السابق.

هذا ما كتبه رينيه:

"في نهاية مارس عام ١٨٥٥، وصل الكابتن سنو إلى بورت ستانلي في مركب شراعي صغير. عندما استقبلته مع اثنين من مجموعته، أخبروني أنهم كانوا يبحرون في الجزء الغربي من الجزر، وأنهم رسوا ليتمكّن اثنان من أعضاء البعثة من الاستقرار في جزيرة كيبل بمواد لبناء المنازل والمؤسسات التجارية، وممّا استطعت أن أكتشفه، فعلوا ذاك بالحد الأدنى من الإمدادات.

"مثلي، وزير المستعمرات، الذي كان حاضرا، كان قلقاً للغاية بسبب التسرع الكبير لمثل هذا العمل. لا يمكنني تذكّر الكلمات التي استخدمتها بالضبط، لكنني أعلم أنني ذكرت للكابتن سنو ميزة، بل وضرورة، وهي إرسال الإمدادات لهم على وجه السرعة لأنهم سيحتاجونها قريباً بالتأكيد. ولمَّا لم نتلقَ ردًّا على اقتراحنا، فلن يكون من غير المحتمل أن يُتّهم

الكابتن سنو بالقتل إذا مات أحد الرجلين الذين بقوا في كيبل بسبب هذا النقص".

أنا أقاطع هذا لأذكر شيئاً ما، سيد مكدويل أو مكدونيس، وهو شيء ربما كنت تعرفه: فالمذكور الكابتن باركر سنو كان يمثّل طليعة للبعثة التي كانت في المراحل النهائية من الإعداد في إنكلترا، التي كانت مصحوبة بالإثارة الكبيرة والكتابة العلنية، حيث سيكون زعيمها القس ديسبارد، وسيغادر قريباً مع عائلته للاستيلاء على المستوطنة في جزيرة كيبل في أرخبيل فوكلاند. كان باركر سنو موظّفاً في البعثة، وهو بحّار. سرعان ما أصبح من الواضح أن رأيه كان مخالفاً لآراء أصحاب العمل، المبشّرين. تابع الحاكم السابق رينيه:

"لا أرغب في وضع أي عقبات في طريق هذا المشروع الرومانسي، فوافقت من فوري على منحهم حق وضع اليد. ثم تحوّلت المحادثة إلى الطريقة التي سيتم بها تنفيذ هذا العمل. قالوا: إنّ القس ديسبارد لم يغادر إنجلترا بعد، ومن ثَمّ، حتى يحين وصوله، سيعملون كرواد. سوف يتخذون الخطوات الأولى نحو تربية الماشية وسيجلبون الفويجيين الذين، أثناء تعليمهم المسيحية، سيتم توظيفهم في أنشطة ومهام مختلفة.

"أجبت بأن الهدف كان جديراً بالثناء إلى حدّ كبير، لكنني لم أتمكّن من رؤية جدواه، فسألتهم كيف سيتمكنون من جعل

السكّان الأصليين يستقرون في الجزيرة. نظر الكابتن باركر سنو وأصدقاؤه بعضهم إلى بعض بارتباك، وبعد توقّف، قال أحدهم ببراءة: "أعتقد أننا سنشتريهم من رؤسائهم".

"حذرّتهم بشدة وقدر المستطاع من احتمال اتهامهم بالاختطاف إذا تصرّفوا بهذه الطريقة، وأخبرتهم أنه إذا أحضروا هؤلاء المتوحّشين البائسين إلى جزر فوكلاند، فسيكون من واجبي بدء تحقيق لأرى ما إذا كانوا قد جاؤوا بإرادتهم الحرة، وبعقود قانونية".

شكا الحاكم السابق رينيه من أن البعثة قد مضت، وقبل أن ينتهي قال: "على نجاح الكابتن سنو ورجاله في إقناع عدد من الفوجيين للذهاب إلى جزيرة كيبل، لا أستطيع أن أؤكّد أنه سيتمّ تزويدهم بالضروريات". ثم ختم كلامه:

"لست على علم جيد بالخطوات التي اتبعها التبشيريون بعد ذلك، إذ انتهت جولة مهمّتي، وبسبب العودة إلى إنجلترا بعد ذلك بوقت قصير. لا يمكنني أن أوبّخ نفسي لعدم تحمل المسؤوليات دون اتخاذ تدابير كافية لمنع تكرار مأساة مؤسفة مثل مأساة الكابتن غاردنر".

إن رسالة الاعتذار التي قدمها الحاكم السابق لجزر فوكلاند مثيرة للاهتمام حقاً. فهي تظهر الطابع القانوني الصارم لمسؤولي الإمبراطورية حتى في أحد أبعد أركانها. أصبح هذا واضحاً في محاكمة بوتون، التي تم إجراء تحقيق بشأنها، مع

بعض المبالغة، التي قد يكون بعنوان: الإمبراطورية ضد جيمي بوتون.

بعد ذلك بعام، بعد الإبحار ذهاباً وإياباً على ساحل المحيط الهادئ، عدنا إلى الخليج ووصلنا إلى وولايا حيث كنا قد بنينا المنزل الخشبي الصغير قبل اثني عشر شهراً. عندما اقتربنا من مضيق موراي، كنت في مقدمة المركب بانتظار رؤية زورق بوتون وصوره الظلية عندما يخرج لمقابلتنا. أعتقد أن الكابتن كان يأمل في رؤيته ورؤية يورك وفوجيا عند المدخل أو لمفاجأتهما، مثل المزارعين الجيدين، الذين يجمعون البطاطا من الحديقة.

لم يتبقّ شيء تقريباً من المنزل. تمكّنت بعض الخضروات البائسة من الظهور هنا وهناك ورياح مثل الإعصار كانت تعصف بهم بلا رحمة. الشيء الوحيد المتبقي بمثابة علامة على عملنا هو الجدار الحجري حول المكان الذي تم بناء المنزل فيه. لا يمكن لأحد أن يتخيّل المزيد من الخراب. ومن المفارقة أن العزلة كانت أكثر إثارة للدهشة بسبب رقصة طيور الغاق التي تكرر صعودها ونزولها اللا متناهي لتسقط المحار من الهواء فتكسره على الصخور. وقفت أشاهد حركتهم المتوارثة وهم يتأرجحون لأعلى ولأسفل.

مشينا على طول المنحدرات الفارغة التي رافقها ضجيج

الريح. كان الكابتن يراقب ويدوّن في دفتر ملاحظاته دون أن ينطق بكلمة، لكنني كنت أعلم أن ما يهمّه حقاً هو العثور على بوتون لمعرفة ما حدث. كان الدكتور يجمع نماذج حصى، أما الطاقم فقد كانوا يبحثون عن مياه شرب لملء البراميل. أنا صعدت إلى أعلى التل، وهناك في وسط المشهد المقفر صرخت بأعلى صوتي: جيمي بوتون... ولم يظهر أحد. غطّت السحب المنخفضة القمم، وتلوّنت التلال على طول الساحل الشمالي للقناة باللون الأسود، ثم بدأت تمطر رذاذاً. لم تكن هناك نيران تحذر من وجودنا، ولا أعمدة دخان تتصاعد خلف المنحدرات كإشارة مألوفة أنهم شاهدونا. إلى أين ذهبوا جميعاً؟ أحبط شعور بنذير شؤم الرجال الثمانية الذين جاؤوا إلى الشاطئ في القوارب. عندما حلّ المساء عدنا إلى السفينة. لم يجرؤ أحد على قول ما كان يفكر فيه: إذ ربما مات بوتون أو ربما، حصل ما هو أسوأ من ذلك، أن شعبه قتلوه. قلت ذلك للكابتن. مر عام وربما لم يعفُ عنه أبناء بلده لذهابه في رحلة مع الرجال البيض.

قال الكابتن بإيجاز: "لا أظن ذلك".

من ناحية أخرى، ظن الطبيب أن كل شيء ممكن، وربما حدث أي شيء. لا يمكن توقّع أي شيء منطقي من تلك المجموعة البشرية.

طلبتُ أن أقوم بنوبة الحراسة ليلاً، وبقيت على سطح

السفينة. لم يكن هناك نيران على الساحل. في الصباح الباكر من اليوم اللاحق كنا نشرب القهوة في مقصورة الكابتن عندما سمعنا صرخات على ظهر السفينة. صعدت من فوري ونظرت إلى جانب السفينة، والكابتن ورائي.

ما رأيناه جعلنا عاجزين عن الكلام. كان هناك زورق يقترب من الميمنة فيه فتاة، طفلة تقريباً، كانت تُجدف في الماء بمهارة، أولاً من إحدى الجهات ثم من الجهة أخرى، ونار صغيرة بالقرب من قدميها. كان هناك رجل يقف عند المقدمة. كان عارياً ونحيلاً ولديه كتلة من الشعر المتشابك. الشيء الوحيد الذي حماه من الريح جلد الفقمة الذي أحاط بكتفيه والذي لم يكن أكبر بكثير من منديل. كان وجهه، المطلي باللون الأسود، ملوناً بخطّين أبيضين متوازيين، أحدهما مستوٍ مع شفته العليا يصل من الأذن إلى الأذن، والآخر فوق جفونه من أحد صدغيه إلى الآخر. كان جيمي بوتون. كان مظهره مخيفاً، وبدا لي أن الطلاء الذي عددته طلاء حرب أو تهديد قد حول مظهره، وأثار في الخصم -إذا كان رجلاً أبيض مثلي- الدافع الغريزي للذود عن النفس.

عندما تمكّنت من استعادة نفسي، خرجت صرخة لا إرادية من حلقي.

"بوتون! جيمي! هنا، هنا في الأعلى".

جاء الزورق بمناورة ماهرة إلى جانب السفينة. ثم قام

بوتون بتصرف قصدني والكابتن فيه. لفتة مجاملة متعمدة أو ربما تنازل. انحنى في الزورق ومال فوق الماء وغسل يديه ووجهه وأزال الطلاء من عنقه وجسده. ثم استقام مرة أخرى:

"جاك! كابتن! أنا قادم".

رمينا له سلماً.

بدا جيمي وهو واقف على سطح السفينة نحيلاً ولكنه أقوى عضلياً مما كان عليه قبل عام. لقد تغيّر ولم يعد صبياً، هو الآن رجل ذو جسم قوي، وبدا أقوى بكثير مني. انبثق منه شيء لا يمكنني تفسيره، وهو ثقة ذاتية ظهرت في مجرد حضوره، بالطريقة التي وقف بها هناك على سطح السفينة دون حراك. استقبلناه جميعاً بالكلمات فقط لأن بوتون حافظ على مسافة بينه وبيننا، فقد كان من الواضح أنه لم يكن يريد الاقتراب للمصافحة.

كان هناك مسافة بينه وبين البيض لم تكن موجودة سابقاً. بصعوبة استطعنا أن نلمح بوتون الذي كان يرتدي حذاءً وسترة إنجليزية، جيمي الذي أتى من لندن قبل عام. في نظر الكابتن، هذا الرجل الذي عاد إلى أكثر المناطق بدائية، عاد إلى ما كان أسلافه عليه، هنديًّا هائمًا على وجهه في الزورق، ولم يحتفظ بشيء ممّا أعطاه إياه. لم يفعل شيئاً. لم يلعب دوره. لم ينقل الحضارة لأحد ولم يسلم لشعبه أي شيء تعلمه. كانت صورةً لإخفاقه.

على التأثير المدمّر لهذه الحقيقة التي لا تقبل الجدل على الكابتن، فقد تعافى، ودعاه لمشاركة العشاء معه ومعي في مقصورته. على الأقلّ لا يزال جيمي يحتفظ بالكثير من لغته الإنجليزية. برأي الطبيب، لم تكن عودة بوتون إلى الحالة الوحشية أمراً مفاجئاً على الإطلاق.

قال بوتون بعد أن نظر إليّ سريعاً: "تناول الطعام فكرة جيدة. أحتاج إلى ملابس".

جلبت له سروال وسترة بحّار. ظهرت ابتسامة حزينة على شفاه الكابتن عندما رأى أن جيمي استخدم سكينه وشوكته بشكل صحيح وكان يستعيد الإنجليزية بطلاقة في المحادثة. ومع ذلك، كان هناك توتر كبير في الأجواء. نظر إلينا بوتون من مسافة بعيدة. لم تكن نظراته نظرات استياء ولا سعادة، كانت مجرد مسافة. قال لنا إنه تزوّج، وكان هناك غارات من قبل صيادي الفقمات، وأن شتاءً قاسياً للغاية قادم في الطريق. سأله النقيب عن المنزل وعن فوجيا ويورك. كما لو كان يتعامل مع أحداث بعيدة تنتمي إلى وقت يصعب عليه تذكره، ألف بوتون وصفاً موجزاً كان منه الواضح أنه بمجرد أن تصبح مؤخّرة السفينة بعيدة عن الأنظار، سيظهر اليامانا المختبئين خلف التلال وسيحملون معهم كل شيء. في أرضهم، لا تزال العادات القديمة سائدة وهي العادات التي ربما يكون نسيها في بلد الرجال البيض: أي شخص لديه الكثير من أي شيء يجب أن يشاركه مع إخوانه. أمّا بالنسبة لفوجيا ويورك، فقد أخذوا

كل ما يمتلكونه، وعبؤوه في زورقهم، وسرقوهم في الليل وفرّوا إلى أرضهم بينما كان الآخرون نيامًا. أمّا المنزل فقد تم تفكيكه لاستخدام خشبه.

روى بوتون ما أقوم باستعادته الآن دون أن يرفّ له جفن، ودون أي عاطفة في صوته.

"ألا ترغب في العودة إلى إنجلترا يا جيمي؟" طرح الكابتن السؤال بنبرة قاسية، وربما اتهامية.

اخترقت صرخة الأجواء المتوترة في المقصورة، عقبها نواح حادّ يرثى له. وأوضح جيمي بهدوء أنها كانت صرخات زوجته. كانت الفتاة تناديه من الزورق.

"أخشى أن البيض سيأخذون بوتون".

نظر إلينا بوجه بارد. كانت الصرخات تعلو لتمزق القلب أكثر وأكثر. لم يتزحزح أحد؛ لأن جيمي نفسه لم يفعل. تابعنا تناول الطعام بهدوء. فجأة وقف على قدميه. فعلت أنا والكابتن الشيء نفسه. صعدنا خلفه إلى سطح السفينة. وقفت المخلوقة المسكينة الصغيرة النحيلة، التي كانت تحرس ملكيتها الوحيدة، وهو الزورق تصرخ، وثدياها الصغيران يهتزّان بسبب العبرات والقشعريرة. لاحظت انتفاخ بطنها.

قال بيأس بالإنجليزية: "جيمي بوتون قادم إلى الزورق!".

وفجأة اتكأ على الجانب وصاح بلغة اليامانا بضع كلمات

جافّة وحادة. هدأت الفتاة كما لو أنها وقعت تحت تأثير سحر. واجهنا بوتون. نظر إلى الكابتن كما لو كان يستأنف المحادثة التي حصلت في المقصورة.

"لن أذهب إلى إنجلترا بعد الآن يا كابتن. لن أذهب إلى إنجلترا على الإطلاق".

بدأ في نزع ملابسه لإعادتها. قلت له أن يحتفظ بها، ثم أسرعت إلى خزينة المؤن، وجمعت الخبز والبسكويت وأي شيء وجدته في متناول يدي من أجل زوجته. وقف لاستلام ذلك. وخلال ثانية كان على درابزين سطح السفينة جاهزاً للقفز. ذهبت إليه.

"وداعاً جيمي" قلت مقترباً منه لاحتضانه.

أوقفتني نظرته فجأة. وبعد مرور ثانية، ظهر في عينيه من جديد بصيص سخرية وتواطؤ لا يوصف. مد يده.

"وداعاً جاك".

قبل أن يبتعد الزورق عن السفينة، أراني بوتون شيئاً، وهي هدية قدمها لي: حربة مصنوعة من العظام، والتي ألقها بمهارة إلى يدي. أبحر الزورق مغادراً، كانت المرأة تجدّف، وأعجبت بالقوة التي ابتعد بها مثل هذا المخلوق الهشّ عنّا.

كبادرة أخيرة، أشعل بوتون مشعلاً على الساحل، والذي فهمت أنه إشارة لي، حبس الكابتن نكد المزاج نفسه في

مقصورته، وأشار الطبيب أنه مهتم أكثر بالصخور والأشنات أكثر من اهتمامه بأولئك الهمج.

مع أنني ظننت ذلك في ذلك الوقت، لم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها جيمي.

لقد اتخذت اليوم قراراً. في الأشهر القليلة الماضية، بعد أن رأيت غراسيانا مفتونة جداً بكتاباتي، والتي لا يمكنها مشاركتها، أعطيتها مهمّة خاصة بها. حيث طلبت منها أن تبدأ في خياطة هذه الأوراق معاً كما لو كانت صفحات. شرحت أن هذه هي الطريقة التي تصنع بها الكتب. لقد أخذت هذه المهمة على محمل الجدّ وبمنتهى التفاني لدرجة أنني لم أستطع إلا أن أتأثر.

لا أعتقد أنني أخبرتك، سيد مكدويل أو مكدونيس، أنني قبل بضعة أشهر من عودتي إلى بلدي بشكل نهائي في نهاية عام ١٨٥٦ مررت عبر كيب هورن للمرة الأخيرة. في تلك السنوات، كنت أبحر على متن سفينة هولندية، وقد أخبرت قائدها قصة بوتون. في هذه المرة، ساعدتْ معرفتي بالمنطقة على مساعدة الربّان بشكل كبير، ممّا سمح لي أن أطلب من القبطان شيئاً: وهو محاولة العثور على بوتون، عن طريق الذهاب إلى متاهة الجزر وقنوات بلاده لمعرفة ما إذا كان لا

يزال على قيد الحياة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يبحر فيها الهولنديون عبر الأرخبيل، إلا أن أساطير الرعب حول سكانها، التي انتشرت في موانئ أوروبا، لم تؤهبهم للبقاء هناك مدّة أطول مما استدعت الضرورة القصوى. احتجزَنا ضبابٌ كثيف، فطلبت من القبطان السماح لي باستخدام قارب للذهاب إلى الشاطئ. بدا هذا اقتراحاً جنونياً، وكان كذلك بشكل جزئي. كنت على علم بهذه الفرصة الأخيرة، وهو آخر مرور لي عبر بلد بوتون. لم أطلب من أحد أن يذهب معي ولم يتطوّع أحد لذلك. حملت حقيبة مع هدايا لجيمي وعائلته في حال التقيت بهم، وهو ما كان بعيد الاحتمال.

نزلت أخيراً وبدأت في التجديف. كنا بالقرب من مضيق موراي، عند مصب مضيق بونسونبي، وسط بلد بوتون. كان مكاناً تذكّرته جيداً. ومع ذلك، فإن الضباب جعله خياليًّا، وشبحيًّا وغير مألوف بشكل مقلق بالنسبة لي. اختفت الجبال ومنحدرات التلال، وكانت جميع النقاط المرجعية تتلاشى في سطوع حليبي حيث ضباب شديد ودوامات تلفّ كل ما هو موجود هناك.

كنت بدأت أفكّر أن كل ذلك كان مجازفة مجنونة، وفجأة، عندما كنت على جانب الميناء، مثل شبح غريب، جاء قارب جليدي صغير باتجاهي، كان شكله غير عادي حتّى إنه أذهلني. شعرت بالشلل للحظة، فوضعت المجاديف في مساندها ووقفت.

"جيمي بوتون". صرخت.

ضاع صراخي في الضباب... جاء صدى خافت من بعيد، فواصلت التجديف ببطء.

كنت أسمع صوت رفرفة أجنحة وصخب ماء. صرخت من جديد مرة أو مرتين. أدرت القارب جاهزاً لأعود أدراجي وأجد طريق العودة إلى السفينة، لكنني لم أعد قادراً على رؤية الفانوس الذي كانوا قد أضاؤوه لي على منصة الصاري الرئيسة. لم أستطع تمييز شيء سوى ركبتي. حتى إنني لم أرَ أمامي مقدمة القارب الذي كان غارقاً في سحابة سميكة من الضباب. ظننت أنني رأيت جداراً أبيض. مررت بثوانٍ شعرت فيها بالذعر.

"جاموس بوتون، هنا!".

كان أمامي، كما لو أنه ظهر من لا شيء، ظهرت أمامي مقدّمة زورق سوداء وهناك شخص واقف فيه.

"بوتون هنا".

أشار إليّ لأتبع زورقه. جاء معه شابة وصبي صغير يبلغ من العمر ثلاث سنوات تقريباً، وكلب. بعد ذلك بوقت قصير قفزنا إلى الشاطئ وسحبنا القوارب على الحصى. عانقته طويلاً واستقبل عناقي بقوة. كان مظهره بائساً، مع أنه كان لا يزال مهيباً. لقد كان الصبي البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً الذي

فُتن بزوج من القفازات بعيداً جداً، كان من الماضي؛ والآن صار مجرد رجل غليظ البنية في منتصف العمر مثلي. رجل راقبني بصمت. رفع يده ولمس ذراعي.

"جاك".

قلت: "صديقي".

"نعم، جاك صديقي"، كرر جيمي بصعوبة وبدا أنه يفصل كلماته. "سنوات عديدة"

وأشار إلى وجهه ووجهي، فوافقت على ما قاله:

"سنوات عديدة، جيمي".

بدأ العمل على الفور. لا أعرف كيف، لكنه جمع بعض الفروع في وسط الضباب، والآن أرسل زوجته إلى جلب الجمر من الزورق. بعد برهة اشتعلت النار ودفأتنا. جلست المرأة بخجل بعيداً عنا قليلاً، والطفل بين ركبتيها والكلب إلى جانبها. انحنى جيمي بجانب اللهب الذي استمر في تغذيته، فعلت الشيء نفسه، لكنني ذهبت أولاً إلى القارب لأحضر الحقيبة.

قلت: "لبوتون وعائلته".

راقبتْ المرأة والصبي الصغير الحقيبة بلهفة، لكنهما لم يتحركا حتى أعطاهما بوتون إشارة. كانت المرأة تفحص

الأباريق والأواني والمقالي والحبال والسكاكين وتصدر أصواتاً صغيرة تعبيراً عن الفضول والإعجاب. كان هناك -أيضًا- لحم البقر المقدّد والبسكويت التي سرعان ما أكلها الصبي والمرأة. بوتون لم يأكل. وأشار الصبي:

قال: "كوكو شي".

كان هناك -أيضًا- زوج من القفّازات. قام جيمي بفحص كل شيء ثم أعاده إلى الحقيبة. هناك حول النار، كنا مغلّفين بضباب أبيض يشوّه الأصوات بطريقة غير طبيعية، وبدا أننا الناجون الوحيدون من عالم ينتهي. لم يكن الأمر كذلك؛ فقد كان أبناء بلد بوتون يراقبوننا ويراقبون السفينة من مكان ما أو من عدة أماكن.

لبرهة نسيت كل شيء. وببطء عادت أخوتنا القديمة إلينا واستقرت بيننا مثل النار. لم تبدُ عليه الدهشة من لقائنا. عندما أشرت إلى ذلك، أجاب أنه قد رأى ذلك سلفاً في الحلم، رأى عودتي ولقاءنا، كما حدث قبل سنوات في إنجلترا، عندما رأى وفاة والده.

"رأيت جاك قادماً في الحلم وأخبرت الآخرين".

كان تأكيد الحلم شيئاً طبيعياً. لذلك لم يكن لقاؤنا عرضياً. كانت السفينة قد شوهدت في اللحظة التي ظهرت فيها مقدّمتها في المصبّ الغربي لقناة بيغل. كان جيمي سعيداً بتصرفي، بمجيئي للبحث عنه، والذي كان من المقرّر له أن يكون.

استعدت الشعور بأن منطق بوتون كان الأقوى، على الأقل هناك، وقبلت -أيضاً- فكرة أن الاجتماع كان مقدراً.

"الرجال البيض سيئون للغاية يا جاك".

كان يبحث عن كلمات بلغة استجاب لها عقله وحلقه ببطء في كل مرة، أخبرني بوتون بإنجليزية ركيكة عما حدث مع عشيرته.

كانت السنة السابقة كارثية. جلب شتاء قاس جوعاً شديداً لم يمر على الجزر منذ فترة طويلة. إحدى زوجاته -أو زوجته السابقة، لم أكن أفهم تماماً- تعرضت للاغتصاب والقتل من قبل صائدي الفقمة على وجه التحديد لمخاطرتها الكبيرة في البحث عن الطعام. قاموا بسحبها إلى زورق تجديف ثم إلى السفينة، وفي اليوم التالي ألقوا بها في البحر. لقد حاربت كرجل، لكن الصيادين كانوا خمسة وكانوا يحملون أسلحة نارية. كان الإنجليز قد نصبوا معسكراً على جزيرة كيبل في جزر فوكلاند. قاموا بنقل الهنود، واحتجزوهم بضعة أشهر، ثم أعادوهم إلى تييرا ديل فويغو. لم يرغب أي منهم بالذهاب. لقد قاموا بذلك للحفاظ على حالة التوازن، حتى لا "يغضبوا الرجال البيض". غضبت مجموعة من ذكور اليامانا لأنهم أرادوا منهم ترك أطفالهم في البعثة؛ في الواقع، أول الواصلين من الرجال الإنجليز المدعوين مبشّرين، أرادوا "اصطياد" بعض الأطفال من خلال ملاحقة زوارق النساء. وهناك في

كيبل، أطلق عليهم الإنجليز اسم اللصوص.

كان بوتون جامداً عندما كان ينظر إلى النار ويتلو صلاته. نعم قام اليامانا بقتل بعض البيض الذين نجوا من السفن الغارقة، وكلما رأوا سفينة أو قارباً، كانوا يضعون لافتات تظهر أنهم سيقتلونهم ويأكلونهم في قطع صغيرة. لقد كانت تلك الطريقة الوحيدة لتخويف المغتصبين وقاتلي الحيوانات وإبقائهم بعيداً. قضى صيادو الفقمات على أعداد كبيرة من الجراء، ولم يبق أي منهم، لذلك لم يتمكّنوا من التكاثر. وكان على شعبه البحث عن الطعام بعيداً عن الساحل، هناك في الغابات.

ولإلهائه عن كل هذه المصائب، قلت أنّ لديه ابناً وسيماً، جعله أكل الطعام الصحي يغرق في نوم عميق، محشوراً قرب الكلب الذي آواه بالقرب من النار. في غضون ذلك، ذهبت المرأة مرات عدة لتفقد الزورق وعادت بصمت لمتابعة محادثتنا بفضول. سألت عن بقية عائلته. كان بوتون فخوراً. فأحد أبنائه، البالغ من العمر اثني عشر عاماً، سيحضر مراسم الحفل الكبير في الكوخ الأكبر في غضون أيام قليلة. كان مكاناً سرياً، في جزيرة يعرفها شعب اليامانا فقط.

قال بوتون بفخر، "التعاليم يا جاك"، مغلقاً دائرة انفتحت في نفق زمني مشوش، يعود إلى لحظة في الماضي الذي بقي فيه شيء لم أفهمه بالكامل.

وافقت: "التعاليم".

بعد وقت قصير، اتبعت زورقه عبر الضباب وهو ينسل بهدوء في عالم أبيض صامت كما لو أنه حلم. كانت السفينة أقرب مما كنت أتخيل. عندما ألقوا إليّ السلم، مد يده.

كانت الظلال المبهمة التي رسمتها النيران الخامدة ووجه كوكوشي اللامع الصغير هي آخر الأشياء التي رأيتها قبل أن يختفي كل شيء بكل هدوء دون كلمة، دون همسة، هناك في كهف يملؤه الضباب والظلام. لم يكن بوتون مهتماً بلقاء الهولنديين. لقد كان يكره البيض.

لم أتخيّل، لم أستطع أن أتخيّل، أنه في المرة القادمة التي أرى فيها بوتون سيكون جالساً على مقعد المتهم. فقط بعد أربع سنوات من ذلك.

الجزء السادس

[جزر فوكلاند، ١٨٦٠. في الصباح].

انضمت الذكريات البعيدة إلى الذكريات الحديثة. هذا ما يبدو أن القصة تمليه. حيث بقيت زيارتي الأخيرة إلى الجزر التي كانت قبل خمس سنوات فقط متسمرة في الزمن، وتقاسمت هذه الميزة مع إقامتي الأولى مع الكابتن والطبيب قبل ثلاثين سنة.

لم يكن من المستغرب أن نؤكّد أنه في أقصى أقاصي العالم، لا تزال الصيغ الإدارية واللغة التي عرفتها في إنجلترا دون تغيير. فكلما احتاجت اليد الحديدية لبريطانيا العظمى أن تظهر، مثل آلة متكاملة لا تنسى ولا تهمل على الإطلاق، فإن الركيزتين اللتين تثبتان هيمنة الإمبراطور تبرزان: هاتان الركيزتان هما الإدارة والقانون. كما قلت من قبل، سيد مكدويل أو مكدونيس، ليس هناك ما هو أكثر غرابة من المبنى الخشبي والحجري الهشّ المسمّى بقصر العدل، في أقصى زاوية في جنوب المحيط الأطلسي، شريطة أن تحقّق السلطات في مقتل الرجال، الذين، ذهبوا بدافع رومانسي -كما يشير رينيه في رسالته إلى التايمز- إلى هناك لممارسة حقوقهم على حياة وحرية الآخرين الذين لم يكن لديهم أدنى معرفة بهم.

لم تقتصر قضية اليامانا على المجزرة المؤسفة. فقد كشفت

المحاكمة التناقضات التي كانت البعثة تخفيها، خاصة بين أعضائها القياديين: القسّ جورج باكينهام ديسبارد والكابتن باركر سنو.

في الليلة التي سبقت المحاكمة في بورت ستانلي، أخبرني سمايلي بنفسه بالظروف التي وجد فيها بوتون، عندما أرسلته البعثة لمساعدة سفينة آلين غاردنر. إذ لم ترد أنباء عنها منذ ثلاثة أشهر. كانت سفينة النانسي قد بحثت عنها على طول القنوات في وسط الصمت الغامر. قال سمايلي إن هناك شيئاً غير طبيعي في هذا الهدوء، جعل الرجال على سطح السفينة غير مرتاحين. لقد كانوا يعرفون أنهم تحت المراقبة. بقيت أعمدة الدخان ترافقهم عدة أميال ثم اختفت فجأة. عندما كانوا مقابل مضيق موراي، رأوا السفينة في خليج صغير. كانت آلين غاردنر هناك وقد جرفها البحر وجعلها تتأرجح وتتقلب، وقد تم نزع صواريها، وبقيت دون أشرعة أو كابلات.

لم يكن سمايلي رجلاً يخاف بسهولة، وكان أفراد طاقمه مسلّحين. أمرهم بإنزال زورق، فاتجهوا إلى الشاطئ حيث المنطقة التي بنت فيها البعثات المنزل. رأوا من فورهم أن كارثة قد حدثت هناك. كانوا يربطون القوارب، عندما صُدموا، بخروج رجل أبيض عارٍ يصرخ من وراء الأشجار على الشاطئ، وفي نوع من نوبةً الجنون، ركض ليجد مأوى بينهم.

كان ألفريد كولز. لقد كانت حالته مؤسفة، وبصعوبة استطاع أن يخرج كلماته. أرسل سمايلي كولز إلى النانسي من فوره وتوجّه إلى آلين غاردنر.

"دائماً ما يترافق شعور تقشعر له الأبدان مع السفينة المهجورة" قال سمايلي. "لم يبق حتى فأر واحد على متن السفينة".

بدا صوت خطى الرجال أجوفَ على سطح السفينة المهجور. لم يتبق شيء، تم تفكيك السفينة حتى آخر قطعة من الحبال. عندما دخلوا إلى غرفة المؤن، بدا صوت لطمة الماء على هيكل السفينة أجوفَ بشكل غريب. كان المشهد بالنسبة لأي بحار محبطاً مما أثار مشاعر خرافية يصعب السيطرة عليها.

أخبرني سمايلي: "شعرنا طول الوقت أنهم يشاهدوننا، والنظرات الكامنة للرجال في الزوارق كانت مثبتة على أعناقنا، لكننا لم نتمكّن من رؤية أحد. لقد كانوا مختبئين بلا شك، يراقبوننا -بالحجارة جاهزة في مقاليعهم- من بين الشجيرات على الشاطئ".

ثم قام سمايلي بشيء جعل رجاله يرتعبون. انحنى فوق حاجز السفينة وصاح نحو الشاطئ بأعلى صوته:

"جيمي بوتون!".

ردت عليه رفرفة الأجنحة الغاضبة للعديد من طيور الغاق.

صرخ مرة أخرى بكل قوته: "جيمي بوتون".

ظل الخليج هادئاً وصامتاً. بينما كانوا يستعدون للتخلي عن آلين غاردنر، ولدهشة الجميع، جمدهم سماع صوت أجشّ.

"جيمي بوتون، هنا!".

ظهر الزورق الذي يشغله خمسة يامانا من خلف النتوء الصخري عند مدخل الخليج. كان الواقف في مقدمة السفينة رجلاً.

قال سمايلي: "مع أنني لم أره من قبل كنت أعرف أي وحش كان جيمي بوتون".

سمايلي هو رجل البحر النموذجي، قوّته مئات من العواصف، وقواه شغفه الوحيد الذي مارسه لعقود، وكان هو المنقذ لمن تبقوا من حطام السفينة. هو من الولايات المتحدة، ولا يخضع لأي سلطة، ولا تملك إنجلترا سلطة قضائية عليه. إنه رجل عملي غير متأثر بقصص مثل قصة جيمي بوتون، وهو غير مهتم بالهنود. بمجرد أن تمكن منه على ظهر السفينة، قام بتوجيه مسدسه إليه بينما أحاط به بحّارته، الذي كانوا مسلحين أيضًا.

قال سمايلي: "بدا بوتون غير متأثر بالأسلحة، فلو كان كذلك لما اقترب الزورق من مسافة قريبة كما فعل، ولما صعد على متن السفينة تاركاً رجاله بالأسفل. لم تتم استعادة الهدوء إلا بعد أن تحدّث بوتون، موضّحاً أنه يرغب في القدوم إلى

الجزر لإصدار بيان، يسرد فيه الحقائق. فانتقلوا إلى سفينة النانسي، ورفعوا المرساة، وأداروا مقدّمتها إلى الشمال.

ذهب سمايلي إلى الشاطئ مع الشاهدين والأخبار الرهيبة لعمليات القتل.

مضى على وصول رسالتك اليوم أربعة أشهر. نحن في فبراير، وحرارة الظهيرة تذيب الخطوط التي تؤطّر الأشياء، والأفق يلاشي متحوّلاً إلى انعكاس بلا حراك. الشيء الوحيد الذي لا يزال موجوداً في هذه الساعة الراكدة هو هديل الحمام الذي كنت مستلقياً في سريري منتظراً سماعه لسبب غير معروف. تتجمع العواصف، تنفجر، وتتحرّك، لكن المطر بصعوبة يخفّف الحرارة. لعدة أسابيع الآن وأنا أكتب في الليل، وفي وضح النهار يتمكّن مني الكسل. أشاهد غراسيانا وهي تصب أباريق كاملة من مياه الأمطار على شعرها الأسود الناعم. لا أفعل شيئاً، وعقلي مليء بالذكريات والصور التي لم أتمكن من تدوينها أو معرفة كيفية وصفها.

تطرح قصة بوتون والمصير الغريب الذي وحّدنا، سؤالاً لا يزال دون إجابة. شيء واحد أعرفه: كل الكلمات، جيدة كانت أم سيئة، التي أضعها على هذه الأوراق دون أن يجبرني أي شخص، لجأت إليّ، وكما هي، تحدّق في وجهي، في انتظار إجابة لا أملكها.

القصة بالنسبة لمن يكتبها، تشبه المرآة سيد مكدويل أو مكدونيس.

هناك ليالٍ أشعر فيها بالعبء الذي لا يطاق لقصة بوتون، قصة شعبه، كما لو كنت أنا أو أفعالي مسؤولاً عن حياته وموته. ثم تعود موجة وداعه من مؤخّرة سفينة النانسي، وهي لفتة لا يمكن فهمها بطريقة ما، فقد كانت ملفوفة بالغموض الذي يغلف بالنسبة لنا البيض حتماً جميع أفعال بوتون. غموض تم تبديده فقط عندما أصبح تعبيراً محدداً في عينيه، نقطة التقاء اعتقدت أننا فهمنا بعضنا بعضًا عندها. لكن هل فهمنا بعضنا بعضًا حقّاً، أو هل تخيّلت نفسي أحياناً أدخل عالَم أسلاف بوتون؟ ما الذي فعله بدوره يا ترى عندما نظر إليّ؟ رفيق أو رجل أبيض متصنّع جاء من الشرق؟ افتتحت هذه الأسئلة فراغاً لم أتعرّف فيه على نفسي.

في فجر هذا الصباح، لا أشعر بالخجل من الاعتراف بذلك، فقد تدلّيت من خيط رفيع من الذعر، فتمسّكت بجسد غراسيانا النائم مثل شخص معلّق على أكفان في وسط العاصفة.

مرّت برهة، ولم أكن قادراً على النوم، فخرجت إلى الفناء. كان السهل خطاً مستنزفاً من اللون، دون اسم أو نهاية.

أثار مقتل المبشرين الرأي العام الإنجليزي، حيث وصلت تلك الموجة المتصاعدة إلى الجزر مثل الارتداد الذي يعيد

الأهمية -التي يضخّمها رأي لندن- إلى الأحداث الحاصلة ضمن خطوط العرض القاسية هذه، التي كانت تمرّ عادةً دون فضيحة كبيرة كهذه. ولكن، في الواقع، خلف محاكمة بوتون، كانت هناك مصالح وقرارات أخرى ذات صلة، التي ظهرت الآن بشكل أكثر وضوحاً أمامي.

أثناء المشي في الشارع الوحيد في بورت ستانلي، وصلتني آخر الأخبار. فقد عبّر الناس في كل مكان عن آرائهم وناقشوا القضية بحماسة. لم يكن باركر سنو، قائد البعثة الذي طردهُ ديسبارد، رجلاً يحتفظ بآرائه لنفسه، وبدا أنه يبحث عن المرتدين. أثار حضوره حماسةً عامةً. فقد عدَّ نفسه تعرّض للإهانة من قبل ديسبارد والبعثة. وفي لندن تم رفع دعوى قضائية منفصلة تخصّ طرده.

في الأروقة التي هبّت عليها الرياح، كان الرجال في مجموعات صغيرة يعلّقون على ما رواه باركر سنو مؤخّراً: كان اليامانا غاضبين من البعثة التي كانت تهدف إلى قتل شعبهم. هو، باركر سنو نفسه، شهد واقعة تقشعر لها الأبدان: فقد رأى بوتون، أكثر عدوانية من أي شخص آخر، بوجهه المطلي باللون الأسود وجسمه مغطى بخطوط ونقاط بيضاء، يسير جيئة وذهاباً على الشاطئ مثل شيطان، مع علمه أن البيض يضغطون على شعبه للخدمة في سفينتهم. عند إشارته، قام اليامانا على متن السفينة بإلقاء ملابسهم، والقفز في الماء، ثم الصعود إلى زوارقهم، تاركين على سطح السفينة كل ما

أحضروه. وقد أضيء مشعل ضخم على الشاطئ، وكان من الممكن رؤية بوتون، بهيئته السوداء مرسوماً على ظلال اللهب، مع وجود ثلاثمئة رجل خلفه تضيئهم بالنار، وحوالي خمسين زورقاً مقيّدين وجاهزين. قال سنو بلهجته المتعالية: إنه أصيب بالذعر ورفع المرساة وعاد إلى البعثة ليحذّرهم من ذلك، لكن أحداً لم يستمع إليه.

كان هناك جانبان معنيان: هما السلطات في بورت ستانلي والمبشرين في جزيرة كيبل في غرب جزر فوكلاند. لم يكن الحاكم مور متعاطفاً مع البعثة: فقد تمّ التشكيك في كفاءة الإنجليز، وهي مسألة فخر وطني، بسبب هذا التصرف الغبي من الإهمال. ولم يكن مور يؤيد حملة عقابية ضد الهنود. فلم يكن هناك تمويل. ولم يكن العاملين في تربية الأغنام البدائية ولا المستعمرين يريدون تعقيدات مع المبشرين والهنود. وبدورها، لن تخضع البعثة التي يرأسها القسّ ديسبارد للمحاكمة بسبب ما حدث على الأرض، ولن تقبل سلطة الحاكم إلا في حالة فقدان السفينة وتركها. أما المستوطنين، فقد كان بعضهم متعاطفاً مع اليامانا وجيمي بوتون، بينما كان الآخرون، الذين كانوا ساخطين بشدة، ينظمون رحلة استكشافية ويعاقبونهم، أو، في أحسن الأحوال، يتركون هؤلاء المتوحّشين لمصيرهم.

كان بُنية ضخمة من الحجر والخشب. حيث تهبّ رياح

القطب الجنوبي داخل مدخنة الموقد الحديدي، وتنتج أنيناً غريباً حزيناً وهو الأنين الذي نعرفه نحن الذين عشنا في الجنوب، والذي قادنا إلى الجنون في النهاية. هذا هو قصر العدل في بورت ستانلي.

في الأمام، طاولة مستطيلة مع أربعة كراس في انتظار أن يشغلها وجهاء الجزيرة بمثابة أعضاء في المحكَمة. على اليسار واليمين، كان هناك كرسيان آخران جاهزان للشاهد الوحيد وللمتهم. ومقابل الجدار، مقعد طويل سيستقبل أولئك الذين لديهم ما يقولونه، بشكل مباشر أو غير مباشر، فيما يتعلق بقتل المبشّرين. بدأ المكان يمتلئ مبكراً، وقد انتظر سكّان الجزيرة القلقون طويلاً جداً منذ أن علموا بالحادث، ولم يرغب أحد في تفويت فرصة حضور المحاكمة. بوتون وكولز، الممثلان الرئيسان في هذه الدراما، كانا الموضوع المفضّل لبورت ستانلي في الأيام القليلة الماضية. لم يعرفهم أحد تقريباً، وهذا ما خلق تشويقاً إضافياً.

تمّ إعداد مقاعد طويلة في قاعة المحكمة. كانت هناك -أيضاً- كراس على الجدران كما هو الحال في قاعات الرقص، ممّا لاً يترك المجال إلا لممر ضيّق فقط لحركة الناس. على يمين لجنة القضاة، كان هنالك باب صغير يؤدي إلى غرفة أخرى. في الطرف المقابل من الجدار نفسه، فتح باب آخر على غرفة ضيقة طويلة حيث تم إعداد طاولة على شكل بوفيه فيه مشروبات ساخنة وسندويشات من أجل وقت الاستراحة.

ساد جوٌّ ودّي، ليس مأساوياً على الإطلاق ولا يساوي حجم القضية التي كانت قيد المحاكمة. في هذه الأماكن النائية والموحشة، تعد الحياة الاجتماعية ترفاً، وبصعوبة يمكن للحاضرين أن يخفوا حماستهم عندما يجدون أنفسهم معاً في حدث كان شبه مسرحي، ويذكرهم بالعالم المتحضّر. كان هناك عدد قليل جداً من النساء. لم أتحدّث مع أحد، ولم يتحدّث معي أحد. كنت غريباً مثل أيّ بحّار وصل للتوّ على متن سفينة. إذا سُئلت، كان لدي إجابة جاهزة: كنت من مواطني نيوبورت، وفي مونتيفيديو انضمّت إلى طاقم صيد الحيتان في سفينة كيمبرلي. لم يأت أحد ليسألني من أنا.

استمرّ اللغط في الازدياد حتى فتح الباب الجانبي. هدأ الناس وجلسوا في مقاعدهم. بقي الكثير منهم واقفين. كان مكاني جيداً، واستطعت الرؤية والسماع دون صعوبة.

تم تقسيم القضاة أو لجنة التحقيق إلى هيئتين: من جانب واحد، مور، حاكم الجزر، وأمين شركة جزر فوكلاند، يجلسان منفصلَين إلى حدّ ما، إذ إنه كان لهما مصلحة مباشرة في المسألة الوشيكة. من الجانب الآخر، اللجنة المختصّة، التي احتلّت الطاولة في المقدّمة: السيد فورتيسكو، ممثّل وزارة المستعمرات، ورئيسها، دوق نيوكاسل؛ القس بول، قسيس الجزر؛ سكرتير بعثة باتاغونيا، والسيد لوغدين، بصفة محامٍ أو مدّعٍ عام.

جلس الشهود على مقعد طويل على الحائط: القس ديسبارد، رئيس بعثة باتاغونيا؛ السيدة ديسبارد، الكابتن سمايلي، السيد لين، محامي القسّ ديسبارد؛ والكابتن باركر سنو، الذي كان رجلاً عصبياً لا يهدأ. كانت الساعة العاشرة صباحاً وَفقاً لساعة الحائط خلف هيئة المحلّفين، التي بدأت في تلك اللحظة تصدر رنيناً موسيقياً خفيفاً. لقد بدَوا قديمَين في صمت ذلك المكان العام.

تقدّم السيد لوغدين إلى الأمام وتحدّث بصوت عالٍ وواضح[1].

السيّد لوغدين:

"يتم تشكيل لجنة التحقيق هذه من أجل توضيح وإصدار الحكم. أولاً: فيما يتعلّق بالتخلّي عن السفينة البريطانية آلين غاردنر في جزيرة نافارينو في تييرا ديل فويغو، بموجب المادتين ٤٣٢ و٤٣٣ من قانون ١٨٥٤ للتاجر البحري. ثانياً: فيما يتعلّق بما حدث في ٦ نوفمبر ١٨٥٩، في تييرا ديل فويغو: مذبحة رئيس التعليم المسيحي، الكابتن فيل، وطاقمه بأكمله (باستثناء واحد) من السفينة التبشيرية آلين غاردنر، التي تعود للجمعية التبشيرية الباتاغونية. لهذا الغرض، جعلنا الناجي

(١) تمّ إرفاق نسخة من المحاضر بالإنجليزية إلى الأجزاء السبعة لقصة غيفارا. من غير المعروف كيف وصلوا إليه. شهادات سمايلي وكولز وجيمي بوتون بصيغة نصّية. ومع ذلك، ليس لدينا سجلّ بأن القس ديسبارد وزوجته وباركر سنو كانوا حاضرين في المحاكمة. ومع ذلك، فإن الكلمات التي نسبها إليهم غيفارا تتوافق بالتفصيل تقريباً مع خطابات ووثائق مكتب السجل العام، في لندن (ملاحظة المحرّر من النسخة الإنجليزية).

الوحيد والشاهد الوحيد للمذبحة، ألفريد كولز، طاهي آلين غاردنر، يحضر إلى هذه المحكمة".

تم فتح الباب الجانبي، ودخل الشاهد المباشر الوحيد في القضية برفقة مأمور. جعلوه يجلس على الكرسي على يمين القاضي.

بدت الشهور الثلاثة التي قضاها كولز بين اليامانا واضحة في مظهره المنهك. فقد كان نحيفاً للغاية، مجرد جلد وعظام، وكان لدى رقبته متسع كبير للرقص داخل ياقة قميصه. إلى جانب كونه مرهقاً، بدا وجهه فظيعاً. لم ينمُ حاجِباه بعدُ بشكل كامل؛ كان ذلك تماشيًا مع ذوقهم القاضي بعدم وجود شعر على الوجه، فقد حلقهما اليامانا بصَدَفٍ حادّ. لم يبدُ كولز رجلاً، بل بدا وكأنه فتى نحيف لن يتمكّن أبداً من الخروج من حالة الصدمة. اجتاحت عيناه الغرفة من البداية إلى النهاية دون أن يثبت نظره على أيّ شيء.

لم نكن قد استوعبنا حضور كولز بالكامل عندما أعلن المدعي:

السيد لوغدين:

"السجين المتّهم بقيادة مذبحة المبشّرين في وولايا: سيتم إحضار جيمس بوتون، مواطن اليامانا ابن تييرا ديل فويغو".

عند ذكر هذا الاسم، انتشرت موجة من التوتر عبر الغرفة.

حاول الجميع أن يرَوا بين رؤوس وأكتاف من أمامهم، ينظرون في اتجاه مدخل الغرفة الجانبي، لكن الباب لم يفتح. يبدو أن بوتون كان ينتظر دوره في الخارج، فظهر من خلال المدخل الرئيس. قام أولئك الموجودون في الأمام بتدوير أجسادهم وكراسيهم بصخب لرؤيته وهو يدخل، دخل مع مأمور مثلما دخل كولز. شاهدته يتقدم عبر الممرّ الضيّق الذي كان ينفتح الآن بين المقاعد وركبتي من هم في مقدمة الغرفة.

جيمي بوتون. لقد كبر في كل شيء إلا الطريقة التي سار بها وتحرّك. غارت عيناه عميقاً في وجهه، وبدت يداه وذراعاه وكأنهما أغصان شجرة ذابلة، لكن جذعه كان قوياً وأظهر كم كان صاحب كرامة. كان يرتدي قميص بحّار أزرق وسروالاً بلا شكل يصل فوق كاحلَيه بقليل. نزل شعره الأشعث على كتفَيه. عندما أخذ مكانه قبالة التجمع الصامت ارتسم على وجهه تعبير، كان أشبه بابتسامة طفيفة. ربّما كان ذلك لأنه أصبح مرة أخرى مركز اهتمام البيض، أو لأن التوحّد غير المعتاد للرجال الصارمين والصامتين ذكّره قليلاً بطقوس مراسم الكوخ العظيم. أو ربما كان مجرد انطباع خاطئ. استقرّت قدماه المسطّحتان الهائلتان على الأرض بشكل غير مريح، وبدت منفصلة عن جسده. كانت قدماه معتادتين على حدة الصخور والجليد اللاذع والحوافّ القاطعة لصَدَف البحر. كان لديهم حياة خاصة بهم، وكانوا مثل اثنين من الحيوانات الصغيرة في الحالات الدفاعية. جلس بوتون الآن، وكان يسند كعبيه على

عارضة الكرسي كما لو كان يبحث عن نقطة دعم، وبقي على هذا النحو، بمظهر هادئ. كنت أعرف كيف أفسر إشاراته غير المحسوسة تقريباً بأنه كان مستعداً ومنتبهاً تماماً. لقد كان في مكان مغلق، وهو مكان غير مريح على الإطلاق بالنسبة لفرد من أفراد اليامانا.

مرتين أو ثلاث مرات جالت عيناه الخالية من أي تعبير في الغرفة، مارّاً بناظريه على وجهي دون أن يظهر أنه تعرف عليّ، ولكن كان هناك وميض صغير، تغيير طفيف قبل أن يجلس، لم أكن أعرف حينها ما إذا كان ذلك ما رأيته بالفعل أو أنه شيء تخيّلته. بالنسبة لبوتون قد نبدو جميعنا كرجال بيض ملتحين متشابهين، مستترين بملابس خارجية ثقيلة تخفي أيّ سمة فردية للجسد. كما اكتشفت بعد ذلك، فقد تعرّف عليّ لكنه لم يعرف ما إذا كنت هناك إلى جانبه أو كعدوّ.

لم يكن بإمكانه أن يتجنّب رؤيتي. لم أدرك ذلك، فقد وقفتُ عندما دخل وبقيت على هذا النحو حتى وقت لاحق.

كان أوموي لوم، ابن كيب هورن هناك بإرادته الحرة للشهادة. كان لديّ فكرة مقلقة، وهو شيء شعرت به بقوة سيكون من الصعب عليك فهمه، يا سيد مكدويل أو مكدونيس. هذا الرجل التعس على ما يبدو، صياد الفقمة الذي حمل النار معه أينما ذهب بمثابة علامة على ما حقّقه، بأن ارتفع فوق الحيوانات وفوق الليل الجليدي في نهاية العالم؛ هذا الرجل

الذي يجد الأوروبيون صعوبة في منحه مكانة إنسان، لأنه يفتقر بالنسبة لهم للصفات الأساسية ليطلقوا عليه اسم الإنسان، فهو لم يعش وفقاً لدينهم أو أسلوب حياتهم ولم يرتدِ ملابسهم؛ كان هذا الرجل بالتأكيد الرجل الوحيد في تلك الجزر الذي كان له الحقّ في الجلوس على صخرة. الرجال من أمثاله كانوا من السكّان الطبيعيين لهذه الأراضي.

كان هو وشعبه سادة الجليد والصخور، والمالكين الوحيدين لحيوانات الغوناق والفقمة، والطحالب والمحار على الساحل، وقد كانوا كذلك منذ آلاف السنين.

لا في الأيام التي سبقت التحقيق في بورت ستانلي، ولا في رحلاتي إلى لندن، ولا في السفن التي عبرت كيب هورن، لم أسمع كلمة واحدة يمكن أن تعكس ذرة من هذه الفكرة الأولية. كان من شأن تعبيرها أن يفضح الجميع من الحاكم مور والمبشّرين، وصولاً إلى آخر شخص يحضر المحاكمة. لم يكن أحد مستعداً حتى للتفكير فيها؛ في هذه المرحلة كان لديهم جميعاً الرأي نفسه دون الحاجة إلى الكلمات. وبدأ جيمي، مثلما فعل شعبه، يشكّ في ذلك.

ما حدث كان غير متناسب. لكن لماذا أتى؟ إذا كان قد فعل ذلك، فذلك لأنه كان لديه في أعماقه الشعور بأنه كان في بلده، وهذا يمنحه إحساساً طفيفاً بالأمان. هل كان الأمر كذلك فقط؟ أم هل كان فعل غطرسة؟ أم فعل جرأة يدفعه حبّه لشعبه؟ هل

كان سيضحّي بنفسه من أجل قبيلته؟ هل خطر له أنه بظهوره يمكن أن يؤخذ أسيراً؟ ولكن قبل كل شيء، كيف سيعود إلى جزره؟ لم أعرف الجواب.

مثل شخص يستيقظ، أصبحت مرة أخرى واعياً للوجوه والهمسات الغاضبة للحشد أمام الشخص الذي من المفترض أنه المذنب، المتوحّش. كنت الشخص الوحيد الذي يقف. قام أحدهم بالنقر على كتفي ليجعلني أجلس مرة أخرى. لم ينظر بوتون في اتجاهي مرة أخرى.

طرق المدعي العام على الطاولة ليفرض الصمت. الشيء الوحيد الذي كان يقلقني هو كيف سيتمكّن من العودة، ما الذي يمكنه فعله لجعل البيض يسمحون له بالعودة إلى وولايا.

السيد لوغدين:

"تطلب المحكمة من ألفريد كولز، البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، وهو طباخ سفينة آلين غاردنر، أن يقدّم تقريراً أمام هذه المحكمة عن الأحداث التي شهدها في ٦ نوفمبر ١٨٥٩".

قدّم كولز بداية عنيفة وهو على كرسيّه. كان لديّ شعور غريب بأنه كان يبالغ، ربما لكسب تعاطف الجمهور، ولكن حتى لو كان هذا هو الحال، فإن كولز لم يبعث لدى الجمهور سوى الشفقة. تم تقديم الكتاب المقدّس إليه وأقسم بيده فوقه، إذ طُلب منه ذلك. ابتلع ريقه بصعوبة، كما لو كان هناك شيء

يسدّ حنجرته. مراراً وتكراراً، ألقى نظرة مريبة على بوتون، الذي لم ينظر إليه قطُّ ولو مرة واحدة.

ألفريد كولز:

"كنت طاهياً لدى سفينة آلين غاردنر عندما غادرت كيبل لإعادة السكّان الأصليين التسعة إلى وولايا، جزيرة بوتون. كانوا ثلاثة رجال وثلاث نساء وثلاثة أطفال. جئنا من كيبل إلى ستانلي. عندما غادرنا ستانلي على طول الساحل، دخلنا خليج سبارو كوف، وخرجنا بالقرب من ميناء مير، ومن هناك ذهبنا إلى ميناء السفينة ثم إلى وولايا، فوصلنا يوم الأحد، وكان الأحد التالي هو يوم المذبحة، السادس من نوفمبر.

"في صباح المجزرة، ذهب جميع أفراد الطاقم إلى الشاطئ، باستثنائي، وبينما كنت أقوم بطهي العشاء لاحظت أن اثنين من الهمج كانا يأخذان المجاديف من القوارب على الشاطئ. بعد بضع دقائق كان هناك الكثير من الضوضاء والصراخ، ورأيت رجالنا يخرجون من الكوخ ويركضون ويتعثرون على الشاطئ، فقد كان السكّان الأصليون يطاردونهم بالهراوات والحجارة، ويضربونهم بالهراوات والعصي حتى يفقدونهم الوعي على الشاطئ. كانوا يرمون الحجارة في جميع الاتجاهات وسط صرخات مروعة. كان الكوخ الخشبي على بُعد حوالي اثنتي عشرة ياردة من الشاطئ. عندما وصلوا إلى الشاطئ قاموا بضربهم جميعاً باستثناء معلم المسيحية ورجل

آخر، وهو سويدي حاول إرسال قارب في الماء. ثم قام نجل جيمي بوتون، بيلي بوتون، وهو أحد المتوحّشين الذين تم تفتيش متعلّقاتهم، بحمل صخرة وتحطيمها على رأس معلم المسيحية فيليبس، على أحد جانبي رأسه، حيث تدفّق منه الدم ثم رماه في الماء".

انتشرت همسات رعب عبر قاعة المحكمة خاصّة من السيدات الحاضرات.

"رأيت القبطان المقتول وشقيقه جنباً إلى جنب على الشاطئ، مستلقين على وجوههم الملطخة بالدم. استطعت أن أراهم بوضوح شديد، ورأيت كل شيء، جميعهم باستثناء الرجل العجوز هيوي مقتولين على الشاطئ. أنزلت ذلك القارب اللعين وقفزت فيه. جدّفت بأسرع ما يمكن، هرباً في اتجاه الغابة. كان هناك زورق يتبعني، ولكنني وصلت إلى الشاطئ وركضت بأسرع ما يمكن وذهبت إلى الغابة. كان المتوحّشون الملعونون ورائي قريبين مني، لكنني دخلت إلى الغابة وسرعان ما تسلّقت شجرة".

لم يستطع كولز الاستمرار. بسبب هياجه؛ كان يرتجف وارتعش كتفاه بطريقة غريبة. وسط صمت تام، وضع لوغدين يده على كتفه، وبحث عن كأس من الماء على طاولة القضاة. شربها كولز.

"لم يطاردني السكّان الأصليّون في الغابة. من أعلى

الشجرة، رأيت المتوحشين ينقلون قاربي ويأخذونه إلى المكان الذي كانت فيه القوارب الأخرى. بعد برهة، نزلت من الشجرة وتوغّلت أكثر من ذلك في الغابة. لم يكن لدي شيء لآكله. بعد أربعة أيام عدت إلى الشاطئ، أخذت بعض أصداف البطلينوس من الصخور. بعد تناول أصداف البطلينوس وبلح البحر مدة اثني عشر يوماً، اصطدمت ببعض السكان الأصليين. لم يفعلوا أي شيء لي. أخذوني معهم وأعطوني بعض السمك والمحار، لكنهم أخذوا ملابسي. لم يتركوا لي سوى حزامي وقرطي. أرادوا أن ينزعوا لحيتي من الجذور، لكنهم لم يستطيعوا؛ حلقوا وجهي وحاجبي بصَدَفٍ حادّ. بقيت مع هؤلاء السكّان الأصليين مدة عشرة أيام، عارياً. أعادوني مرة أخرى إلى السفينة، وسافرت معهم يوماً بعد يوم. كان هنالك حوالي ثمانية عشر أو عشرين من هذه القبيلة. عندما عدت إلى السفينة، اصطدمت مباشرة بجيمي بوتون وشقيقه تومي".

كان كولز يومئ برأسه كما لو كان يريد تأكيد ذلك: "أجل، لقد كانوا هناك". وأشار إلى بوتون.

"لقد كانوا هم ومجموعتهم من فعلوها. كل شيء نُهب، أي شيء يشبه الحديد تم سحبه. لقد سحبوا الفوانيس من على سطح السفينة، والخطافات والحلقات من حبال الأشرعة والصواري تم نزعها؛ تم تمزيق الأشرعة من حبال الصواري. لم يكن هناك أي أثر للمؤن من أي نوع على متن السفينة. لم يكن هناك شيء غير القمامة في أرجاء المكان. الأشرعة الأمامية

والخلفية مُزقت إرباً لخلع خطافاتها الفولاذية. حتى إنهم حملوا عجلة القيادة وسلالم المقصورة، وانسحبوا مباشرة. منذ ذلك الحين، بقيت مع السكان الأصليين، وسافرت معهم طوال الوقت، لأنهم يتنقلون من مكان إلى آخر باستمرار، حتى جاءت سفينة النانسي لإنقاذي. تمكّنت من التحدّث مع اثنين من أطفال القبيلة الذين كانوا في كيبل، وأخبروني أن جيمي بوتون وآخرين قد ذهبوا على متن آلين غاردنر ليلة المجزرة، وأن جيمي بوتون نام في تلك الليلة في مقصورة القبطان، في سرير الكابتن".

هنا أشار كولز إلى بوتون مرة أخرى، كما لو أنه لم يكن قد أوضح من الذي يتحدث عنه. مرة أخرى انتشرت الصدمة والسخط عبر قاعة المحكمة. وبتحفيز من التأثير الذي كان يولده خرج صوت كولز الصاخب كأنه صرخة تقريباً.

"يا سيدي، أعتقد أن سبب المذبحة هو أن جيمي بوتون غيور، حسود، لأنه لم يحصل على كل شيء ظن أنه يستحقه. لم نقدّم له هدايا! هو لا يحبّ البيض...! أنا متأكّد من أنه كان المحرض، رئيس المجزرة بأكملها!".

كان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدمَيه. أجبروه على الجلوس للحظة، لكنه عاد فوراً للوقوف على قدميه، وقد تغلب عليه انفعاله.

"ماذا حدث للذبائح...".

السيد لوغدين:

"ماذا تقصد بالذبائح؟".

ألفريد كولز:

"بالنسبة لجثث الموتى. لا أعرف ماذا حدث لتلك الجثث. لا أعرف ما إذا كانت قد أُكلت، أو أُحرقت أو رميت في الماء. أخبرني أحد الأولاد الهنود -أيضاً- أنهم رأوا جيمي يقاتل. لم أستطع تمييزه عن البقية، فقد كانوا جميعاً بوجوه مطلية. لا أستطيع أن أتحدّث عنه، ولكن يمكنني أن أقول عن بيلي بوتون: كان الابن هو من قتل المعلم المسيحي، أظن أنه كان هناك ثلاثمئة تقريباً، بما في ذلك النساء والأطفال، قبل مجيء القتلة، وكانوا يصرخون طوال الوقت الذي كنا فيه هناك. عندما عدت إلى المكان، لم يكن هناك سوى جيمي بوتون وعائلته وقلّة آخرين. أخبرني أنه لا يزال هناك رجل واحد على قيد الحياة. لم أصدقه على الإطلاق. لقد رأيتهم يقتلون الجميع باستثناء هيوي الكبير، وقد أخبرني الصبيان أنهم قتلوه في الكوخ. ذهبت إلى الكوخ عدة مرات. لم يكن هناك أرضية، ولم يكن هناك أي أثر لأي شيء. صعدت على متن السفينة وقدّمت بياني للكابتن سمايلي".

السيد لوغدين:

"هل قاموا بتفتيش حقائب السكان المحليين؟".

ألفريد كولز:

"نعم، لقد قاموا بتفتيشهم بعد يوم من دخولهم إلى وولايا بسبب فقدان الكثير من الأشياء التي أصر الكابتن على البحث عنها".

السيد لين:

"أعترض على هذا السؤال!".

وقف محامي القسّ ديسبارد على قدميه فجأة.

"لا يمكن توسيع هذا الجزء من التحقيق ليشمل سبب فقدان الأرواح البشرية على سواحل تييرا ديل فويغو. علاوة على ذلك، فإن إثبات السلطة القضائية يعتمد على الكلمات "في جزء آخر"، ومن ثَم، لا توجد سلطة كلفت بها وزارة التجارة في جزر فوكلاند لإجراء هذا التحقيق".

وافق السكرتير.

السيد لوغدين:

"هل كان فقدان الأرواح على الساحل سبباً للتخلّي عن السفينة؟".

ألفريد كولز:

"نعم".

السيد لين:

"التحقيق في أسباب فقدان الأرواح البشرية ليس ضمن السلطة القضائية لأعمال البرلمان، مما يجعل التحقيق يقتصر على سبب ترك السفينة".

عقد القضاة جلسة للمشاورة. تابع القس ديسبارد المداولات وأنظاره مثبتة عليهم. قال السيد فورتيسكيو المتحدث باسم وزارة المستعمرات:

السيد فورتسكو:

"ترى المحكمة أن هناك سلطة مطلقة للتحقيق في أي حالة تحدث على متن سفينة، كما هو الحال في هذه الحالة، وكذلك في أي حالة تنطوي على خسائر في الأرواح. لذلك، بعد التأكيد على حقيقة أن هجر السفينة كان بسبب الخسائر في الأرواح البشرية على الساحل، يمكننا الآن المضي قدما في الجزء الثاني من التحقيق: أسباب المذبحة. تابع".

السيد لوغدين:

"هل قاموا بتفتيش السكان الأصليين عند وصولهم إلى وولايا؟".

ألفريد كولز:

"فتّشوا حقائب السكّان الأصليين الذين كانوا على متن

السفينة بسبب اختفاء بعض الأشياء، وبين ملابسهم وجدوا حربة، ومنديل حريري وسكين فولاذي. لم يكن هذا مرضياً للمتوحشين الذين رفضوا التفتيش. كانوا غاضبين للغاية. قام أحدهم، وهو رجل ضخم يدعى سويموغن، بالإمساك بالقبطان من حلقه ورفعه في الهواء فوق سلم السفينة. كان عليه توجيه ضربة له للدفاع عن نفسه. بعد ذلك قفزوا إلى زوارقهم وانطلقوا إلى الساحل. كان بيلي بوتون أحدهم".

السيد لوغدين:

"أثناء الخمسة عشر يوماً التي كانوا فيها في جزيرة نافارينو، قبل المجزرة، هل كان القبطان ورجاله مسلّحين؟".

ألفريد كولز:

"كانوا مسلّحين بفؤوس لتقطيع الحطب".

السيد لوغدين:

"يمكن للشاهد أن يجلس".

بدا كولز أكثر هدوءاً. وعاد إلى كرسيّه.

السيد لوغدين:

"تستدعي المحكمة الآن للشهادة المشرف على بعثة باتاغونيا، القس ديسبارد".

وقف ديسبارد، الذي كان رجلاً نحيفاً، يرتدي الأسود، وتقدّم بضع خطوات. أمسك لوغدين الكتاب المقدّس في يده.

القس ديسبارد:

"أرفض أداء اليمين".

المحكمة:

"القيام بذلك أمر ضروري".

بعد التفكير لحظات قليلة، أدّى ديسبارد اليمين ويده على الكتاب المقدّس.

السيد لوغدين:

"حضرة القسّ ديسبارد، هل يمكنك أن تعطينا دليلاً ما على الذي جعل السكّان الأصليين يهجرون السفينة؟".

القس ديسبارد:

"لا أستطيع".

السيد لوغدين:

"هل لديك علم بأي تهديد أو كلمات تهديد يستخدمها السكّان الأصليون في كيبل قبل ركوب السفينة؟".

القس ديسبارد:

"أرفض الإجابة".

السيد لوغدين:

"هل سمعت أي تهديد؟".

القس ديسبارد:

"ليس لدي ذاكرة دقيقة عن هذا الأمر".

السيد لوغدين:

"هل حاول السكان الأصليون في كيبل، في أيّ وقت، إثارة عمل تمرّد أو، هل هدّدوا المستعمرين أو المبشرين؟".

القس ديسبارد:

"لا".

السيد لوغدين:

"هل بحثت في حقائب السكّان الأصليين في كيبل؟".

القس ديسبارد:

"أرفض الإجابة".

كان من الواضح أن رئيس بعثة باتاغونيا كان لديه الكثير ليخسره. في الطرف الآخر من مقعد الشهود، كان الكابتن

الأول لسفينة آلين غاردنر، باركر سنو، الذي طرده ديسبارد بتهمة العصيان، يتململ بعصبية. لقد تم التعبير عن عذره بكلمات عنيفة ضد البعثة في صحيفة التايمز التي أملك نسخة منها وهو الأمر الذي ذكرته سلفاً. كان من الواضح أنه كان يسعى للانتقام العلني، ومع أخذ ذلك في عين الاعتبار، كان يمشي ذهاباً وإياباً في شوارع ستانلي في اليوم السابق. لم يكن ينظر إلى ديسبارد عندما تحدث الأخير.

ظلّ بوتون بلا حراك طوال الوقت. يمكن للمرء أن يقول تقريباً إنهم نسوا أنه كان هناك. خمنت أن الحرارة في الغرفة تخنقه. انتهى الجزء الذي يشير إلى التخلّي عن السفينة. أعطى ديسبارد إشارات على أنه يطلب أن يسمحوا له بالتحدث لاحقاً. بدا أن السيدة ديسبارد، الجالسة على المقعد بجانب زوجها، تعاني من نوبة إغماء. جاءت امرأة أخرى وهوّت لها بالمنديل، وجلب لها حاجب المحكمة الذي كان بجانب كولز كوباً من الماء. كان هذا المشهد يحدث وراء ظهر المدعي العام، الذي لم يكن على علم بما كان يحدث هناك، بدأ في التحدث قبل بضع دقائق. بدا أن السيدة ديسبارد تتعافى. كان كتفا كولز مثنيتين، وظهره كذلك، وكانت يداه بين ركبتيه وكان يحدّق بشرود إلى مؤخرة الغرفة.

السيد لوغدين:

"... لكم أن تتخيّلوا، إذن، أيها السادة المحكمين، قشعريرة

الرعب التي هزّت لندن، صباح يوم قرأ المواطن العادي عن حدوث أسوأ خيانة يمكن أن يتخيّلها أي شخص في كيب هورن. هناك وصل الأعضاء التبشيريين الإنجيليين في مغامرة آلين غاردنر -التي كانت قبل عقد من الزمان، بعد أن غرقت سفينته وماتوا جوعاً في كهف محاط بالهنود- في سفينة اسمها تحديداً «آلين غاردنر»، وصلوا بحماسة التبشير، وهناك أمام أنظار اليامانا الباردة البعيدة التي كانت تشاهد من زوارقهم أو من الشواطئ القريبة، قاموا ببناء هيكل خشبي، وهو مأوى لاستضافة خدماتهم الدينية. هناك، يوم الأحد، ٦ نوفمبر، ١٨٥٩، بينما بقي كولز الطباخ على متن السفينة (الشخص الوحيد المعفى من الخدمات الدينية) في انتظار عودتهم مع غداء احتفالي -وكنتيجة لهذا الظرف- كان هو الشاهد الحي الوحيد على ما حدث في ذلك الصباح، وهو ما تم وصفه لاحقاً في لندن بأنه الصباح الذي تغلّب فيه الدين المسيحي على الهمجي الجامح. هناك انتظر الهنود الغادرون المبشرين ليبدؤوا في غناء ترانيمهم داخل الملجأ قبل مهاجمتهم وقتلهم، كما سمعنا بالفعل، دون ذرة رحمة. إذا كان هذا معروفاً، إذا أصبح هذا معروفاً، فذلك لأن كولز المروَّع صعد من المطبخ إلى سطح السفينة، وهناك، وهو ممسك بدرابزين السفينة، شهد واحدة من أكثر المذابح فظاعة يمكن أن تشهدها البشرية دون أن يصيبه الجنون".

توقّف المدعي العام، وذهب إلى الطاولة، وسكب لنفسه

كوباً من الماء. وشربه.

"لكن أيها السادة، هذه القصة المروّعة كلّها تحوي شيئًا أسوأ، شيئًا أكثر شراً ممّا قلته للتو؛ لأن الشخص الذي قاد هذه المجزرة، الذي ارتكب هذه الجريمة ليس فقط ضد البعثة الباتاغونية ولكن ضد إنجلترا، كان شخصاً آوته إنجلترا وعلمته، شخصاً كانت إنجلترا قد علقت عليه آمالها لنقل الحضارة وأنقذته من الظلام البربري، من حالته العارية وكلام الثرثرة ومن الطقس العاصف، لرفعه إلى مستوى اللغة الإنجليزية، إلى مستوى استخدام الملابس اللائقة وإلى مستوى الحضارة. لقد كان شخصاً تم منحه امتياز الجمهور الملكي الذي تعلّقت عليه أعين ملكنا بالأمل والشفقة".

في تلك اللحظة، لا يسعني إلا أن أتذكّر -أو لا يمكنني ذلك الآن يا سيد مكدويل أو مكدونيس- سمعة ويليام الرابع التي تظهره كسكير وفاسق.

"تم أخذ هذا الرجل إلى لندن ثم إعادته إلى كيب هورن بتعليم كان أملاً في رباط صداقة، وقد ردّ معروف المملكة بقتل المبشرين الأبرياء".

كما حدث في حالة كولز، نظرنا جميعاً إلى بوتون الجالس على كرسيه على يسار المنصة. لم تكشف حتى لفتة واحدة ما إذا كان قد فهم أو لم يفهم ما قاله المدعي العام.

السيد فورتسكيو:

"تدعو المحكمة الآن مراقب بعثة باتاغونيا، القس ديسبارد، للإدلاء بشهادته".

غادر ديسبارد مكانه على المقعد بجوار زوجته وتقدم خطوات قليلة.

القس ديسبارد:

"إنني أقف موقفي فقط لإظهار حسن النية. ستستمر هذه القضية أمام محكمة في لندن، حيث سأقدّم كل النقاط في دفاعي. بعد أن أدليت بهذا البيان، اسمحوا لي الآن أن أعود إلى الماضي. تم شراء هذا الرجل، وهو المواطن المدعو جيمي بوتون، بثمن خمسة أزرار قبل خمسة وعشرين عاماً من قبل الكابتن روبرت فيتزروي ونقله إلى إنجلترا. وقد عومل بلطف شديد وتمّت إعادته إلى وطنه بعد عامين من ذلك. اتصلت به البَعثة عندما استقرينا في كيبل حيث وضعنا ثقتنا به. وفي العام الماضي، ودون أي ضغوط من أي نوع، أحضر هذا الرجل زوجته وأطفاله الثلاثة إلى البعثة، وعاشوا معي هنا. عومل بحسن الضيافة والتسامح، وتم غسل ملابسه، وكان الخبز يُخبز من أجله كل أسبوع، وكان يتنقّل بيننا بحرية مطلقة، ولم يكن عليه أن يعمل أي شيء باستثناء الحفاظ على نظافة المنزل والأواني...".

باركر سنو:

"أعترض! أعترض على كل ما يقوله!".

وقف على قدمَيه سريعاً، ولم يتمكّن أحد من إيقافه، وتحدّث بسرعة وهياج كبيرين.

باركر سنو:

"كما قلت سابقاً مراراً وتكراراً أنا أطالب بالعدالة، وألفت انتباه حكومة سعادتكم إلى أعمال بعثة باتاغونيا! فقد اضطررت لترك موقعي بعد التعبير علناً عن رأيي ورفض التعاون مع موظّفي البعثة، الذين كانوا يخدعون السكّان الأصليين. كانت خطة عمل البعثة هي نقل السكّان بالقوة إلى جزيرة كيبل، وجعلهم يعملون دون أجر، فلن يكون لديهم طريقة للهروب من هناك... لقد تم فصلي دون تفكير ولم أحقّق أي عدالة على الإطلاق على الرغم من مناشداتي المتكرّرة للسلطات. إن الجمعية التبشيرية الباتاغونية مع حكومة جلالة الملكة مسؤولين أمام بلدنا عن الأفعال المسموح بها لمسؤوليهم وعن قتل رفاقنا في وولايا، ولكن لماذا فاجئني ما حصل...؟".

السيد لوغدين:

"عد إلى مكانك من فضلك حتى يتم استدعائك".

باركر سنو:

"لماذا فاجئني ما حصل؟ أنا واحد فقط من بين الآلاف كما يشهد علم القانون: من يعارض تأثير الثروة أو السلطة لا يمكنه أن يأمل في تحقيق العدالة!".

السيد لوغدين:

"كفى! سيدلي الشاهد باركر سنو عندما تدعوه هذه المحكمة. من فضلك اجلس".

سرى تذمّر متزايد عبر قاعة المحكمة. وبصعوبة بالغة، تمكّن مأمور من إعادة القبطان السابق لآلين غاردنر إلى مكانه. كانت السيدة ديسبارد تهزّ رأسها ساخطة، وكان القسّ ديسبارد يتحدّث مع محاميه السيد لين. استغرق الأمر بضع دقائق لاستعادة النظام. طلب لوغدين من القس ديسبارد أن يتابع. بدا الرجل على وشك الانهيار. انتعش على الفور وتابع.

القس ديسبارد:

"تم إحضار بوتون وزوجته إلى الجزر بحسن نية قبل عام. بدا سعيداً حقاً في أن يُري أبناءه لأصدقائه الإنجليز، خاصةً الأكبر البالغ من العمر حوالي ثماني سنوات، وهم من حاولنا أن ننقل إليهم بعض المعرفة عن الرب، ربنا. لكن الصبي كان بحاجة إلى مزيد من الوقت قبل أن يتمكّن من الفهم؛ لأنه لم يتعلّم سوى بضع كلمات باللغة الإنجليزية. لقد أمضَوا الشتاء والربيع معنا في رسالتنا التبشيرية وكسبوا رضانا، وهو أمر تستطيع السيدة ديسبارد أن تشهد به جيداً...".

لم يعترض أحد على السماح لزوجته بالمشاركة دون أن تقوم المحكمة باستدعائها ودون أن تؤدي اليمين. بدا القس محطّماً وأفسح المجال لزوجته التي لم تتردد في المتابعة.

كانت يداها متشابكتين، وتضغط منديلاً على صدرها.

السيدة ديسبارد:

"يجب أن أقول: إنه عندما غادرونا للعودة إلى تييرا ديل فويغو، افتقدناهم كثيراً. لم يفعلوا شيئاً قطّ للإساءة إلينا أو إزعاجنا: كان جيمي ملتزماً للغاية. وكان في غاية الامتنان، كما كان نظيفاً دائماً".

ألقت السيدة ديسبارد نظرة لا إرادية على المكان الذي جلس فيه بوتون، لكنه ظل صامتاً وعيناه نصف مغلقتين. كانت السيدة ديسبارد تتحدّث بشكل غير متأثر، كما لو أنها كانت تتحدّث عن كلب منزلي.

"تذكّر جيمي لغته الإنجليزية بشكل جيد للغاية، وقد فهمنا بشكل أفضل من فهمنا لهم. كان يعلم، كان مدركاً أن هناك إلهاً خالقاً لكل الأشياء وكان يعرف عن مخلّصنا المقدّس. ومع ذلك... قلت له: "جيمي، هل ستعود معنا؟" فقال إنه لا يستطيع أن يعد بذلك: "ربما، لا أستطيع أن أعد بذلك الآن". الفوجيون كسالى جدا. لم يذهبوا للبحث عن الحطب. في يوم من الأيام قلت له: "جيمس، الرب يحب الرجال الصالحين. والصالحون ليسوا كسالى. إن الرب لا يحب الفشلة فوافق على ما قلته، وأخبرني أنه فهم. سرعان ما أصبح يعمل بجد في البعثة. كان يجب أن تستمع لعائلته وهم يستعملون عبارات مثل "إذا كنت ترغب في ذلك"، "شكرًا لك"، "أتمنى لك يوماً جميلاً"

-كنا نسمع هذا طوال الوقت، باللغة الإنجليزية، بالطبع. كانوا يقدّمون الشكر على وجباتهم ويتلون صلواتهم ليلاً. لم أستطع إلا أن أكون سعيدة برؤية كيف تقدّم الصغير ذو البشرة الغامقة، الصبي الصغير الذي ارتقى بتعليمات أطفالي... كل هذا العمل! كل هذا العمل، والآن هذا الخزي...! في النهاية كانوا محترمين بملابسهم الخاصة، يرتدون ملابس لائقة، وليسوا عراة، مبلابس نظيفة، وليس برائحة الشحوم والدخان التي تبعث على الغثيان. يجب أن يقال: مكسوّون وتحيط بهم معرفة الرب. هكذا ابتعد جيمي بوتون عن البَعثة في جزيرة كيبل".

باركر سنو:

"مع كل الاحترام للسيدة والمحكمة، يجب أن أشير إلى شيء ما. في البعثة، تخيّلوا أنهم جعلوا الفوجيين سعداء بالملابس والصلاة والعمل. ومع ذلك، فإن بوتون...".

السيد لوغدين:

"انتظر دورك للتحدّث...".

باركر سنو:

"كان بوتون في كيبل ضد إرادته! عند عودتنا، في السفينة، توسّل إلينا بالقرب من وولايا أن نتركه مع عائلته هناك على الشاطئ قبل الوصول... أراد أن يتابع براً. لا شكّ أنه كان يخشى من أن تعود السفينة...".

السيد لوغدين:

"تحذّرك هذه المحكمة، سيد سنو، من أنك إذا لم تحترم دورك، فلن تتمكّن من التحدث لاحقاً".

المحامي لين:

"يرفض القس ديسبارد المشاركة مباشرة في هذه المحاكمة. طلب مني أن أقرأ ادّعاءه الموجّه إلى دوق نيوكاسل".

من قراءة لين كان من الواضح أن ديسبارد لم يتهم بوتون علناً، ولكنه عَدَّ أنه، مع أنه لم يشارك في المذبحة، فإنه لم يفعل أي شيء لمنعها. تحدث عن الحياة في البعثة. وواصل لين قراءة الوثيقة التي كتبها ديسبارد.

المحامي لين:

"بمجرد أن حاولوا اقتحام مخزننا بحثاً عن دبس السكر. جعلتهم يرون مدى استيائي من خلال حرمانهم من فطيرة الخوخ التي كانوا يأكلونها كل يوم أحد، ولم يكرّروا هذه المحاولة مرة أخرى. لقد سرقوا بعض الموادّ والأدوات الصغيرة التي يملكها العمّال، وحيث إنهم كانوا يعرفون أن السرقة كانت سيّئة، قررت عدم وجوب استمرارهم في اقتراف هذه الخطيئة. عندما كانوا على متن سفينة في طريقهم إلى وولايا، أعطيت أوامر بتفتيش حقائبهم وصناديقهم بحضور الجميع، وتم العثور على المواد المفقودة بين أمتعتهم

واستعادتها. عندما تم تفتيشهم بدَوا متوتّرين، لكن هذا هو التصرف الطبيعي للصّ المذنب. انتهى بنا الأمر بأن أصبحنا أصدقاء جيدين للغاية.

"يجب أن نلاحظ أن السكّان الأصليين كانوا على دراية كاملة بمكان توجههم، وبالسبب والمدة، وأنه لم تكن هناك محاولة لاختطافهم، ولم يتلقّوا أي معاملة يمكن أن تؤدي بهم إلى ارتكاب مذبحة.

"من الواضح أي من السكّان الأصليين ارتكبوا المذبحة؛ لا يحتاج الحاكم مور إلى التعمّق في العثور عليهم. إنه الجشع، الجشع لحيازة سفينة كانوا يعرفون أنها مليئة بكنز هائل من الملابس والمواد الغذائية والأدوات. ثلاثمئة رجل يجهلون الرب، ويوم الحساب، رجال لا يعرفون الأخلاق، ولا شيء يمنعهم باستثناء الخوف، كان هؤلاء الهمجيون غير المعمدين طامعين بثروات سفينة ضخمة. وكانت لديهم فرصة ملائمة عندما ذهب المبشّرون إلى الشاطئ.

"سيادتك، بالنظر إلى هذه الظروف، لدينا الحق في الاعتقاد بأن ضيوفنا السابقين كانوا المحرّضين على المذبحة وأن نعزوها إلى مشاعرهم المجروحة.

"أرفض أن تستجوبني هذه المحكمة، لأن من أنشأها هم أولئك الذين سوف يشوّهون إجاباتي من أجل تسويغ أفكارهم الخاصة. ومع ذلك، أمام محكمة عادلة وقاض ملائم، فأنا

على استعداد لشرح أنني قدّمت نفسي أمام السكّان الأصليين بمثابة شخص يحبهم ويرغب في تقريبهم من يسوع المسيح، مخلصنا؛ لأنه من دونه لا هم ولا أنا، ولا أنت، فخامتك، يمكننا أن نحقّق الحياة الأبدية.

"إن سبب هذه الكارثة هو الجشع فقط وليس سوء المعاملة. يمكن منع تكرار كارثة مماثلة إذا اتخذ قبطان السفينة الاحتياطات والتدابير اللازمة. وأنا متأكّد، أن معاليكم لن يوصي بأن تحرم مستعمرة بريطانية من الشرف العظيم ليصبحوا مركزاً لأعظم النعم التي قد تمنح رغماً عن أكثر الأشخاص حقارة".

كان من الواضح أن الغرض الوحيد من حضور ديسبارد القسري في هذه المحاكمة هو وضعه في موقف لا يمكن إصلاحه، وفي الوقت نفسه تشويه سمعة محكمة الجزر. كان مور يتحدّث إلى القس بول. أصبحت المحادثة علنية، مع كل شخص يبدي رأيه، يصرخ تقريباً وسط الاضطراب المتنامي.

الجو الخانق وقمع الناس أهانني. خطر لي مرة أخرى أن بوتون وجد الحرارة لا تطاق. نهضت بحذر قدر المستطاع وخرجت. ضرب هواء البحر الحادّ وجهي. مشيت على بعد خطوات قليلة باتجاه الشاطئ، وملأت فوهة غليوني بالتبغ وفكرت في كل ما سمعته.

يبدو أن ديسبارد قد تم سحقه بالكامل. كان من الواضح أن

عالمه قد انهار فوقه، وقد استنفذ حضوره القسري للمحاكمة معظم قوته. يمكنني أن أتخيّل نوع الأفكار الغامضة التي دارت في باله. استقرت يد الرب الأبوية على كتفه وقادته بمحبة لا نهائية تجاه هذه المخلوقات البغيضة. ومع ذلك، فقد استقر داخله فراغ فظيع منذ حدوث كل هذا. لقد كان مذنباً بأنه أرسل طاقماً كاملاً إلى المذبحة. ثقته العمياء بالبعثة، الدعم الذي كسبه من أجلها في إنجلترا... وصلت خطابات، كلمات تشجيع له ولمشروعه من كل مكان. كانت تنهال بالبركات عليهم وقد حاصرتهم هذه النعم وحمتهم في طريقهم إلى هذه الأرض التي كانت بأمسّ الحاجة إلى الرب، وقد تم اختياره لإحضار كلمة الرب إليها. وقد وضع ثقته في جيمي بوتون الذي أصبح الآن موضع شكّ في القتل. كانت كل الضغوط وكل أحزان الحياة في هذه الأماكن الرهيبة والعدائية عبثاً، ولم تستطع السيدة ديسبارد قطُّ البكاء بما يكفي لبكاء سنوات شبابها التي ذبلت بسبب هذه الرياح العنيفة التي بدت وكأنها تتخلّص من الرحمة الإلهية. لا شك أن ديسبارد كان يشعر بشيء من هذا القبيل، فكرت بينما كنت أفرغ غليوني. انتهى كل شيء، وسيقدم استقالته. ربما كان هذا الجزء الأخير هو مجرد أمنية من جانبي.

عندما دخلت مرة أخرى، كان المدّعي يتحدث.

مستر لوغدين:

"ستستغرق المحكمة استراحة مدة ساعة".

الجزء السابع

[جزر فوكلاند، ١٨٦٠. بعد الظهر].

اسْتَغلَلتُ فترة الاستراحة لشرب بعض المتّة. أيقظت غراسيانا وطلبت منها أن تطعمني. لم أنم طوال الليل، لم أستطع. يكاد يطلع ضوء النهار هنا، سيد مكدويل أو مكدونيس، بينما تبدأ الظهيرة في يوم طويل في الجزر. الحرارة قاسية هنا، بينما تهبّ الرياح الباردة هناك؛ نحن هنا في الحاضر، وهناك الوقت عالق قبل خمس سنوات. هنا أنا أشرب المتة، وهو شيء، إذا اضطررت أن أشرحه لن أعرف كيف. سأحاول: إنه شراب، يعادل شاي الساعة الخامسة. غريب! هذه القصة ليست مخصصة لك، لكني تعودت على اسمك، أو ربّما يجب أن أقول أسماءك وكأنني أعرفك الآن.

في الجزر، أثناء وقت العطلة، لم نشرب الشاي أو المتة ولكن البنش[1] الساخن. هنا، بدأ السهل إلى الشرق يتحوّل إلى لون أرجواني. وعبر نافذة قاعة المحكمة، بدأ البحر يتحوّل غامقاً.

وصلت إليّ الشائعات بأن ديسبارد كان يغادر المحاكمة،

(١) مشروب البنش: هو مشروب من عصير الفاكهة كحولي أو غير كحولي.

وسينتظر النتيجة في مكان آخر قبل الإبحار إلى كيبل. كانت الشائعات تنتشر في الغرفة المزدحمة بجوار قاعة المحكمة، حيث يمكن للمرء تناول الطعام والشراب. تمكّنت بصعوبة كبيرة، من شقّ طريقي إلى الطاولة والعودة إلى إحدى النوافذ، حيث كان ظهري إلى الحائط، وحملت كوباً من البنش الساخن وقطعة صغيرة من الخبز مع لحم الضأن المشوي.

باستثناء سمايلي، لم أكن أعرف أي شخص، ولمَّا لم يكن سمايلي هناك، كنت وحيداً أستمع إلى ما يقال.

أثار غضب باركر سنو المؤيدين وكذلك المعارضين. قال بعضهم إنه توقع ما سيحدث، وأنه رجل ذو خبرة وأن ديسبارد كان طاغية. ودعم آخرون المبشرين وعملهم. تضخّمت موجة الحديث وأغرق الأصوات بعضها بعضًا. كما تمّت مناقشة التنافس بين ديسبارد والحاكم مور، وخاصة رفض ديسبارد قبول سلطة المحكمة.

التفت إلى النافذة وانغمست في المشهد المقفر للجزر. في المرفأ الطبيعي الجميل، كانت العديد من السفن تتأرجح في المرساة، ومن بينها تعرفت على سفينة النانسي، وسفينة ديفيدسون، وسفينة كيمبرلي وهو مركب صيد الحيتان الذي جئت فيه.

انتهت الاستراحة، وشققنا طريقنا ببطء عائدين إلى أماكننا. أظهرت الساعة الآن الثالثة بعد الظهر. لم يعد القس ديسبارد

وزوجته على مقعد الشهود.

كان باركر سنو ينتظر دوره واقفاً، على ما يبدو غير قادر على الجلوس بسبب حماسته الواضحة للغاية، وبدا متعبًا. انحنى الحاكم مور عبر الطاولة وقال شيئاً في أذن لوغدين. كل شيء جاهز الآن.

السيد لوغدين:

"المحكمة تدعو الكابتن باركر سنو إلى المنصة".

باركر سنو:

"سعادة المحكمة، في عدة مناسبات أثناء السنوات الثلاث الماضية، كتبت إلى حكومة صاحبة الجلالة فيما يتعلّق بإدانتي لسلطات جزر فوكلاند، وميلها لمحاباة الجمعية التبشيرية والظلم الذي لحق بي ودماري. في البداية اعتقدت أنني سأحظى بالرضا. كنت ساذجاً بما يكفي لتصديق أن عدالة قضيتي ستكون كافية، والآن أعلم أنه إذا كان الرجل فقيراً وليس لديه أصدقاء ويقف ضد الجماعات الدينية أو تلك المرتبطة بالحكومة، فلا يمكنه أن يتوقّع توضيحاً للحقيقة والحصول على رضا. الآن، بعد أن تعلمت هذا الدرس، أنتقل إلى سيادة الدوق وممثله، السيد فورتيسكو الذي لم يعد طالباً الالتماس، بل أصبح شخصاً لديه حقوق الملوك".

عند هذه النقطة نظر سنو إلى فورتيسكو نظرة ذات مغزى. استفزّتْ كلماته شعوراً بالقلق في المحكمة وفي الجمهور أيضاً. انحنى بوتون على ظهر كرسيه وبدا، مثل كولز، غائباً عن الغرفة.

"لقد حدثت مذبحة هائلة لسفينة، توقّعت حدوثها وأبلغت السلطات. لقد حذرت حكومة بلادنا وتوسلتهم أن يتدخلوا لمنع هؤلاء الرجال القابعون تحت اسم "البعثات"، الذين أرادوا اقتلاع السكّان الأصليين دون النظر في العواقب، وسيمضون قدماً في خطة البعثة ومن ثَمّ سيحصلون على المال العام...".

السيد لين:

"أطلب من المحكمة ألا تفكّر فيما ألمح إليه هذا السيد للتو...".

السيد لوغدين:

"يمكنك أن تعترض باسم القس ديسبارد لاحقاً. دع الشاهد يتابع".

باركر سنو:

"عرضت أن أُثبت أن خطة البعثة كلّها لم تكن خادعة فحسب، بل كانت خطيرة -أيضاً- لجميع المعنيين. ولكن بالطبع لم يستمع أحد إلى صوتي. والآن يمكنك رؤية النتائج!

تمّت التضحية بطاقم كامل! عندما شغلت منصب قبطان السفينة، عارضت الطرق التي اتبعها المشرف التبشيري ديسبارد، الذي فضل الآن التغيب بدلاً من الاستماع إلى حقائقي".

تحدث بنبرة بطيئة ومقنعة، مثل شخص يشرح شيئاً شرحه ألف مرة. ألقى على الجمهور نظرة ساخرة. كان يمتلك قدرة محدودة على التمثيل، وكان يقوم باستغلالها.

"لن أكون من بين أولئك الذين يجلبون الناس بالقوة إلى جزيرة كيبل لغرض وحيد هو بدء مستعمرة، أو بالأحرى، لإثبات أن الاستعمار سينجح. كانت خطة العملية هي إحضار السكان الأصليين بأي وسيلة من الوسائل وجعلهم يعملون؛ لأنه بمجرد نقلهم إلى هناك، لن يتمكّنوا من الهروب. وما أكّد آرائي هو ما سمعته من رأي الحاكم السابق للجزر، السيد رينيه، الذي لم يكن بطيئاً في الإشارة إلى أن مثل هذا العمل من شأنه أن يكون اختطاف".

أشارت المحكمة إلى لوغدين، الذي أتى. ثم نظر للشاهد.

السيد لوغدين:

"هل يمكن العثور على رأي الحاكم السابق رينيه في أي مكان؟".

كان لدي شعور بأن باركر كان ينتظر أن يطرح عليه هذا السؤال.

باركر سنو:

"نعم يا سيدي يمكن العثور عليه. إنه في رسالته إلى صحيفة لندن تايمز بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٥٩، صحيفة أحضرتها معي، وهي بحوزتي".

السيد لوغدين:

"تابع".

باركر سنو:

"مارست الجمعية التأخيرات والتشهير والانتهاكات، وعقدت اجتماعات في جميع أنحاء المملكة لجمع الأموال... لقد بددوا الأموال التي كان ينبغي استخدامها لتغطية نفقات البعثة. وكان هذا حُكمهم. كنت قد عصيت الأوامر، وعلى أنني لم أكن مجنوناً، ولكني أدرك بعمق قسوة وفساد هذا العمل في ترحيل السكّان الأصليين. ومع أنني كنت مسؤولاً عن آلين غاردنر مدة عامين، وعلى أن الجمعية قد أعربت عن شكرها لي، قال لي الجاهلون بالقانون: إنني مجرد آلة، وإنه بعد أن عصيت أوامر رئيس التبشير، يجب أن ألاقي عاقبة ذلك. وقد دفعت الثمن أنا وزوجتي. والسبب الذي أخاطب به سعادتكم الآن من خلال ممثّلكم، هو أنني أطالب أن تأمروا بإجراء تحقيق، ولإيقاف هذه الأعمال التي لا معنى لها والتي وافق عليها المسؤولون الحكوميون. قبل خمس سنوات، عندما كنت في السلطة، أخبرتني السلطات أن جلب المواطنين

ضد إرادتهم يمكن عَدّه خطفاً، كما قلتُ للتو، أو حتى قتلاً إذا حدثت كارثة. الآن بعد أن ذُبح أفراد طاقم كامل من قبل السكان الأصليين، دون أدنى شكّ للانتقام من المبشرين الذين حملوا أطفالهم وأقاربهم بالقوة، أُدرك أن هذه التهم ستوجه إليّ وحدي -لأنني فقير وليس لدي الأصدقاء- وليس ضد الكابتن سوليفان، الذي استبدلني، أو ضد البعثة، التي كان يتفق معها بالكامل. أسأل: هل هذا لأن لديهم الوسائل والتأثير للقيام بأيّ شيء يشاؤون القيام به تقريباً؟ سيدي، أليس هناك من يستطيع رؤية هذا؟ ألن تتساءل الحكومة عن كيفية نقل السكّان الأصليين من تييرا ديل فويغو إلى كيبل؟ في البداية، كان لدي أوامر بإحضار اثنين من الفوجيين حتى تتمكّن البعثة من إخبار الناس، من خلال دعايتهم في إنجلترا، أن "السكّان الأصليين كانوا يعيشون في محطة البعثة". أدركت على الفور أن هناك مخاطر كبيرة تنطوي عليها. علاوة على ذلك، في المرور الأول كانت تعليماتي هي العثور على جيمي بوتون وأخذه إلى كيبل. اعتقدوا جميعاً أن هذا المواطن الذي تعلم في إنجلترا سيتصرف بشكل آمن، وسيكون ميزة لا تقدر بثمن في المهمة الصعبة المتمثّلة في إقامة الاتصالات الأولى مع السكّان الأصليين. بدا كل شيء سهلًا من الآن فصاعداً. حسناً، حسناً، الرجل الذي التقيت به كان هذا الشخص".

أشار باركر سنو مباشرة إلى بوتون.

"كان عارياً، وكان مظهره في كل الأشكال مثل مظهر شعبه.

وكان هذا المخلوق المسكين هو محبوب الجماهير في لندن، وقد تعرّف على الملوك، وأخيراً، أُعيد إلى تييرا ديل فويغو كرجل متعلّم جيداً إلى حدّ كبير! حقًّا، أيها السادة، لم أصدق عيني، وازدادت دهشتي عندما استقبلني بكلمات ركيكة بلغتي. ولكن كان عليّ أن أتصرف من فوري، لأنه بسبب نفاد صبر المعلم المسيحي فقد رغب في حبس بعض الأطفال في الزوارق. لحسن الحظ تمكّنت من إيقافه. لم يكن الفوجيون قادرين على فهم دوافع البعثة؛ كل ما يفهمونه هو أن الرجال البيض انتزعوا صغارهم وأرادوا أخذهم، ولا يعرفون لماذا أرادوا أخذهم إلى مكان بعيد جداً عن جزرهم. أدركت أن الانتقام قد يتبع ذلك. لم يرغب المواطنون في أن يعاملوا بهذه الطريقة. وأكرّر: لا شيء سوى العبودية التي يتم ممارستها عند نقل أحد الفوجيين إلى كيبل، حيث يجعلونه يعمل، ويستخدم لغة الجمعية التبشيرية، ويفعلون كل ما في وسعهم لمنعه من الفرار. حسناً الآن؛ لأنني رأيت أن كل هذا تم فصلي، وتم تركي أنا وزوجتي في ستانلي، دون نقود، وحُكم علينا بالصعود والنزول إلى التلال للحصول على الأشياء عن طريق بيع بضائعنا المنزلية -ولمّا كانت البعثة قد دفعت لي مستحقاتي بسجّادة مستعملة وبعض من لحم الخنزير- فقد كنا، من ثَمَّ، قادرين على شراء عبورنا وعودتنا إلى إنجلترا. لم يستمعوا إلي. لم يستمعوا إلي على الإطلاق".

توقّف لحظة لالتقاط أنفاسه. طلب كأس من الماء، وتم إحضاره إليه.

"عندما وصل الحاكم الجديد، السيد مور، وهو السيد الذي يمثّل الدوق، نصحني في البداية ألا أفعل ما طلب ديسبارد مني. ومع ذلك، تعاون فيما بعد هو ومسؤوليه مع البعثة للتحريض على فصلي. لقد رفضوا أيّ تحقيق كان من شأنه منع هذه المذبحة. كان هدف الوزارة الاستعمارية هو تحقيق العدالة، ويجب أن تعتني بأقلّ عدد من الناس وأكثرهم قوة. ومع ذلك، فإن هذا لم يحدث. فالبعثة لديها الدعم الرسمي وأنا لا أحد. هناك الكابتن سوليفان، خليفي! وهو رئيس قسم حكومي! إذن، هل البعثة لديها دعم رسمي أم لا؟ أليس سوليفان في الواقع عضوًا نشطًا رئيسًا في هذه الجمعية التبشيرية؟ ألم يحاول جعل المستعمرة تؤدّي دورها في عمل السكّان الأصليين؟ لقد كتبت كل شيء وبالإثباتات!".

أشار السيد فورتيسكيو سراً إلى السيد لوغدين ليقترب. لم يرَ باركر سنو ذلك لكننا رأينا. كان هناك مداولات سريعة. تململ الناس في قاعة المحكمة بشكل غير مريح في مقاعدهم. كان باركر سنو رجلاً أزعج الكثير من الناس في بورت ستانلي، وكان عدد قليل جداً منهم مهتماً في عرضه بلاغته بالتفاصيل.

السيد لوغدين:

"تطلب المحكمة أن ينتهي الشاهد من شرح أهم نقاطه من أجل إفساح الوقت لشهادات أخرى ذات صلة".

عند هذه النقطة فعل باركر سنو شيئاً غير متوقّع: ضحك.

هزّ رأسه كما لو أنه يشير إلى أن هذا ولا شيء آخر هو ما يمكن توقّعه من المحكمة. مرّر عينيه ببطء على الجمهور.

باركر سنو:

"أفهم يا سيدي، ولا أعتقد العكس. وسأصل إلى النقطة. لا يفلت مني أن باركر سنو لن يُسمع هنا أيضاً، ومع ذلك هذه هي نقاطي الرئيسة...".

ما فعله حينها لا يزال واضحاً جداً في ذهني. بسبّابة يده اليمنى كان يشدّ تدريجياً، أصابع يده اليسرى واحدة تلو الأخرى.

"أولاً: اضطر باركر سنو إلى ترك منصبه للتعبير علناً عن رأيه ورفضه تشكيل مستعمرة ماشية جديدة في كيبل، حيث تم خداع السكّان الأصليين، وإحضارهم هناك رغماً عنهم، وتمّ إجبارهم على العمل دون أن يتمكّنوا من الفرار. ثانياً: كان الكابتن باركر سنو يؤيد إجراء تحقيق لا يثبت الخطأ الذي تم ارتكابه فيما يتعلّق بالسكّان الأصليين فحسب، بل سيثبت -أيضاً- أن خطة المبشر ديسبارد ورفاقه كانت مشروعاً تجارياً تحت اسم "البعثة". لكنهم رفضوا الاستماع إلى الأدلة! ثالثاً: بينما كان كل هذا يحدث، كانت السلطات الاستعمارية تتلقّى خدمات من المبشر ديسبارد ومجموعته، وعندما تم الاستيلاء على سفينة الكابتن سنو واحتجازها بأمر قاضٍ هنا في ستانلي، كان هذا القاضي نفسه يشرب ويدخّن مع محامي ديسبارد، في

بيت المحامي ويراقب الأحداث من هناك. رابعاً: عندما طُلب تعويض الكابتن سنو، رفض القاضي ونُصح باركر سنو بأنه لن يتمكّن من فعل أي شيء؛ لأن القاضي المذكور كان لديه صديق في وزارة الاستعمار يمكنه إحباط أي تحقيق. وأخيراً، إذا كنت أتحدّث لصالح أي شخص، كان هناك مسؤولون في الحكومة دعّموا هذه المهمة في أفعالها الخاطئة لصالحهم. تفاخر ديسبارد واللجنة بالدعم الذي تلقوه من الأشخاص المتنفذين، كان أحدهم النقيب سوليفان، رئيس قسم البحرية بوزارة التجارة، الذي كان بإمكانه استخدام كل وزنه ونفوذه لإيذاء باركر سنو. وكان هو، سوليفان نفسه، هو الذي وضع الخطط وأصدر التعليمات لتشكيل مستعمرة الماشية في جزر فوكلاند الغربية، وبعبارة أخرى في كيبل؛ لأنه كان شريكاً في شركة ماشية في هذه الجزر، وكان حريصاً على بيع مئة وأربعة وثلاثين رأساً إلى الجمعية التبشيرية، بشرط أن يقتسم هو وشركاؤه الأرباح!".مكتبة سُر مَن قرأ

اندلعت همهمة احتجاج في قاعة المحكمة. ألفريد كولز، الذي كان ينام بهدوء ورأسه يميل على أحد الجانبين، استقام في مقعده، ونظر كل من مور وفورتيسكو بعضهما إلى بعض. فطرق المدعي العام على الطاولة طالباً النظام. وتابع سنو، وهو يصرخ تقريباً.

"يمكنني إثبات كل ما أعلنه. بعد قولي كل هذا، فإن السيد فورتيسكيو، ممثلاً لسيادته دوق نيوكاسل، هذه الجمعية

التبشيرية الباتاغونية البغيضة -التي يمقتها الرب والرجل، التي يأسى لها رأي الشعب الشرعي النزيه- على أنها محمية من قبل الحكومة؛ فإنها ستكون مثالاً للخزي والعار أينما ذهبت! وأنا لا أفعل هذا من أجل نفسي فقط! إن الفقراء الذين يعانون والآلاف من النفوس المعذّبة على الأرض يثيرون المشاعر في قلبي، لدرجة أني حتى لو استغرق الأمر مني طوال حياتي، فسأعبّر وأنشر شفوياً في كل ركن من أركان الكوكب حيث أكون موجوداً. يعرف الكثير من أولئك الذين يعرفونني جيداً كم أحب المؤسسات القديمة ومدى الاحترام الذي أكنه للسلطة ولكن، يا سيدي، الناس ليسوا مجرد آلات لاستخدامها مثل الطين الرخيص دون أن يتمكّنوا من فتح أفواههم عندما يقع عليهم الظلم. لقد تعرضتُ أنا وزوجتي العزيزة للظلم الشديد من قبل الجمعية التبشيرية الباتاغونية المدعومة والتي يحميها مسؤولو الحكومة الملكية في هذه الجزر، وبسبب أفعالهم تلك أدعو إلى إقامة العدالة!".

صمت شديد لم يجرؤ أحد على مقاطعته خيّم على قاعة المحكمة. كان باركر مرهقاً بشكل واضح من الإجهاد العصبي، فجلس في مكانه من جديد. كانت الساعة حوالي الرابعة بعد الظهر.

استدعت المحكمة لوغدين وعقدوا المجلس للحظة. ثم خاطب المدعي العام الجمهور.

السيد لوغدين:

"ستأخذ المحكمة استراحة خمس عشرة دقيقة قبل النظر في دفاع جيمس بوتون. نطلب من الجمهور أن يبقوا في أماكنهم".

هل يجب أن أوضح، يا سيد مكدويل أو مكدونيس، أنني مثل جميع الحاضرين في الغرفة، أعجبت بتصريحات الكابتن باركر سنو؟ ومع ذلك، وراء ذلك الجزء المتشابك من المصالح كان هناك شأن واحد مفقود، وكان ذلك هو شأن شعب الياماناً. والأسباب التي طُرحت حتى الآن لم تكن سبب المذبحة. فقد أدت سلسلة طويلة جداً من الانتهاكات من كل نوع بسادة كيب هورن، سكان تييرا ديل فويغو، إلى هذه المذبحة. بالنسبة لعشيرة بوتون، كل الرجال الذين جاؤوا من الشرق كانوا متشابهين ولم تعد أسبابهم مهمة. كانوا جميعاً مسيئين، ومع ذلك لم يسألهم أحد من هم، ولم يفكّر أحد في حقوقهم قطّ. لقد أدهشني أن هذا لم يكن ليخطر على بال هؤلاء الأشخاص الحمقى. لم يكن هناك تعويض أو عدالة لبوتون. لقد تعلم الفوجيون أن يكرهوا الرجل الأبيض ولم يكن هناك عدول عن ذلك. أرادوهم فقط أن يتركوا أرضهم إلى الأبد.

بعد بضع دقائق، فتح الباب الجانبي، ودخلت هيئة المحكمة مرة أخرى.

السيد لوغدين:

"المحكمة تطلب من السجين الفويجي جيمس بوتون المثول للشهادة".

قام حاجب المحكمة المجاور لجيمي بلمس كتفه ليعلمه أن دوره حان ليتحدث. وقف بوتون على قدميه. ظلت عيناه هادئتين في محجريهما الغائرين. ظهر أمام المحكمة وأدّى اليمين على الكتاب المقدّس. مرة أخرى، ربما المرة الأخيرة، كان رجلاً مهتماً بطقوسنا وشعائرنا الغريبة، وها هو واقف هناك الآن، دون أي أثر للخوف، ينظر إلى الأمام مباشرة ولكنه مدرك لكل شيء.

جيمس بوتون:

"مكثت في جزيرة كيبل أربعة أشهر قمرية، مع زوجتي وأطفالي. لم أكن أرغب في التوقّف؛ لم أرد ذلك؛ لم أحب ذلك. قال ديسبارد: ارجع يا جيمي أنت مسنّ؛ فليتوقف أطفالك. قال لي أودّ أن يتوقّف الأطفال في وولايا؛ لكنهم يريدون العودة، كلهم يرغبون في العودة وولايا".

كانت لغة بوتون الإنجليزية تستيقظ تدريجياً من سبات مدة ثلاثين عاماً تقريباً. بحثت أفكاره عن صوتها في تلك اللغة، في البداية لم تعثر عليه، ولكن شيئاً فشيئاً نجح في ربط كلمة بعد كلمة وعبارة بعد عبارة. عندما سمعته، شعرت بشكل أكيد أنه لا يمكن لأحد في قاعة المحكمة إلا أن يشعر: مهما كان

مظهره، إلا أن هذا الرجل لم يكن عادياً. بدا المدّعي العام لوغدين نفسه معجباً به. بعد وقفة قصيرة، سُأل دون عداء، ما إذا كان القس ديسبارد قد طلب منه الذهاب إلى كيبل.

"قال السيد ديسبارد: "اذهب مرتين إلى كيبل، ومرتين في السنة إلى وولايا؛ لا يوجد عمل في كيبل. برميل الماء عبارة عن حوض كبير في كيبل؛ اصطد الأسماك بالحربة في كيبل، لا تصطد الفقمات، اصطد الأسماك، الأسماك الكبيرة". كان أحد أبناء بلدنا غاضباً جدًا عندما بحث ديسبارد في الحقائب. قتل مواطنو الأوين الكابتن فيل؛ كما قتل الباتاغونيين الرجال بالقوس والسهم. بلدي مجرد قناة صغيرة، وآخرون يأتون من مساحات مائية كبيرة؛ بلدي بالقرب من وولايا، بلدهم بالقرب من باتاغونيا. قال أولاد بلد أوين إننا لن نقتلكم؛ إذا ذهبتم بعيدا، وقتلناهم. قُتل الكابتن فيل بالحجارة على يد أبناء بلد أوين. رأيت مقتل النقيب فيل والنجار؛ ورأيت رجلاً آخر قتيلاً. لم أرَ مقتل ر. فيليبس وضعت أربعة على الأرض. لم أرَ الآخرين. سأرى الكابتن سمايلي. لم أرَ أحداً يعيش. أعتقد أن أحدهم هرب في الحقل، لقد ركض مبتعداً. دفنت الكابتن فيل والنجار واثنين من السويديين. لم أنم في المركب، ركضت في جميع أنحاء الجزيرة، لا أثر لرجل أبيض. قال أخي بحثنا عن جثّة الكابتن فيل، عند الأرض بالقرب من المنزل، وحفر أخي. كل قبيلة تتحدّث بشكل مختلف، المرأة في وولايا هي "كيبا". لدى قبيلتي خمسة عشر زورقا، الكثير من الزوارق

على الجانب الآخر من الماء، الكثير. شعب يورك لا يتكلمون لغة وولايا، أما بلد أوين فلا يتكلّمون. لدى بلد يورك سفينتان محطمتان منذ وقت طويل. والرجال من يورك يأكلون الرجال، إنه بلد بدائي. ربما سيعود أخي إلى كيبل. اكتفيت من الأمر، لا أريد العودة فقد كنت بعيداً ثلاث مرات. ربما يعود رجال البلد. لكن ولدي لا يريد العودة إلى كيبل".

لقد كان هذا هو آخر تطفل للبيض على بوتون، وكان بالتأكيد آخر تنازل له للإنجليز. هذا ما كان لديه ليقوله، وقد قال ذلك باللغة الإنجليزية.

لقد استخدمت اللغة التي استخدمها. استخدمت، لغة مالوري هذه المرة فقط. إنها واحدة من المفارقات العظيمة لهذه القصة. ولكن في حالة قيام أحد مواطني بلدي بقراءة هذا القصة يوماً ما، فسأترجم ما قاله بوتون. وسأشرح، ما قاله حسب رأيي:

"كنت في جزيرة كيبل أربعة أشهر، مع زوجتي والأطفال. لم أحب البقاء هناك. لم أرد ذلك، لم يعجبني. قال ديسبارد: "عد يا جيمي، أنت عجوز، لكن دع أطفالك يبقون". كنت أرغب في بقاء الأطفال في وولايا؛ أردت العودة. كلنا أردنا العودة".

(أوضح بوتون أن عبوره إلى كيبل كان وسيلة لإرضاء البيض الذين جاؤوا بأخبار عن بعثة. لقد كانت رحلة وإقامة للاستطلاع).

سؤال: "هل طلب منك السيد ديسبارد أن تذهب إلى كيبل؟".

الجواب: "قال ديسبارد اذهب إلى كيبل مرتين. مرتين (تساوي) سنة واحدة في وولايا: أنا لا أعمل في كيبل، برميل صغير من الماء العذب هو برميل كبير في كيبل. سوف تصطاد بحربة في كيبل، لن تصطاد الفقمات لكن السمك، السمك الكبير. لم أرَ البحارة يفتشون الحقائب؛ كان أحد أبنائنا غاضباً جداً عندما فتش ديسبارد الحقائب. قتل أبناء أوين الكابتن فيل. تماما مثل الباتاغونيين، كانوا رجال القوس والسهم. إن بلدي يقع عند قناة صغيرة، والآخرون يأتون من مساحات مائية كبيرة. بلدي هو وولايا، وبلدهم قريب من باتاغونيا".

(وبعبارة أخرى، اعترف بوتون بغضب شعبه بسبب البحث؛ لأنه كان من السخف إنكار ذلك، لكنه ورط القس ديسبارد، وفي الوقت نفسه ألقى باللوم على أعدائه من الأسلاف، شعب الأوين، الذين وصفهم بالشرسين).

"قال لي رجال الأوين: لن نقتلكم أيها الناس، اذهبوا بعيداً، سنقتلهم. وضعت أربعة في الأرض. لم أر الآخرين. دفنت الكابتن فيل والنجار واثنين من السويديين الآخرين. لم أنم في المركب، تجوّلت في داخل الأرض. لم أنم بعدها، بل تجوّلت. تجوّلت في جميع الجزر هناك، ولم أر رجالا بيضًا. قال أخي: "نبحث عن جثّة الكابتن فيل". حفر أخي في جميع أرجاء الأرض بالقرب من المنزل".

(في النهاية كان هذا عذر بوتون حتى يتمكّن من العودة إلى وولايا. لقد دفن الجثث. كان يعرف أن البيض سيرغبون في استعادتها ودفنها وفقاً لطقوسهم. لقد عرف مكان وجودها، ومن ثم لا بد أنهم سيعيدونه ليريهم المكان).

"كل قبيلة تتحدّث بشكل مختلف، في وولايا المرأة هي "كيبا". قبيلتي لديها خمسة عشر زورقاً، هناك الكثير من الزوارق على الجانب الآخر من الماء، الكثير. شعب يورك لا يتكلّم لغة وولايا. في بلد الأوين لا يتحدثون، هم لا يتحدثون. ومنذ مدة طويلة دُمّرت سفينتان في بلد يورك. وشعب يورك يأكلون لحم البشر إنه بلد خطير".

(كان بوتون يمنح البيض أدلة لإخبارهم بأنهم ليسوا جميعاً متشابهين في تييرا ديل فويغو، وأن سكانها يتحدثون لغات مختلفة. بالإضافة إلى ذلك، كانت منطقة مأهولة بأكلة لحوم البشر، وهو أمر يعرف جيمي جيداً أنه يرعب الأوروبيين. لذا هي مكان خطير. من الأفضل عدم الذهاب إلى هناك).

"ربما سيعود أخي إلى كيبل. أنا اكتفيت، لا أريد العودة؛ كنت بعيداً عن بلدي ثلاث مرات. ربّما سيعود مواطنو بلدي، لكنهم لا يريدون العودة إلى كيبل".

(بهذا الوعد الغامض حمى بوتون شقيقه، وأوضح أن لا علاقة لهم بأيّ شيء يخصّ البعثة. وكلمات «ثلاث مرات» تضمّنت -أيضاً- الرحلة إلى إنجلترا).

على كل هذا، شعرت بخيبة أمل. من الغريب أنني تخيّلت ادّعاءً من قبل بوتون يستحيل عليه تقديمه. لم يكن مهتماً بالبيض، ولم يكن لديه ما يقوله لهم ولم تكن لديه رغبة في كشف عن أي شيء لهم. فقد كان يتصرّف على أنه المواطن سيّئ الحظّ ذو النيات الحسنة. وكان قد توصل ليكتشف حقيقة ما كانت نياتهم بعد المذبحة، لمعرفة ما إذا كان هناك رحلة عقابية. كان عليه فقط أن يقدّم عذراً صالحاً لإعادته. وقد ذكره بالفعل.

لقد قيل كل شيء الآن. أعلن لوغدين أن المحكمة ستأخذ استراحة للتداول.

أبقيت عيني على بوتون وتقاذفت الأسئلة في ذهني مثل المخالب الحادة. ما كانت كل هذه المهزلة؟ أو لم يفهم هؤلاء الرجال والنساء المحترمون الحدود التي قادوا إليها الياماناً؟ ألم يعلموا أن صيادي الفقمات والحيتان قد ضربوا حتى الموت قطعاناً كبيرة من الفقمات وأسود البحر والثعالب وحيوانات الغوناق، وسرقوا الطعام وقتلوا فقط بدافع القتل؟ ألم يعرفوا أنهم اغتصبوا نساءهم وفتياتهم، وفي الغالب الفتيات الصغيرات لأن النساء قاتلن بشراسة مثل الرجال، ومن أجل إخضاعهن، كان عليهم في كثير من الأحيان ضربهن حتى الموت، بينما كانت الفتيات الصغيرات مثل الفقمات، يسهل الإيقاع بهن في الفخ، وهن أكثر ملاءمة لتسلية هؤلاء الرجال المضطربين؟ ألم يعلموا أن هذه الجِماعات المتوحشة أسفرت

عن أطفال غير شرعيين ربّاهم شعب اليامانا؟ ألم يعلموا أن رجالاً آخرين من جانب غير مؤذٍ، يُعرفون بالعلماء، لطخوا عجينة بيضاء على وجوههم لعمل أقنعة وعرضوها في بلدان بعيدة، وأن هذه العملية تسببت أحياناً في الوفاة اختناقاً بسبب فقدان الأكسجين، أو عن الاختبارات المهينة على الأعضاء التناسلية وصدور النساء أو الأولاد الذين اقتربوا منهم ببراءة؟ لقد بدوا عراة، ومن ثم اعتبروا أنهم يفتقرون إلى الأخلاق تماماً. هل كان رجال الكنيسة الممتقعون يجهلون حقيقة أن حالتهم العارية ضرورية للبقاء على قيد الحياة، لأن النساء كان عليهن أن يغصن من الزوارق ويصطدن بهذه الطريقة دون ملابس؟ أراد المبشرون منهم أن يتركوا أطفالهم في رعايتهم من أجل القضاء على تقاليد أسلافهم. لم يعرفوا أن آباءهم وأجدادهم وأسلافهم قد تناقلوا تقاليد روحية طويلة من الاحتفالات السرية والحكمة التي تلقّاها الشباب من المسنّين؟ أخيراً، ألم يدركوا مدى عدم جدوى فكرة الملكية بالنسبة لهم، هي عديمة الجدوى من أجل بقاء اليامانا الذي يشتركون بكل شيء؟ وبالنتيجة، كم كان هوس هيمنة البيض سخيفاً بفكرة السرقة؟ ما المعنى الذي يمكن أن تمتلكه هذه الكلمة التي عوقبوا وقتلوا بسببها؟

بالنسبة لبوتون، كان ما أسمته هيئة المحلفين "المذبحة" نتيجة قاتلة لسلسلة من الأحداث، ونقطة انفجرت فيها الكراهية التي بقيت كامنة لعقود. تم دفع الثمن.

فُتح الباب الجانبي، ودخل لوغدين مع شابلن بول. من الواضح أن المحكمة كانت ترغب في الانتهاء من ذلك في أقرب وقت ممكن.

شابلن بول:

"كل شيء تقوم به هذه المحكمة سيتم تناوله في المكتب الاستعماري في لندن. اتضح من إفادة جيمي بوتون، أنه أعلن باستمرار عن عدم رغبته وعدم استعداد شعبه للذهاب إلى جزيرة كيبل. لا يوجد دليل مباشر على أن بوتون شارك في المأساة الفظيعة، مع أنه شارك في النهب، إن مجيئه على متن سفينة النانسي طوعاً يثبت أنه لم يكن عملاً مع سبق الإصرار، ونعتقد أنه كان عملاً انتقامياً قام به مواطنون مجهولون شعروا بالإهانة لدى تفتيش حقائبهم، أما بالنسبة للعمليات التبشيرية المستقبلية، فيجب أن يتم ذلك في بلدان السكان الأصليين بين الناس، ويجب أن تكون المجموعة التبشيرية مسلّحة في حالة الطوارئ، يجب أن يعيشوا في منزل حجري، ويزرعوا الحدائق، ويحاولوا تعليم السكان الأصليين اللغة الإنجليزية".

أُطلق سراح جيمي بوتون. ذهب إليه الكابتن سمايلي، وقال شيئاً، فخرجوا من الباب الرئيس معاً. تم إبعاد كولز. غادرت هيئة المحلّفين الغرفة. بدأت بعض النساء بصخب في إعادة ترتيب الكراسي والمقاعد.

في الخارج، استمر عدد من الرجال بمناقشة الأحداث. لا شيء كان واضحاً تماماً. أصبح الأمر أكثر تعقيداً مما كان يُعتقد أنه عليه في البداية. لقد أثار بيان باركر سنو شكاً كبيراً. وقد تم التطرّق إلى المصالح في الجزر، التي لن تحلّها هذه المحاكمة. وأخيراً، ما الدليل ضد بوتون؟ لقد دفن الموتى، وقد جاء ليدلي بشهادته طواعياً. يبدو أنه لا توجد اتهامات حقيقية ضده، باستثناء كلمة رجل مجنون. لم يكن الطاهي كولز مقنعاً ولم يدفعهم ليثقوا به. كان شيطاناً جاهلاً وبائساً، يمكن أن يغفو أثناء المحاكمة. دفعت لندن مئات من أمثاله إلى السفن. من ناحية أخرى، على أن بوتون كان متوحشاً، إلا أنه كان يتمتع بهيبة معينة. فقد اشتهر في لندن: ألم يستقبله الملك؟ ألم تتحدث عنه الصحف؟ ومع أن هذا قد حدث قبل عقود، إلا أنه لا يزال يمتلك الهالة التي لا تُقهر والتي تمكنت حتى الآن من دفع البيض الذين اقتربوا منه لاحترامه.

فتح الهواء الجليدي رئتيّ. على الشاطئ الرمادي تشاجر قطيع من طيور النورس مع الغاق على وجبة المساء. استمرت المحاكمة ثماني ساعات.

في مكان إقامته، كان سمايلي يجهز أموره. كان ديسبارد قد أعطاه تعليمات بالعودة إلى تييرا ديل فويغو على الفور، واستعادة سفينة آلين غاردنر، وإعادة بوتون إلى وولايا. الأخير سيدلهم على مكان دفن جثث المبشرين حتى يتمكن القبطان من دفنهم حسب الشعائر المسيحية. كان عليهم أن يرفعوا

المرساة خلال بضع ساعات، بمجرد الانتهاء من استعداداتهم. أما بالنسبة لي، فقد حجزت عبوري على متن سفينة تغادر إلى مونتيفيديو في ذلك المساء بالذات.

كان لا يزال هناك بعض الضوء في السماء، وكان لدي شيء لأقوم به.

لا يمكن لليل في الجزر أن يكون أكثر حزناً. مشيت على رصيف الميناء. بالقرب من كوخ، رأيته وحيداً يجلس على لفائف من حبال المرساة.

أشعلت غليوني لأعطي نفسي الوقت واقتربت ببطء. انحنى عندما سمعني، كما لو كان يبحث بالفطرة عن الأحجار. عندما عرفني، استقام واقفاً.

"جاك"، كان صوته كثيفاً، بالكاد مسموعاً.

لم أكن إنجليزياً. كنت أعلم أنني بالنسبة له لم أكن رجلاً إنجليزياً قطّ، مع أن اللغة الإنجليزية كانت اللغة الوحيدة التي تمكّنا من التواصل بها.

"أوموي لوم". صافحته طويلاً.

وقفنا ينظر بعضنا لبعض مدة وجيزة. لمس صدره وأشار إلى النانسي ليخبرني أنه سيتم نقله على متنها. بإيماءة دقيقة

سريعة أشار إلى الجنوب. لقد كانت إشارة قوية حازمة.

نظر إليّ ثانية وقال:

"العائلة، والأبناء، بخير؟".

كذبت: "على أفضل مايرام".

"كم عدد الأطفال وكم عدد الزوجات؟" أراد أن يعرف.

قمت بإيماءة مبهم، فابتسم: "لدى أوموي لوم أربع زوجات وتسعة أطفال صغار وكبار".

هزّت الرياح شعر جيمي الخشن أكثر. لاحظت التجاعيد والتعب المتراكم حول عينيه، ولا شكّ أنه رأى الشيء نفسه في عيني. حتى إن التجاعيد والتعب كان أكثر مما رأيته مساء لقائنا في الضباب.

على بعد حوالي خمسين متراً، فُتح باب الكوخ على الرصيف، وقام كثير من الرجال بسحب الحُزم التي قاموا بتحميلها في أحد قوارب النانسي. وتحت سماء الغسق الرمادية الشاحبة، أضاءت إحدى السفن فوانيسها القوية.

"رأيت جاك في الكوخ الكبير".

"كان يجب أن أكون هناك، جئت لرؤيتك".

بقي صامتاً لحظة. ثم قال بصوت متعب: "البيض هربوا

وهم يصرخون. ولكن قبل ذلك، صرخ نساؤنا وأطفالنا، ولم يستمع أحد. انتشر عويل الفقمات وأسود البحر. لم يتركوا شيئاً. لذلك قتلناهم. شارك ابني -أيضاً- في القتل. يجب ألا يعودوا". كان بوتون يتحدّث بعينيه مثبتة على عيني، يؤكّد أنه كان ينقل رسالة يجب أن تكون مفهومة جيداً ويمرّرها. كان يبحث عن الكلمات التي لم يكن يمتلكها، أخذ وقته، أراد أن يُقال كل شيء بأكبر قدر من الدقة.

"أنا أفهم، أوموي لوم".

لا معنى للأسئلة الآن. كرر بطريقة أخرى ما قاله سابقاً:

"الموت ليس جيداً يا جاك؛ هو أمر ضروري. إننا نعيش أوقاتاً سيّئة".

"إنني أتفهم".

أصبح عبورنا إلى إنجلترا ضبابياً في ذاكرة بوتون وتلاشى وراء غشاوة الزمن الطويل. فما حدث هناك ينتمي إلى ذاكرة الآخرين أو تم نسيانه. في بعض الأحيان فقط يعود وميض الأماكن والأشخاص والأشياء التي لا يمكن تفسيرها. كان هناك جنون في عالم البيض، وهو عنف لكنه لم يكن عنفاً يتضمن أشياء مثل رمي الحجارة بالحبال أو صيد سمكة كبيرة بحربة.

صاح رجل بأن القارب جاهز.

"وداعاً جاك"، مدّ بوتون يديه وأمسك ذراعيّ. "آخر وداع".

أمسكت ساعديه بشدة:

"لن نلتقي مرة أخرى".

"آخر مرة جاك. لا مزيد من الأحلام".

"وداعاً أوموي لوم".

صعد برشاقة إلى القارب. جدف الرجال على مهل. اختفوا خلف هيكل السفينة، ثم صعدوا على جانب الميناء. جعلتني عاصفة مفاجئة من الرياح الباردة أرتجف وهزت أشرعة السفن. رأيت جيمي يظهر من جديد عند درابزين السفينة. راقبني من هناك متكئاً على مرفقيه في المؤخرة بمفرده. ومع الصوت المألوف للسلاسل والصراخ المتكرّر، رفعت سفينة النانسي المرساة، وكانت الأشرعة مفتوحة، وبدأت السفينة ببطء في رسم نصف دائرة.

بقي بوتون بلا حراك في المؤخّرة، وبقي ينظر في اتجاهي. عندما حولت السفينة مقدمتها إلى الجنوب، نزع قميصه وسرواله فجأة وقذفهما في الهواء من جانب السفينة. رفرفت الرقع القماشية الصغيرة للحظة في الهواء هناك تحت السماء ثم سقطت في الماء.

وهو عارٍ، رفع ذراعه وأبقاها عالياً. كانت يده فوقه وأصابعه متباعدة بعضها عن بعض.

رفعت ذراعي.

بعد أن استعاد حالته الأصلية العارية، كان بوتون يعود إلى الحلم العميق بتييرا ديل فويغو، إلى الرياح القطبية، إلى حرية غاباتها، إلى أقدم شتاء في العالم، إلى نار المشاعل الطويلة في الليل الجنوبي، إلى وطنه الام.

لن يكون هناك "مصير لاحق" يلحق "بالمواطن السيّئ الحظ". ولا لشعبه ولا لأي شخص في وطنه الأم لأنهم، بمصادفة قدرية، سوف يستسلمون. كان قدره وقدر شعبه مقرراً. فقد أصبح الشيطان موجوداً في بلد أوموي لوم الآن.

إنني أكبر في السنّ، يا سيد مكدويل أو مكدونيس. هناك على رصيف الميناء، عندما رأيت النانسي تتحرك بعيداً، شعرت أول مرة أنني كبرت في السنّ. لقد شهدت الكثير من المدن والحانات والمتسوّلين والعاهرات والعواصف، والكثير من النجوم. المحيط في نهاية العالم، ومدينة تشبه المحيط، وإيزابيلا، وطيور القطرس بجناحيها المفرودة في مهبّ الريح، سفينة الإنكاونتر وسفينة البيجل، وامرأة من اليامانا وابنها عاريان تحت الثلج المتساقط، شراع متيبس من الجليد، قبران تعصف بهما الرياح، تسمانيا واليابان وحكاية روبنسون التي علّمني مالوري كيف أقرؤها، تدور كلها دائخة -مثل ثقل مسعور يعصف في ذاكرتي- حول النقطة الصغيرة اللا نهائية

التي هي أنا، كنت واقفاً على رصيف الميناء في ستانلي، أشاهد مؤخّرة سفينة النانسي تختفي في الظلام وتتّجه نحو الجنوب.

نحن في أبريل، ويقين حلول الخريف هو بمثابة بلسم للسهل المنهك في الصيف. أشعر كأنني شخص يتماثل للشفاء ويختبر نفسه بحذر لمعرفة ما إذا كان يستطيع المشي أم لا. لقد مرت أسابيع منذ أن أنهيت قصّتي. منذ ذلك الحين، كنت أستقلي على السرير، وأشاهد بلا مبالاة مرور الأيام والليالي. اقترب أياكس، ينظر إليّ كما تفعل الكلاب ويستلقي مرة أخرى. اليوم أصبحت جاهزاً أخيراً لوضع بضع كلمات أخيرة وتاريخ لأجزاء هذه القصة المكتوبة لأتمكّن من تنظيمهم نوعاً ما. إنه ليس أكثر من إجراء شكلي. لقد بلغت السنّ الذي كان فيه والدي عندما اتخذ قراره النهائي. وأنا أفهم أن هناك دائماً طريقين ثم طريقين آخرين، وهكذا إلى ما لا نهاية، ولكن في البداية، طريقين فقط.

نظرت غراسيانا إلى وجهي وكأنها تعرفت عليّ، كانت سعيدة لأنني نهضت لاستئناف نشاط أصبح مألوفاً لها الآن. كما لو أن شيئاً ما يبدأ من جديد.

غداً، أو ربّما هذا المساء إذا تمكّنت من استجماع الإرادة للقيام بذلك، فسوف أقوم بتنظيف الطاولة، وسأضع مصباح الزيت في المنتصف، وسأريها كيفية الإمساك بالقلم، وغمسه

في الحبر، وكيفية تتبع وتعلم الرموز الغامضة التي شاهدتني بصبر وأنا أعيش معها لأشهر عديدة. إذا كانت هذه القصة غير مكتوبة لأي أحد، فربما ينبغي عليّ أن أخلق قارئاً لها، وربما تكون هي، سيد مكدويل أو مكدونيس، هي التي ستتمكن يوماً ما من فهم هذه الأوراق الموجهة إلى لا أحد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سيلفيا إيباراغويري

فاجأت سيلفيا إيباراغويري النقّاد عندما نشرت رواية أرض النار سنة 1999، بعد أن أثارت زوبعة إعجاب في الصحف المحلية، وذلك لجمال القصة وقوة اللغة الشعرية التي كُتبت بها، ما حداهم بإطلاق لقب "تلميذة بورخيس" عليها. وبعد مُضيّ عشرين سنة على صدورها ما زالت رواية أرض النار تحظى بالمديح العالمي من صحف بحجم دير شبيغل الألمانية أو ذا تيكساس أوبزيرفر أو اللوموند أو الغارديان.

في عام 1999 حصلت رواية أرض النار على لقب "كتاب العام (معرض الكتاب في بوينس آيرس)". وفازت في السنة نفسها بجائزة **Sor Juana Inés de la Cruz** المرموقة. مؤخّرا، وضعتها صحيفة الغارديان البريطانية ضمن أفضل عشر روايات تتحدث عن أمريكا اللاتينية.

telegram @soramnqraa

9921 712292

دار الخان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

Info@daralkhan.com

@DarAlkhan_kw